
رائحة الورد .. وأنوف لا تشم

عندنا جحيم

ملقى على الأرض

يسمى .. جحيم المطلقات ..

إحسان

(١)

كانت سعاد قد عادت إلى « غرفة القعاد » التى أصبحت تسمى غرفة التليفزيون وألقت نفسها على الأريكة وهى تزفر تنهيدة تستريح بها من أعمال البيت .. الأعمال الشاقة المحكوم عليها بها منذ سنوات حكما مؤبدا .. ورفعت عينيها إلى بناتها الثلاث المتفرقات فى الغرفة .. سهير جالسة على المقعد الكبير وقد رفعت ساقيها وتركتهما تتدليان من فوق مسند المقعد وأطراف ثوبها انزلقت حتى بطنها وكشفت عن كل لحم الساقين .. وسميرة جالسة على مقعد آخر تقرأ كعادتها فى كتاب .. وسامية جالسة بجانب التليفون وهى تنظر إليه فى غيظ وتطلق أنفاسها فى زهق .. والصمت يخيم على الجميع .. وسعاد تنقل عينيها بين البنات الثلاث فى نظرات حائرة كأن فى عقلها سؤالا يبحث عن جواب ..

وقامت سامية من جانب التليفون وضغطت على مفتاح التليفزيون .. وقالت أمها سعاد فى هدوء :

- ليس هذا وقت التليفزيون .. ليس فيه إلا دروس للطلبة .. دعينا نرتاح من الدوشة ..

وأطفأت سامية التليفزيون وعادت ووقفت أمام أمها وقالت فى لهجة تمثيلية من خلال ابتسامتها :

- آسفة يا مدام ..

وعادت إلى التليفون ووضعت يدها على السماعة تتحسسها كأنها تغريها بأن ترن ..

وعادت سعاد تهيم بنظراتها بين بناتها الثلاث .. والسؤال التائه يتردد فى داخل عقلها ويستحوذ على كل خيالها .. متى تتزوج البنات وكيف تتزوجن .. ربما كان سؤالا يتردد على عقلها وخيالها منذ ولدت كل منهن .. وسهير الآن فى الحادية والعشرين من عمرها .. وسميرة فى التاسعة عشرة تكاد تستكمل العشرين .. وسامية فى السابعة عشرة .. ورغم ذلك فسعاد لاتستطيع حتى الآن أن تجيب على السؤال الذى يقلقها طول حياتها .

إنها تؤمن بأن ليس هناك مستقبل لأى بنت إلا الزواج .. ومهما قيل عن تطور حياة البنات وأنهن أصبحن الآن يبحثن عن العلم والعمل قبل أن يبحثن عن الزواج .. وأن عمل البنت أصبح يغنى عن زواجها أو على الأقل أصبح العمل يتحمل تأجيل الزواج .. مهما قيل فهو كلام فاض سخيف .. فالبنت لا يمكن أن تستكمل كيانها وتستكمل شخصيتها الاجتماعية وتعيش الحياة بكل ما فيها من نعيم ومن متاعب .. لا يمكن أن تحقق شيئا من كل هذا إلا بالزواج .. ورغم ذلك فهى لم تهمل إعداد بناتها لمتطلبات الحياة الحديثة .. لقد كانت حريصة على أن تكفل لهن التعليم وإن كانت لا تتمنى أن ينتهى بهن التعليم إلى أن يكن عاملات .. كل ما تتمناه وتنتظره لهن هو الزواج .. وابنتها الكبرى لا تهوى العلم ولا تطيق المدارس ولا تحلم بدخول الجامعة .. إنها كأبيها لا تستطيع أن تعيش الحياة الجادة وتستسلم لكل ما يطلبه مزاجها الخاص .. الدنيا كلها هى وحدها بما تريده منها .. لذلك فهى لم تتم دراستها الثانوية بعد ولاتزال تتقدم لامتحان الثانوية العامة بعد أن رسبت فيه عامين متتالين ..

وابنتها سميرة شىء آخر .. إنها تكاد تكون متفرغة بكل إحساسها للعلم .. وقد حصلت على الثانوية العامة التى عجزت أختها الكبرى عن الحصول عليها ، وهى اليوم فى الجامعة بالسنة الأولى بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، وسعاد لا تدرى لماذا اختارت ابنتها سميرة هذه الكلية ولا تعلم شيئا مما يدرس فيها ولا عن المستقبل الذى تعد له خريجيها ..

ولكنها تعلم أنها كلية صعبة ولاتقبل من الطلبة إلا أصحاب المجموعات العالية ، وهى فرحة لأن ابنتها نجحت بمجموع عال .. إن سميرة أقل بناتها فى متاعبها ومشاكلها ومطالبها ولكنها جادة إلى حد لا يطاق حتى أن سعاد تخشاها كأنها هى كبيرة العائلة .. لعلها ورثت هذه الجدية عن جدها لأمها .. لقد كانت سعاد تعلم عن أبيها أنه جاد إلى حد لا يطاق ..

وابنتها الصغرى سامية هى أيضا شىء آخر .. لقد خيبت سامية أملها يوم ولدت فقد كانت تعمدت أن تحمل حتى تنجب ولدا لعل الولد يزيد ارتباطها بزوجها ويغير من أحوال هذا الزوج فيخفف من متاعبه التى يصبها عليها .. ولكنها جاءت بنتا .. ولكن برود الفرحة بها ما لبث أن تحول مع الأيام إلى كل الفرحة وكل الحب .. إنها جميلة .. كل بناتها الثلاث جميلات سامية أجملهن .. ولها شخصية مرحة ولكنها أيضا شخصية عاقلة .. إنها ليست مهملة كأختها سهير وليست جادة إلى هذا الحد كأختها سميرة .. إنها تجمع بين الضدين وتضعهما فى شخصية حلوة جذابة .. وقد استطاعت رغم شقاوتها أن تصل هذا العام إلى الثانوية العامة ولا شك أنها ستدخل الجامعة فى العام القادم وتبقى الأخت الكبرى وحدها فى المدرسة الثانوية ولعلها تترك المدرسة وتبقى فى البيت .. إن سعاد تفكر إذا تركت سهير المدرسة أن تلحقها بمعهد لتعليم الخياطة لا على أمل أن تستطيع يوما خياطة ثوب ولو ثوبها ولكن لمجرد ألا تبقى فى البيت وتزداد متاعبها ..

وسعاد لا تهتم بحالة بناتها من الناحية الدراسية .. المهم أنه حتى الآن لم تبد أى بادرة تحقق الأمل فى زواج إحداهن .. إنها هى نفسها تزوجت قبل أن تتم السادسة عشرة من عمرها .. وهى تعلم أن الظروف التى فرضت زواجها لن تتكرر بالنسبة لبناتها ولا تقبل أن تتكرر بل إنها تفنى عمرها لتحميهن وتصد عنهن مثل هذه الظروف .. ولكن أين الظروف الأخرى التى تحقق زواج البنات .. إنها تمزق عقلها بحثا عن مثل هذه الظروف .. ولكن لعل حياتها مع بناتها كزوجة مطلقة هى التى تبعد هذه

الظروف .. عائلة بلا رجل .. ويقال إن الحياة الاجتماعية هى التى تحقق لقاء البنت بالولد ولقاء العائلة مما ينتهى بتحقيق الزواج .. وهى لا تدرى أين تضع نفسها من الحياة الاجتماعية .. إنها هى نفسها لا تريد حياة اجتماعية .. إنها لا تستريح ولا يحقق سعادتها إلا بقاؤها وحدها داخل بيتها تخدم بناتها ، ولكنها كانت تضغط على نفسها حتى توجد هذه الحياة الاجتماعية .. كانت تفتعل صداقات مع كثير من السيدات .. وتقبل على الزيارات .. وتتحمل الدعوات وأحيانا تصحب بناتها معها إلى هذه الدعوات أو تصحب واحدة منهن كأنها تعرضهن عل الناس للفرجة لعلها تصل بإحداهن إلى الزواج .. ولكنها كانت دائما تشعر فى هذه المجتمعات بأنها شخصية ناقصة .. لأنها وحدها .. ليس لها رجل .. إنها لا تستريح أبدا وتشعر بشخصيتها كاملة إلا مع صديقتها هدى لأنها مطلقة مثلها .. وهدى ليس لها ابن يصلح للزواج حتى يتبادلا حل مشاكل كل منهما ..

ولمحت سعاد ابنتها سهيروهى ترفع ساقيها العاريتين من فوق مسند المقعد ثم تقوم وتدخل غرفتها ..

وعادت هائمة مع السؤال الذى يسيطر على عقلها وخيالها ..

لماذا لا تصارح نفسها بأنها هى نفسها قد تكون سبب إعاقة الظروف التى يمكن أن تحقق زواج بناتها .. إن لها ماضيا .. ماضيا لايزال الكثير من الناس يتذكرونه ولعلهم يتندرون به كلما وقعت أعينهم عليها .. وهم لا يعرفون عن ماضيها إلا ما سمعوه أو ما شهدوه من بعيد .. ولكنهم لا يعرفون ما فرض عليها هذا الماضى .. وكيف قاومته سنوات طوالا فى أتون من العذاب .. كيف عاشت عمرا وهى مختبئة داخل البيت بعيدا عن الدنيا كلها حتى لا يلحق بها هذا الماضى .. إنهم لا يمكن أن يعترفوا لها بأنها ضحية .. ضحية من .. إنها هى نفسها تعانى الكثير لإقناع نفسها بأنها ضحية .. وتعانى أكثر فى تحديد من تكون ضحيته ..

* *

وعادت سهير إلى غرفة التليفزيون وقد ارتدت ثوبا للخروج وساوت شعرها الناعم المدلى فوق كتفيها واستكملت صباغة وجهها بالألوان وقالت فى بساطة :

- إنى خارجة يا ماما ..

وقالت سعاد وهى غير راضية :

- إلى أين ؟

وقالت سهير وهى تخطو نحو الباب :

- إلى صديقتى نيفين ..

وقالت سعاد فى حدة :

- ألم نتفق على أن نبتعد عن نيفين هذه ؟

وقالت سهير وهى تضع أصابعها على قفل الباب :

- لم أستطع بعد يا ماما .. باى باى ..

وقالت سعاد وهى تتنهد :

- لا تتأخرى عن الثامنة ..

ولم تسمع رد سهير قبل أن تخرج .. وعادت تتنهد كأنها فى حسرة .. لقد عودت بناتها الثلاث على أن تتحمل كل منهن مسئولية نفسها فى حياتها وتصرفاتها الخاصة بشرط واحد هو أن تقول لها كل شىء ثم تسمع رأيها فيما قالته .. وهى واثقة أن بناتها لا يخفين عنها شيئا .. لا يحملن سرا لا تعرفه .. حتى أدق التفاصيل .. حتى لو استسلمت إحداهن لقبلة شاب فإنها تقول لها عنها .. وربما كانت الوحيدة التى تفرط فى القبلات هى سهير .. وسميرة لم تمسها قبلة حتى اليوم .. وسامية سمحت بقبلة واحدة على خدها .. وثقة سعاد فى أن ليس بينها وبينهن أسرار هى التى تطمئنها عليهن .. وهى لا تستطيع أن تحتفظ بهذه الثقة إلا إذا تركت كلا منهن

مسئولة عن نفسها .. وهى مسئولية يراعين فيها الحرص على عدم تحدى أمهن أو إغضابها مع حرصهن على أن يبحن لها بكل شىء .. لذلك فهن حريصات على ألا يرتكبن خطأ لا يستطعن أن يبحن لها به .. وهى تعلم أيضا أنهن يقدرن ظروف حياتهن .. فهن ثلاث بنات وأم يقمن فى بيت وحدهن . بلا أب .. بلا رجل .. لذلك فهن عرضة لكلام الناس ولتشويه كل تصرف من تصرفاتهن أكثر من أى بنت أخرى .. إن سعاد واثقة من كل هذا .. ومقتنعة أن تربية الأم لبناتها وهى وحدها لا شك تختلف عن تربيتهن والأب معها .. لأن الأم تفهم طبيعة البنت أكثر مما يفهمها الأب .. إنها نفس طبيعتها .. وهى تعطيهن ما كانت تتمناه لنفسها وهى فى سنهن وتصونهن من نفس التجارب التى مرت بها هى .. ولكنها رغم ثقتها فى الأسلوب التى تربى به بناتها فهذه الثقة تهتز بالنسبة لسهير .. ولكنها لا تستطيع أن تميزها عن أختيها بأسلوب خاص حتى لا تحس بأنها تضطهدها .. وتخشى ما يمكن أن يدفعها إليه إحساسها بالاضطهاد .. إنها لا تملك إلا الاستسلام للقدر ..

ولم تمض دقائق على خروج ابنتها سهير حتى دق جرس التليفون وخطفت سامية السماعة فى لهفة ثم حملت التليفون وجرت به إلى داخل غرفتها .. إن سعاد هى التى جعلت للتليفون هذا السلك الطويل الذى يمكن أن يجره إلى كل غرف البيت .. وقد فعلت ذلك حتى تستطيع أن تتكلم فيه وهى راقدة على فراشها وخصوصا فى أيام مرضها الذى تعانيه كل شهر .. ثم لأن السلك الطويل يعتبر مظهرا من مظاهر رقى البيت وديكورا فى تجميله .. ولكنها تمر عليها فترات تغتاظ فيها من هذا السلك الطويل .. إنه يحرمها من سماع ما تقوله البنت فى التليفون إذا سحبته بعيدا عنها .

وعادت سامية تحمل التليفون وتعيده إلى مكانه وهى تقول من خلال ابتسامة واسعة تطلق السعادة على كل وجهها :

– إنى نازلة يا ماما ..

وقالت سعاد وسعادة ابنتها تنعكس عليها :

– إلى أين بإذن الله ..

وقالت سامية مرحة :

– سأقابل أحمد ..

وقالت سعاد وهى تحتضن ابنتها بعينيها :

– لا تتأخرى ..

وقالت سامية ضاحكة :

– لقد عودته على ألا نبقى فى أى لقاء أكثر من ساعة وإذا كانت هناك مواضيع هامة فتكون ساعة ونصفا ..

وقالت الأم وابنتها تنبض فى قلبها :

– إذا احتجتما إلى هذه النصف ساعة فتعالى به لتقضياها هنا ..

وانحنت سامية تقبل خد أمها ثم جرت خارجة ..

إنها تثق فى سامية منتهى الثقة .. وتتركها تخرج للقاء صديق وهى مطمئنة غاية الاطمئنان .. وأحمد هو أول صديق تختاره .. إنه شقيق إحدى زميلاتها فى المدرسة .. ولم تكن أخته صديقة كاملة لسامية ولكنها منذ أن التقت بأحمد معها صدفة فكأنما انبهر بها وبدأ يستغل أخته ليراها ويحادثها .. وسامية بدأت توطد صداقتها بأخته درية بعد أن انجذبت إلى أحمد وأصبحت تريد هى الأخرى أن تراه وتحادثه .. إلى أن اعترفا بالحب .. وهو حب تفرض عليه سامية عقدها وشخصيتها .. إن الحب كما تحس به ليس متعة بين فتى وفتاة .. إنه راحة .. مجرد راحة .. وهى تنعم بالراحة كلما التقت بأحمد .. راحة لا تحتاج إلى أكثر من لقاء العينين ولقاء فى حديث لا ينتهى .. وقد مضى عليهما الآن أكثر من ستة أشهر ولم يكفا عن اللقاء دون أن تترك له حق تبادل القبلات .. لم تكن سوى هذه القبلة

الواحدة التى مس بها خدها .. وقالت سامية لأمها إنها كانت قبلة تهنئة بعد أن غلبته برأيها فى حديث ..

وكانت سامية قد سبق أن دعت صديقها أحمد إلى البيت .. قالت له إنه لن يعرفها إلا إذا عرف أمها فهى لم تعرفه كله إلا بعد أن عرفت أمه وأباه خلال زيارتها لأخته .. وعندما أبلغت سامية أمها بأن أحمد سيزورهن احتارت الأم برهة .. ولكن لم لا يزورهن صديق ابنتها .. إن البنت الآن كالولد تستطيع أن تدعو أصدقاءها الأولاد كما يدعو الولد صديقاته البنات .. ثم إن بيت العائلة يفرض الاحترام والمهابة على أى لقاء بين بنت وولد .. صحيح أنها تعلم أن بعض الأولاد قد يستغلون بيت العائلة للانفراد ببنت فى غرفة النوم . ولكن هذا لا يمكن أن يحدث بالنسبة للبنت .. إن البنت إذا دعت صديقا إلى بيت العائلة فإنها تبقى معه طول الزيارة تحت رقابة الأم .. ثم إن التطور وصل إلى حد أن البنت أصبحت هى المسئولة عن البحث عن الزوج .. وليست الأم ولا الأب ولا العائلة هى التى تبحث وتفرض على البنت مصيرها .. إن صديقتها صفية هانم لها أربع بنات تزوجن زيجات ناجحة .. وكل بنت هى التى بحثت عن زوجها وبدأت بتقديمه إلى أمها كصديق أو زميل وتنتهى الصداقة إلى الزواج .. إن مجرد تقديم صديق البنت إلى عائلتها يعنى أن الطريق الوحيد بينهما هو طريق الزواج ..

ورحبت سعاد بزيارة أحمد صديق ابنتها .. وقد جاء وحده .. وأعجبت به سعاد وقضت الزيارة وهى تسأله أسئلة تحت ستار الترحيب والحديث البرىء .. وهى تريد بهذه الأسئلة أن تعرف عنه أكثر مما تستطيع .. إنه أكبر من ابنتها بحوالى خمس سنوات .. وفى السنة النهائية من كلية الهندسة وسيتخرج ليكون مهندسا معماريا .. ولن يقبل أى وظيفة فى الحكومة وسيعمل مع أبيه الذى يملك شركة مقاولات كبيرة .. وتسأله عن أبيه .. وإخوته .. حتى قالت سامية ضاحكة :

- ماما تحاول أن تعرف عنك كل شىء حتى تطمئن عليك .. اطمئنى يا ماما ..

ورد أحمد على ضحكة سامية بضحكة ممزقة تبدو حائرة دون أن يقول شيئا .. كأنه حائر لا يدرى ما هو المفروض أن يقوله . وخفف من حيرته أن أختى سامية بدأتا تأخذان أحمد من أمهما بل وتحاولان أن تأخذاه ، من سامية .. وسميرة الجادة تناقشه فى أثر ترك رأس المال الحر فى السيطرة على بناء العمارات .. وأصبحت زيارة يغلب عليها روح الشباب ..

وعندما قامت سعاد تودع أحمد كانت بين شفتيها ابتسامة واسعة تفيض سعادتها كأنها تودع خطيب ابنتها رغم أنه لم تبد أى بادرة لخطوبة خلال الزيارة .. إنها مجرد زيارة صديق .. ولكن سعاد ما كادت تعود وتجلس جلستها حتى اختفت ابتسامتها وتعكرت نظرات عينيها كأنها فوجئت بصدمة .. لقد جاء أحمد وحده .. وليس فى البيت سواها هى وبناتها .. ترى ماذا يقول الناس عندما يعلمون أنها تفتح الباب لأصدقاء بناتها .. ربما تصل ألسنتهن إلى حد التشنيع عليها بأنها تبيح لبناتها الرذيلة حتى أنها تبيح لكل بنت الانفراد بعشيقها داخل البيت .. أو ربما تخيلوا أنها هى نفسها تصطاد الشبان لبناتها .. لا .. لا يمكن أن تترك أى بنت تدعو صديقها إلى البيت .. إن العائلات التى لحقها التطور وأصبحت تستقبل أصدقاء البنات هى عائلات كاملة .. كل عائلة لها رجل .. كل بيت فيه أب .. ومجرد وجود الأب يصون صورة مثل هذا التطور .. وصديق البنت الذى يدخل إلى بيت فيه أب لا يمكن أن يتهم بسوء النية كما لا يمكن أن تتهم الأم بالتفريط فى سمعة ابنتها أو تتهم البنت بأنها سايبة بلا رقيب ولا حسيب .. لا .. لا يمكن أن يسمح للبنات بأن يدعين أصدقاءهن إلى البيت .. ولكن .. ربما كانت هناك وسيلة لتحقيق هذا التطور الذى يضع البنت فى نفس مستوى الولد .. كل منهما حر فى البيت .. التطور الذى أصبح الطريق الأسهل لتحقيق الزواج .. إنها لا تريد أن تغلق أبواب الزواج فى وجه بناتها .. إنها مستعدة

فى كل مرة تدعو فيها سامية صديقها إلى البيت أن تدعو هى أولاد أختها معه حتى لا يكون وحده .. وإن كان ليس بين بناتها وأولاد أختها أى صداقة أو حتى تفاهم .. إنهم كلما اجتمعوا فى مناسبة يبدون كأنهم لا يطيقون بعضهم البعض ويدخلون فى مناقشات تحد بين الأولاد والبنات كأنهم فى حرب وقد نظموا أنفسهم فى خطوط قتال .. إن هناك فارقا كبيرا بينها وبين أختها انعكس على بناتها وأولاد أختها .. ولكن هناك وسيلة أخرى أسهل فى اتقاء كلام الناس كلما زارهم أحمد .. لماذا يأتى لزيارتهم وحده .. لماذا لا يأتى للزيارة مع أخته درية .. إن مجرد وجود أخته يؤكد أنها مجرد زيارة أصدقاء ..

وقد فاتحت ابنتها سامية فى الموضوع وقالت فى رقة كأنها تحاول التسلل إلى عقلها :

– يجب أن تقدرى أننا نعيش فى بيتنا بلا رجل .. بلا أب ولا أخ .. وزيارة أحمد قد تثير كلام الناس .. ونحن نعانى الكثير من كلام الناس ..

وقالت سامية فى صوت رقيق هادىء :

– لقد تعودنا على ألا نهتم بكلام الناس .. وعندما أدعو أحمد إلى البيت فإنى أريده أن يعرف كل حياتنا وكل طبيعتنا حتى يكون أقوى من أن يؤثر فيه كلام الناس ..

وقالت الأم وهى تبتسم فى رجاء أن تقنع ابنتها :

– إنى أحببت أحمد واسترحت له ولكن كل ما أعنيه هو الاحتفاظ بالمظهر اللائق بنا .. لماذا يأتى لزيارتنا وحده .. لماذا لا يأتى مع أخته درية حتى نستكمل المظهر العائلى .. وحتى يرى الناس أن بنتا تزور بنتا .. تعمدى أن تدعى أخته درية معه فى كل زيارة ..

وقالت سامية ضاحكة :

– سيتساءل الناس لماذا يأتى أحمد إلينا مع أخته .. ثم إن كل قيمة درية بالنسبة لى هى أنها أخت أحمد .. وهى نفسها تحس بذلك حتى أنه فى المرات التى زرتها فيها وأحمد هناك كانت تتعمد أن تتركنا وحدنا أطول مدة مادامت أمها وأبوها ليسا معنا .. لا لتتركنا للقبلات فهى تعرف أنى لا أسمح لأخيها بالقبل .. ولكن لمجرد أن حديثنا أنا وأحمد لا يهمها ولا يسليها ..

وقالت الأم وقد تركت ابتسامتها المتعمدة :

– أنا لا أحتمل التنازل عن المظهر الاجتماعى ..

وقالت سامية فى صوت عال ولكن بلا حدة :

– يا ماما إن كل المظاهر الاجتماعية تطورت وتغيرت .. وكل من أعرفهن من البنات أصبحن يدعين أصدقاءهن الشبان إلى البيت ويقدمنهم إلى الأم والأب والإخوة ..

وقالت الأم وكأنها تتحسر :

– ربما كنت أستطيع أن أعيش هذا التطور لو كان فى البيت أب أو أخ .. ولكن .. كما قلت لك .. يجب أن تقدرى أننا وحدنا .. ومهما استسلم الناس لهذا التطور فإنهم يعيشون الواقع .. وهو أن البنت بنت .. والولد ولد .. وكل منهما فى حاجة إلى صيانة من الآخر .. وهذا الواقع هو الذى تنطلق منه ألسنة الناس ..

وصمتت سامية برهة تفكر ثم قالت من خلال ابتسامة تحتضن بها أمها :

– لن أدعو أحمد وحده .. ولكنى سأدعو أخته درية وحدها .. وسأكثر من دعوتها .. وسأقنع نفسى بأن دعوتها هى دعوة أحمد .. ولو أنى لا أثق

فيها ولا فى لسانها .. وأحمد لن يكون له مكان للقائى إلا الشارع .. هل استرحت يا مدام ..

وابتسمت الأم راضية .. إن ابنتها سامية حريصة دائما على راحتها وعلى إرضائها حتى لو تنازلت عن رأيها من أجلها وعما تريده لنفسها .. وأحست أنها انتهت من حل المشكلة وعاودتها الفرحة برؤية أحمد .. وأحست كأنها تتمنى لو أنها رأت أيضا صديق ابنتها سهير وهى تعلم أن لها كثيرا من الأصدقاء ولكنها لم تقدم لها أى صديق .. أما ابنتها سميرة فلا تعلم أن لها صديقا ..

• •

وظلت عينا سعاد معلقتين بالباب الذى خرجت منه سامية وكأنها تتبعها بخيالها وهى تصل إلى الشارع ثم وهى تلتقى بأحمد ..

لم يبق فى البيت إلا هى وسميرة .. وقد عودتها سميرة على ألا تفتح معها مجالا لإثارة موضوعات لحديث .. كأنها تعتبر أن أمها ليست فى مستوى يجمع بينهما فى أى موضوع .. ولا تقبل على حديث إلا إذا أرادت أن تبدى رأيها فى شىء تريده .. فى ثوب تشتريه .. أو فى طعام تريد إعداده .. وأحيانا تدخل فى نقاش طويل يخص ميزانية البيت ..

وقد قامت سميرة من مقعدها وانتقلت لتجلس إلى المكتب الصغير الموضوع فى جانب من الغرفة .. وأخرجت قلما ومجموعة من الورق .. ثم مدت يدها والتقطت نظارتها ووضعتها فوق عينيها وبدأت تكتب ..

إن سعادة متأكدة أن ابنتها سميرة ليست فى حاجة إلى نظارة تكتب وتقرأ بها .. ولم تقل يوما أنها فى حاجة إلى طبيب عيون .. ولكن سعاد فوجئت بها يوما تعود ومعها نظارة تخرجها من حقيبتها وتضعها على عينيها وتقرأ .. وسألتها سعاد بدهشة :

- ما حكاية هذه النظارة .. ماذا حدث لعينيك ؟

وقالت سميرة فى بساطة :

- إنى أستريح أكثر وأنا أقرأ بهذه النظارة ..

وقالت الأم فى انزعاج :

- هل ذهبت إلى طبيب ؟

وقالت سميرة فى بساطة :

- ذهبت .. وقال لى إن نظرى سليم ولكن فى عينى نوعا من الحساسية ..

وقالت لها أمها فى لوم :

- ولماذا لم تقولى لنا إنك فى حاجة إلى طبيب عيون ..

وقالت سميرة فى هدوء :

- لم أكن أشعر بحاجة إلى طبيب ولكنه خاطر خطر لى صدفة .. وقد دفعت ثمن النظارة من المبلغ الذى أخذته لشراء الكتب .. وهذه هى الفاتورة .. وفى انتظار أن تردى لى مادفعته .. لو سمحت ..

ولم تجادلها سعاد .. ولكنها بعد أيام وجدت نظارتها ملقاة على المكتب فأخذتها وجربتها على عينيها هى .. إنها لا تشعر بأى تأثير لها على عينيها .. كأنها قطع من الزجاج العادى .. وابتسمت سعاد .. لعل ابنتها أرادت هذه النظارة ليكون لها مظهر الأساتذة الدارسين .. إن معظم الأساتذة الكبار يعيشون وراء نظارات على عيونهم .. ولعلها خدعت طبيب العيون الذى ذهبت له وادعت أنها تعانى من القراءة والكتابة فأوصاها بهذه النظارة دون أن يكتشف أن فى نظرها أى نقص .. إن الأطباء يعالجون مرضاهم أحيانا علاجا نفسيا ولعل ما اكتشفه الطبيب أن كل ما فى هذه البنت حالة نفسية تلح عليها أن تضع على عينيها نظارة ..

ولكن الواقع هو أن النظارة تبرز جمال سميرة .. إن جمالها يختلف عن جمال أختيها سهير وسامية ربما لأنها أخذت من ملامح أبيها بينما أختاها أخذتا أكثر من ملامح أمهما .. ولكنها جميلة .. وهى تحس بجمالها .. إحساس هادىء لا يتدخل فيه عنصر التباهى أو التفريط فى إبرازه .. كأنها تحترم هذا الجمال وتحرص على صيانته .. وهى تصونه بمجهود كبير متعمد فى اختيار مظهرها .. فى الاهتمام باختيار ثيابها .. بل إن أختيها تتهمانها بأنها مصابة بعقدة الأحذية .. فهى تهتم جدا فى اختيار أحذيتها وتشترى أكثر مما تحتاج إليه كلما استطاعت أن تشترى .. ثم تهتم جدا بعقصة شعرها وتلوين وجهها .. وذوقها يختلف اختلافا كبيرا عن ذوق أختيها .. وهو ذوق يميل إلى احتفاظها بشخصيتها الجدية .. لا تلبس ثيابا زاهية وتتعمد ألا تكشف عن صدرها أو كل ذراعيها .. والألوان لمسات خفيفة على خديها وشفتيها وحول عينيها .. وعقصة شعرها تلمه كله كأنها ترفض أن تتركه يجرى وراء الناس لإغرائهم .. إنها جميلة جمالا محترما جادا .. رغم ملامح أبيها التى تحملها ..

وقفز التساؤل إلى عقل وخيال سعاد وهى تملأ عينيها بوجه ابنتها سميرة الجالسة قبالتها .. متى تتزوج وكيف .. إنها لا تتكلم أبدا عن صداقة خاصة بينها وبين رجل .. غاية ما يحدث أن تحكى لهم أحيانا عن مناقشات ثارت بينها وبين أحد الأساتذة أو أحد الزملاء .. وسعاد الأم واثقة أن سميرة لا تخفى عنها شيئا .. وأن هذه قد تكون طبيعتها فى عدم الإحساس بحاجتها إلى رجل ولو كمجرد صديق .. ولكن أمها سعاد ليست مقتنعة بهذه الطبيعة .. وليست مكتفية بتفوقها الدراسى رغم فرحتها بها .. إنها لا ترى مستقبلا لها إلا كزوجة .. فكيف تتزوج ومتى .. هى وأختاها .. أم أن الظروف التى تتخيلها والتى تعتقد أنها تحول دون زواج بناتها ستستمر إلى الأبد .. الظروف التى قد تكون هى التى كانت السبب فى إحاطة بناتها بها .. الظروف التى تفرض سمعتها بين الناس .. سمعة يطلقها ماضيها ..

إن المثل الشعبى يقول .. « اكفى القدرة على فمها تطلع البنت لأمها » لعل الناس تعتقد أن بناتها سيكون مستقبلهن امتدادا لماضى أمهن ..

ورفعت سعاد أصابعها وأخذت تفرك فى عينيها كأنها تحاول أن تفيق من خواطر ماضيها .. لماذا تشغل نفسها بكل هذه التساؤلات .. إن بناتها لايزلن صغيرات ولا يمكن أن تخاف أن يفوتهم الزواج .. إن البنت لا تتزوج هذه الأيام وهى فى السادسة عشرة كما تزوجت هى .. قد تتزوج البنت فى الخامسة والعشرين أو فى الثلاثين دون أن يحس الناس بأنها تأخرت .. هذه هى الحياة الجديدة ويجب ألا تشغل نفسها بشىء .. إنهن صغيرات .. ولكنها مالبثت أن شدت أصابعها التى تفرك بها فى عينيها وألقت بيديها بجانبها .. وأغمضت جفنيها .. وتركت خيالها يأخذها كلها إلى ماضيها ..

(٢)

وهامت سعاد فى ذكريات ماضيها ..

إنها منذ تفتح وعيها وهى تحس أنها فى حيرة .. وقد أثرت هذه الحيرة فى تكوين شخصيتها .. أصبحت تتميز بقلة الكلام .. لا تقول إلا الكلمات الضرورية التى تفرض نفسها على لسانها .. وإن كانت أحيانا وفى فترات متباعدة تقع فى حالة عصبية تطلق لسانها بكلام طويل لا تدرى هى نفسها ماذا قالت به .. كأنها حالة تدفعها إلى الصراخ فتصرخ بالكلام .. وأصبحت تتميز أيضا بأنها لا تحاول التدخل فى حياة الناس .. ولا تهتم بمعرفة أخبار من يحيطون بها سواء من أفراد العائلة أو من صديقاتها ولو لمجرد التسلية بتناقل الأخبار .. وهى لهذا لم تكن تبذل مجهودا فى اكتساب الصديقات أو المعارف فكان كل صديقاتها ومعارفها مجرد ناس وجدتهم فى حياتها .. بل إنها والعمر يمتد بها لم تكن تحس بأنها جميلة كل هذا الجمال .. هذه البشرة البيضاء المضمخة بعصير الورد .. والعينان الملونتان بلون العسل .. والشعر الناعم الغامق السواد الذى ينزلق حتى كتفيها كأنه شلال من الليل السعيد .. إنها أجمل من أمها ومن أختها ومن كل البنات .. وهى تعرف أنها جميلة ولكنها لا تحس بهذا الجمال ولا تجعله محور حياتها وتحاول استغلاله .. إنها تبدو كأنها منعزلة داخل نفسها حتى يكفيها من هذا الجمال أن تمتع به نفسها كلما وقفت أمام المرآة .. وربما كان هذا الانعزال هو الذى دفعها إلى إدمان الحركة .. إنها تتحرك منذ تصحو إلى أن تنام .. وهى لا تتحرك بالخروج خارج البيت .. إنها تكتفى أغلب أيامها ووقتها بالحركة داخل البيت .. وربما كانت تركز حركتها فى أصابعها .. إن

أصابعها دائما تعمل شيئا .. لذلك عرفت من صغرها بأنها تهوى أعمال البيت .. ويتندرون عنها بأنها ستكون نعمة على الرجل الذى يكون من بخته أن يتزوجها لأنها ست بيت ممتازة .. كانت تجيد أعمال البيت .. وعلمت نفسها أعمال التريكو .. بل علمت نفسها الخياطة دون أن تذهب إلى المدرسة ، إنما بمجرد مراقبة الخياطة التى كانت تستعين بها أمها وتستدعيها إلى البيت .. إلى أن أصبحت بعد أن كبرت تصمم على أن تحيك ثيابها بنفسها ولا تعتمد على حائكة كما تفعل أمها وأختها .. ولعل طبيعتها المنعزلة هى أيضا التى دفعتها إلى التفوق فى المدرسة الفرنسية التى التحقت بها وهى صغيرة .. ورغم أنها لم تتم تعليمها فى هذه المدرسة فهى اليوم تتحدث الفرنسية بطلاقة لا يصل إليها من أتممن تعليمهن .. وفى لهجتها عندما تتكلم الفرنسية رنة خاصة كأنها من بنات باريس ..

وكل تفاصيل شخصيتها كانت انعكاسا لإحساسها بالحيرة الذى بدأ منذ تفتح وعيها .. حيرة تدفعها إلى محاولة الهرب منها بشغل نفسها بالحركة وتشغيل أصابعها ..

حيرتها بين أبيها وأمها ..

كان أبوها طبيبا .. طبيب أسنان .. ولعله لم يكن طبيبا مشهورا كما لم يكن أستاذا فى كلية طب الأسنان كبقية كبار الأطباء .. ولكنه كان متفرغا لمهنته ويحقق منها دخلا إن لم يكن ضخما فهو دخل يوفر للعائلة حياة كاملة وفى مستوى راق ولا ينقصهم شىء وإن لم يستكملوا كل مظاهر الغنى .. وأول ما عرفته سعاد عن أبيها أنه صامت دائما ، وجاد فى صمته منتهى الجدية حتى يبدو كأنه يتعمد افتعال هذه الجدية .. حتى علاقته بأطفاله كانت جادة .. يقوم من النوم فى الصباح ويمر عليهم ويقول لكل منهم من بعيد .. صباح الخير .. ثم ينشغل بنفسه ويخرج من البيت دون أن يحسوا به .. ويعود من عمله وينظر إليهم من بعيد دون أن يفكر فى تقبيل أحد منهم أو

يترك أحدا يقبله .. ثم يجلس معهم على مائدة الغداء صامتا ويترك الحديث كله لأمهم أو بين بعضهم وبعض ، وإما أن يبقى وحيدا يقرأ .. وحياته فى البيت كلها قراءة .. وإما أن تلحق به أمها ويبدأ الأولاد الأطفال فى سماع المناقات .. وصوت أمها هو الذى يحمل كل الصياح .. إن سعاد منذ بدأت تسمع وهى تسمع صياح أمها وهى فى معركة مع أبيها .. ورغم صمت الأب وجديته الدائمة التى تبلغ حد الانعزال فقد كانت سعاد تحبه أكثر .. وهو حب يتضمن الإحساس بالشفقة عليه من أمها ..

إن أمها شىء آخر .. إنها امرأة جميلة والذكاء يطل من عينيها كأن عقلها لا يتسع لكل ذكائها فينفس عن نفسه من خلال العينين .. وهى لا تزال شابة حتى بعد أن أنجبت ثلاثة .. ابنتها الكبرى نجوى .. وابنها رشيد .. وابنتها الصغرى سعاد .. كأنها لم تصل بعد إلى الأربعين من عمرها .. وهى المسيطرة سيطرة تامة على البيت كله والعائلة كلها بما فيها زوجها .. وهى ليست مفرطة فى حنانها كأم وإن كانت حريصة على تغطية كل احتياجاتهم .. وربما تميز ابنها رشيد بحنان واهتمام أكثر من حنانها واهتمامها الذى تعطيه للبنتين .. وسعاد منذ بدأت تسمع المشاجرات والصيحات التى تصبها أمها على أبيها وهى تتعجب .. ولكنها لا تتدخل ولا تحاول أن تسأل الأم ولا الأب .. لقد أخذت هذه المشاجرات على أنها مجرى عادى من مجريات الحياة بين الأزواج .. ولكن لماذا يختار الزوجان هذا المجرى .. وأوصلتها حيرتها إلى الاقتناع بأن أمها لا تحب أباها .. ثم بدأت تكتشف أن أمها لها حياة ثانية .. لعلها تحب رجلا آخر .. وهى تلاحظ أمها وهى تحمل التليفون وتدخل به إلى حجرتها وتغلق وراءها الباب ثم تقضى وقتا طويلا فى حديث لا يسمعه أحد من أهل البيت .. ثم تراها وهى تستعد للخروج وتقضى وقتا طويلا فى تزيين نفسها بعد أن تكون قد دخلت الحمام واستحمت .. إنها ليست فى كل مرة تخرج من البيت تبذل كل هذا الجهد فى إعداد نفسها أو تدخل الحمام لتستحم .. لا شك أن لها

رجلا آخر .. عشيقا .. إن الأم لا يمكن أن تخفى عن ابنتها أسرارها .. إن كلا منهن قادرة بطبيعتها على أن تكشف أسرار الأخرى .. وأختها نجوى أيضا كشفت سر أمها .. وكانت عندما تأخذ التليفون وتدخل غرفتها وتغلق الباب وراءها تنظر نجوى إلى سعاد وتبتسمان ساخرتين من السر الذى اكتشفتاه ..

ومضت السنوات إلى أن جاءت أيام اشتدت فيها المشاجرات والصيحات التى تصبها الأم على الأب .. كل الأيام وكل الساعات التى يكون فيها الأب فى البيت مشاجرات وصيحات .. إلى أن فوجئن بالأم تحمل حقيبة وتخرج من البيت إلى بيت أهلها دون أن تنظر فى وجه أولادها أو تقول لهم كلمة ..

إنها تريد الطلاق ..

ولكنها بعد أن وصلت إلى أهلها أرسلت تدعو إليها البنتين وأجلستهما أمامها بعد أن احتضنت كلا منهما وقبلتهما على غير عادتها ثم بدأت تتكلم بعد أن تركت دموعها تسيل من عينيها :

– لم أعد أستطيع الحياة مع أبيكما .. لقد تزوجته وأنا لا أعرفه .. ومنذ اليوم الأول وأنا أحاول أن أحبه .. وكنت أنتظر بعد أن أنجبتكم أن يتغير ويصبح شخصية أستطيع أن أحبها .. ولكن لم يتغير شىء فيه .. ولم أيأس من تغييره بعد أن ولدتك يا نجوى تعمدت أن أنجب مرة ثانية وجاء رشيد ثم مرة ثالثة وجئت أنت يا سعاد .. كل ذلك على أمل أن يغير إحساسه بالأبوة من طباعه .. ولكن لم يتغير فيه شىء .. وأنا أتحمل الحياة معه وأضحى بسعادتى وأتعذب وكل ذلك من أجلكم لا من أجله .. ولكنى لم أعد أستطيع أن أتحمل .. لقد تركته ولن أعود إليه أبدا .. وأنا واثقة أنكما وصلتما إلى السن الذى تستطيعان فيهن أن تحققا لى راحتى وتريحانى من العذاب ..

وانحدفت نجوى وسعاد على أمهما وهما تبكيان وتتوسلان :

– لا يا ماما .. ارجعى إلى بابا .. كيف نعيش بعيدا عنك أو عن بابا ..

وقالت الأم كأنها تنهرهما :

– لقد عشت من أجلكما ومن أجل أخيكما رشيد ، وأصبح من حقى أن أطلب منكما أن تعيشا من أجلى .. واسمعى يا نجوى .. إلى أن ينتهى ويستقر كل شىء فكونى أنت المسئولة عن البيت .. وسأتصل بك فى التليفون كل صباح لأتفق معك على كل ما يحتاج إليه البيت ..

وابتعدت عنها نجوى وهى تمسح دموعها وقالت فى حدة :

– أنت تعلمين أنى لا أطيق شغل البيت ولا أفهم فيه شيئا ..

وسكتت الأم برهة .. إن نجوى دائما جريئة عليها وقادرة على تحديها .. ثم التفتت إلى سعاد وقالت وهى تبحلق فيها بعينيها كأنها تريد أن تطمئن إلى رأى فيها وقالت :

– أنت ياسعاد معروفة بأنك ست بيت ممتازة .. تحملى أنت المسئولية ..

وقالت سعاد فى استسلام كعادتها دون أن تفكر فى هذه المسئولية التى تحملها لها أمها رغم أنها لاتزال فى العاشرة من عمرها :

– حاضر يا ماما ..

وقالت الأم وهى تفتعل ابتسامة تحاول بها أن ترضى ابنتها :

– ربنا يبقيك لى يا ابنتى .. أنا واثقة أنك شاطرة .. أشطر من نجوى .. وهى مسئولية بسيطة .. وسنتحدث فى التليفون كل صباح قبل أن تذهبى إلى المدرسة وأدلك على كل شىء ..

واستمر الحديث مدة والبنتان لا تكفان عن الإلحاح على الأم بأن تعود إلى أبيهما .. إلى أن قالت لهما :

– قوما أنتما إلى البيت حتى لا نتركه وحده .. وإذا سألكما أخوكما رشيد عنى قولا له إننى سأبقى مع أمى لأنها مريضة ولا تذكرا له شيئا عن طلاقى من أبيه ..

وعادت البنتان وكلتاهما لا تصدق أمهما فى كل ما قالته .. ليس أبوهما هو السبب فى إصرارها على الطلاق .. السبب هو أنها لا تحبه وأن هناك رجلا آخر دخل حياتها .. من يدرى .. ربما تزوجت هذا الآخر ..

وقد استطاعت سعاد أن تتحمل فعلا مسئولية البيت رغم أنها لاتزال فى العاشرة .. بل إنها كانت سعيدة فرحة بهذه المسئولية التى تشغلها عن التفكير فيما يحيرها .. بل تشغلها حتى عن الاهتمام بطلاق أمها .. وربما أضافت شيئا جديدا على حياة البيت وهو التركيز على الاهتمام بأبيها .. إنها بدأت تراعيه كأنه طفل وهى الأم التى تراعيه وتكفل له كل شىء حتى أنها عرضت عليه أن تنام بجانبه إلى أن تعود إليه أمها .. ولم يرد عليها أبوها فبدأت هى تترك فراشها بالليل وتذهب إلى فراشه .. إن قلبها ينعصر إشفاقا عليه حتى أنها كانت تتعمد أن تقبله كل صباح قبل أن تذهب إلى المدرسة على غير ما تعودته .. ولكنه فعلا لا يتغير .. إنه لا يزال يفضل الصمت ويكسو نفسه بالجدية ويقابل كل ما تقدمه له بهذا الصمت وهذه الجدية دون أن يحاول ولو تدليلها كابنته الصغرى .. وقد كانت تحس أنه يتعذب لهجر أمها ولكنه لا يعبر عن عذابه إنما هو عذاب يكسو وجهه ويملأ عينيه .. وقد عرفت أنه يسعى كثيرا لإعادة زوجته ولكنه لم يستطع أن يقنعها ، بل إن عائلتها كلها كانت مصرة على الطلاق .. لابد أن هناك ما يغرى العائلة ويدفعها إلى هذا الإصرار .. لعل العائلة تفضل أكثر زوجا جديدا ..

ومضت شهور إلى أن تم الطلاق ..

وكان أبوها كريما صافيا فى إحساسه . تغلبه العدالة الواقعية فترك البيت لتعود أمهم وتعيش مع أبنائه .. ولكن الأم لم ترحب وتفرح بهذا الكرم ..

كانت تريد أن يبقى الأولاد معه وهى ليست فى حاجة إلى البيت .. ولكنه أصر على أن يترك البيت والأبناء لها .. إنه لا يستطيع أن يتولى تربيتهم .. وهو يدفع نفقات تربيتهم من قبل أن تطالب أمهم .. إنه أب رائع ..

وسعاد تزداد سخطا على أمها .. إنها لا تكرهها ولكنها ساخطة عليها وعلى تصرفاتها .. إنها لن تكون أبدا كأمها . ولن يكون لها أبدا حياة ولا شخصية كحياة وشخصية أمها ..

وقد بدأت سعاد تحس منذ انفردت أمها بالحياة معها ومع أختها وأخيها أنها تعيش كل أفكارها وحياتها بعيدة عنهم .. إن كل أفكارها وحياتها مع الرجل الآخر .. مع التليفون .. ومع إعداد نفسها لتكون امرأة مثيرة كلما ذهبت للقائه .. ومع مجموعة من الصديقات يبدو أنهن يشتركن معها فى تدبير الخطط .. ولم يبق منها كأم إلا قيامها بالواجبات الروتينية بلا اهتمام كامل وبلا عواطف الحنان التى يعيش فيها الأبناء .. بل كان يبدو أحيانا أنها تضيق بمجرد حياة أبنائها معها وتتمنى لو أبعدتهم عنها ..

إلى أن دخل الرجل الآخر حياتهم .. تزوجت الأم .. وهو يبدو إنسانا محترما هادئا وسيما .. ويبدو أنه فى منتهى الثراء .. ولكنه يبدو عجوزا .. إنه أكبر سنا من أبيها .. وقد عرفوا أنه لا يزال محتفظا بزوجته الأولى .. بل إن زوجته الأولى هى الزوجة الكاملة وهى التى يظهر بها فى المجتمعات وليس بينه وبين زوجته الثانية .. أمها .. إلا أنه يأتى إليها ثلاث أو أربع مرات فى الأسبوع ويتناول معها طعام الغداء ثم يدخل بها إلى حجرة النوم ليستريح ثم يختفى قبل الساعة السادسة ليذهب إلى مكتبه أو إلى زوجته الأولى .. لم يقض ليلة واحدة مع زوجته .. وربما كان يحتفظ بهذا الزواج كسر فى حياته بينما أمها تعلنه وتتعمد إعلانه فى كل حياتها ..

وقد فاض ثراؤه عليهم كلهم منذ تم الزواج .. انتقلوا إلى شقة واسعة رائعة فى الزمالك تولت الأم تأثيثها .. كل شىء جديد .. وأصبح فى البيت

سفرجي وطباخ .. وأصبحت لهم سيارة خاصة .. إن سعاد تعلمت قيادة السيارة وهى فى الثانية عشرة من عمرها بإلحاحها على السائق واندفاعها وراء طبيعتها التى تدفعها إلى كل نواحى الحركة التى تشغل بها وقتها لتهرب من حيرتها .. واستطاعوا أيضا أن يشتركوا فى نادى الجزيرة .. وقد بدأت سعاد تحس أكثر بجمالها منذ دخلت نادى الجزيرة .. إن كل الشبان يلاحقونها .. وهى تتباهى بهذه الملاحقة ولكنها لا تتجاوب معها .. إنها كما هى تفضل الانعزال بنفسها ولا تحب الكلام الكثير وإن كان هناك شاب استطاع أن يرضى عينيها ، واستطاع أن يحرك شفتيها ببضع كلمات .. ولا شىء أكثر .. المهم أن حياتهم اتسعت وارتفعت إلى مستوى أرقى .. وربما كان هذا هو كل ما تريده الأم .. تبحث عن الثراء الذى يوفر لها هذه الحياة الواسعة الراقية .. حتى لم تكن سعاد تعتقد أن الحب هو الذى جمع بين أمها وزوجها الجديد ..

ويبدو أن الأم قد ازدادت ضيقا بأولادها بعد أن تزوجت .. إنها تحس أنهم يعرقلون طريق طموحها الذى لا يصل أبدا إلى حد الاكتفاء .. وكان الغريب فيها أنه فى كل يوم يكون زوجها سيتناول الغداء معها تتعمد أن تتخلص من الابنتين والولد وتبعدهم عن البيت .. قد ترسلهم للغداء عند عائلتها .. أو تتفق معهم أن يتناولوا الغداء فى النادى .. أو تتفق مع إحدى صديقاتها على دعوتهم .. أو تعد لهم رحلة نزهة .. إنها تريد أن تنفرد بزوجها عندما يأتى أو لا تريد أن تحد من متعته بها بوجود الأولاد معها .. كأنها تريد أن تقنعه بأنها كلها له وليس لها أحد يشاركه فيها .. أو فى عواطفها ..

وكانت نجوى أختها الكبرى هى التى لا تحتمل أنانية أمها .. وتتحداها .. وأحيانا تصر على أن تبقى فى البيت وتبقى مع زوج أمها .. وتشتد الخناقات بينهما .. إلى أن قررت نجوى أن تهرب .. إنها لم تهرب من البيت ولكنها استطاعت أن تجد عملا فى مكاتب إحدى الشركات ..

سكرتيرة .. ولم تحاول أمها أن تمنعها من العمل ولم تبذل جهدا كبيرا فى البحث وراء هذه الشركة التى تعمل فيها ابنتها أو التقصى عمن تعمل معهم .. إنها تترك لها الحرية كاملة ما دامت حرية تبعدها عنها .. ثم لم يمر عام حتى جاءت نجوى بعريس .. ولم تهتم الأم أيضا بالتقصى عن هذا العريس .. يكفى أنها عرفت أنه من عائلة من بين عائلات أولاد الذوات التى تحب أن ترتبط بهم .. ولو كانت قد سألت لعرفت أنه رغم أنه من عائلة معروفة إلا أنه ليس غنيا وليس له عمل أو وظيفة محترمة .. وأن نجوى اختارته لتزداد هربا من البيت .. منها .. وتم قران نجوى فى حفل هادىء ضيق ولم يحضر زوج الأم هذا الحفل .. إنها ليست ابنته ثم إنه يتعمد ألا يظهر كزوج للأم .. وحضر أبوها .. إنه كما هو .. صامت .. جاد .. لا يحاول أن يفرض شخصيته ولا شخصية الأب .. وقد خرجت نجوى من البيت إلى بيت زوجها .. وكان شقة حلوة ولو أنها صغيرة فى عمارة يملكها إرثا عن عائلته فى حى شبرا .. ولم تنقض سوى أربع سنوات حتى تم الطلاق .. إن كلا منهما اكتشف أن هذا الزواج لم يحقق شيئا مما يريد .. وكانت نجوى طوال سنوات زواجها تعمل فى الشركة .. لقد أصبح مرتبها كبيرا .. ولعلها كانت تنفق من مرتبها على البيت الذى يضمها مع زوجها ابن العائلة الكبيرة .. وبعد الطلاق لم تعد نجوى إلى بيت أبيها .. عاشت وحدها .. أحيانا مع صديقة وأحيانا فى بنسيون ..

وأخوها رشيد شخصية أخرى .. شخصية قوية حلوة .. وهو كأمه فى منتهى الذكاء .. وقد دله ذكاؤه على أن يعيش فيما يريده هو ولا يتدخل أو يهتم بما يريده الآخرون .. سواء ما تريده أمه أو أبوه أو أختاه .. وقد كان دائما متفوقا فى تحقيق إرادته .. إنه طالب متفوق فى مدرسة الجيزويت .. وهو متفوق فى كل رياضة يهواها .. وربما ساعده على الاحتفاظ بهذه الشخصية أن أمه كانت تعطيه من حبها وحنانها ورعايتها أكثر مما تعطى أختيه .. إنها لا تتردد أبدا فى تحقيق كل ما يطلبه .. ولم يحدث أبدا بينهما

ما يؤدى إلى خلاف أو نزاع .. ورغم ذلك فهو لا يترك نفسه ليكون مدللا أو يغالى فى استغلال حب أمه له .. كل ما يعتمد عليه بذكائه أنه يترك لها اختيار ما تريده حتى أنه لم يبد أى تأثير عندما تم الطلاق بينها وبين أبيه .. ولا بعد أن تم زواجها من الرجل الآخر .. وأمه كانت تعمل على أن تقربه أكثر من هذا الرجل الآخر بعكس ما كانت تتعمد من ناحية البنتين .. ربما لأنها كانت تخطط فى استغلال زوجها لصالح ابنها .. وقد حدث بعد أن نال شهادة الجيزويت أن أقنعت زوجها بأن [illegible] رشيد إتمام تعليمه فى باريس .. دون أن يتحمل أبوه أى مسئولية .. وقد فرح رشيد بالسفر إلى باريس .. وقد توفى زوج أمه بعد سفره بعام واحد وتولت أمه إرسال نفقاته إليه بعد أن ورثت الكثير عن زوجها .. ولكن رشيد لم يكن قد سافر إلى باريس ولكنه هاجر إليها .. إنه إلى اليوم هناك .. وقد أصبح فى غنى عن أمه بعد أن عمل ونجح وتزوج أيضا .. وشخصيته وربما ذكاؤه أيضا لا يدفعانه إلى زيارة مصر .. ولكن أمه تزوره هناك كل بضع سنوات دون أن تصحب إحدى ابنتيها معها .. يكفى أن تعود لهما بصور له كما حملت معها صورا لهما ..

وأصبحت سعاد وحدها مع أمها فى البيت ..

وهى فى طبيعتها صامته منعزلة تشغل نفسها عن حيرتها بالحركة وتشغل عقلها وأصابعها بأى شىء .. وأمها لم تتغير ولا انتابها أى إحساس جديد بعد أن أصبحت تعيش وحدها مع ابنتها الصغرى .. وبعد أن مات زوجها ولم تكن قد مضت بضعة شهور على موته حتى عادت كما كانت .. تحمل التليفون إلى داخل غرفتها وتنفرد به ساعات .. وتدخل الحمام وتعود لتقف أمام المرآة طويلا وتخرج وسعاد متأكدة أنها ذاهبة إلى لقاء رجل .. ثم بدأ يحدث ماهو أكثر .. لقد بدأ رجال يزورون أمها بحجة تناول العشاء .. وأمها تختلى بالرجل الزائر ولا تسمح لابنتها برؤيتهم .. وقد تستمر زيارة الرجل شهرا أو شهرين أو ثلاثة .. ثم تبدأ زيارة رجل آخر ..

وسعاد تفهم كل شىء ويتلوى قلبها فى صدرها ولكنها لا تنطق بكلمة .. إن أمها أصبحت مفضوحة .. ومن حق الناس أن يقولوا عنها أى شىء حتى لو شهروا بها .. إنها لن تكون أبدا كأمها .. يارب لا تكتب على ما كتبته على أمى ..

وكانت سعاد قد بقى أمامها شهور حتى تتم السادسة عشرة من عمرها عندما فاجأتها أمها وقالت وهى تحتضنها وتقبلها :

مبروك يا ابنتى .. جاءك عريس .. إنه عريس لقطة لم نكن نحلم به .. ثراء .. ومركز .. وأصل وفصل .. لقد فرحت به قبل أن تفرحى أنت به ..

وقالت سعاد فى دهشة :

– كيف أتزوج الآن يا ماما .. إنى مازلت فى المدرسة ..

وقالت الأم ضاحكة :

– يا ابنتى إن جمالك لا يقاوم .. إن كل رجل يريدك قبل أن يخطفك غيره .. المهم أن يكون رجلا يستحق كل هذا الجمال .. وليس جمالك وحده .. لا تنسى أنك ابنة دكتور .. وأمك أصبحت غنية فى غنى عن الناس كلهم ..

وقاطعتها سعاد كأنها تكاد تبكى :

– إنى يا ماما لم أتم السادسة عشرة من عمرى .. كيف أتزوج الآن ؟

وقالت الأم وهى تحتضنها كأنها تحاول إقناعها بتدليلها :

– يا ابنتى .. البنات الجميلات لا يتركن إلى ما بعد السادسة عشرة .. لقد كانوا زمان عندما تتجاوز البنت السادسة عشرة بلا زواج تعتبر بائرة .. ويتهم بالقبح .. ولا تنسى أنى تزوجت فى سنك ..

وقالت سعاد ساخطة :

– إنى لا أعيش أيام زمان ..

وقاطعتها الأم فى حدة :

– البنت التى تتأخر فى الزواج ينقصها شىء .. وأنت لا ينقصك شىء .. وقد وافقت على هذا العريس لأنه يطمئننى عليك وعلى كل مستقبلك .. وسيأتى غدا لتناول الشاى .. فاستعدى له منذ الآن ..

وأحنت سعاد رأسها كأنها بدأت تتجه بتفكيرها اتجاها جديدا .. ثم أدارت ظهرها لأمها مبتعدة .. وصاحت أمها وراءها :

– استعدى لتذهبى إلى الكوافير غدا ليضع لشعرك تسريحة ملفوفة .. وافتحى دولابك وأخرجى الفستان الطويل فقد يكون فى حاجة إلى مكواة ..

وابتعدت سعاد دون أن ترد عليها تائهة مع أفكارها ..

إن أمها تريد أن تتخلص منها وتطردها بعيدا عنها كما كانت السبب فى إبعاد أختها نجوى وأخيها رشيد .. ولعلها وجدت لها فعلا العريس اللقطة كما تقول .. أو ربما تريد أن تطمئن على تزويج ابنتها بعد أن عرفت أن الناس بدأوا يتحدثون عنها أحاديث مخزية .. لا شك أنها سمعت ما يقوله الناس عنها .. ولكنها تزوجها بنفس الطريقة التى تزوجت بها هى .. تزوجها رجلا لا تعرفه .. وتزوجها وهى لاتزال فى هذا العمر .. رغم أن الأم عرفت فشل مثل هذا الزواج .. وما تعانيه به الزوجة من عذاب يملأ كل حياتها .. إلى أن ينتهى بالطلاق ..

وبدأت سعاد تحس كأنها تتجمع فى ثورة .. لماذا لا تتزوج .. إذا كانت أمها تتعمد أن تبعدها فهى أيضا تريد الهرب منها .. ثم ما قيمة العمر فى تحديد وضع الإنسان من الحياة .. قد تكون زوجة فى السادسة عشرة أسعد وأشطر من زوجة فى الثلاثين .. ثم لماذا تفترض العذاب قبل أن تتعرض

له .. ولماذا تقيس حياتها بحياة أمها .. إنها تختلف عن أمها فى كل شىء حتى يقال إنها أخذت من أبيها أكثر مما أخذت من أمها .. فلماذا تربط مستقبلها بما حققته أمها من مستقبل ..

لا ..

ستتزوج ..

وفتحت الدولاب وأخرجت الثوب الطويل ..

• •

وأفاقت سعاد من ذكرياتها على دقات جرس التليفون وقالت سعاد لابنتها سميرة :

– ردى على التليفون يا سميرة ..

وقالت سميرة دون أن ترفع رأسها عن الورق الذى تكتب فيه :

– لست فى انتظار تليفون .. هذا الرنين ليس لى ..

وقامت سعاد إلى التليفون دون أن تهتم برفض ابنتها .. هذه هى طبيعتها .. كل حركة تحسب حسابها وهل هى فى حاجة إليها أم ليست فى حاجة إليها .. حتى مجرد الرد على التليفون ..

وقالت سعاد فى التليفون وكأنها تزفر أنفاسها المتعبة :

– آلو ..

ولم يرد أحد ثم ما لبث أن أغلق خط التليفون فى وجهها .. إنها تعلم أن التليفون لا يغلق فى وجهها أبدا إلا إذا كان المتحدث لا يريد الحديث إلا مع ابنتها سهير .. ولوت شفتيها سخطا ثم أرخت عينيها واستسلمت لتعود هائمة فى ذكرياتها ..

(٣)

وعادت سعاد إلى ذكرياتها ..

وهى تذكر اليوم الأول الذى رأت فيه زوجها عزيز عندما جاء إلى البيت ليراها هو الآخر لأول مرة ويخطبها .. لقد جلست يومها أمامه بعد أن قدمت بنفسها الشاى ، كما تفرض التقاليد على الفتاة وهى فى جلسة تعرض فيها نفسها على من تقدم لخطبتها .. وقد جاء عزيز مع أمه ويبدو أنها صديقة لأمها رغم أنها تبدو أكبر منها سنا .. وجاءت معهما شهيرة هانم أقرب الصديقات لأمها .. حتى أن سعاد تعتقد أنهما تتبادلان الأسرار وتشتركان فى وضع الخطط .. خطط معاملة الرجال ..

وكانت سعاد فى جلستها تخطف نظرات إلى عزيز .. إنه وسيم .. أسمر .. ووجهه يرسم خطوطا قوية كوجوه الفلاحين ..وهو رشيق وإن كان يميل إلى السمنة .. ولكنه يبدو أكبر منها فى السن بكثير .. كانت أمها قد قالت لها إنه فى الثامنة والعشرين ولكنها عرفت فيما بعد أنه فى الخامسة والثلاثين .. أى أكبر منها بعشرين عاما .. إن أمها لا تهتم بفارق السن بين العريس والعروس .. لقد كان زوجها الثانى أكبر منها ربما بأكثر من عشرين سنة .. ولكنها كذبت على سعاد ربما لتخفف عنها ولا تخسر استسلامها ..

وكانت الأمهات يتبادلن الحديث فى موضوعات تخصهن .. دون أن تتحدث إحداهن عن العروس أو العريس .. بينما عزيز جالس يبحلق فى سعاد .. ويبدو أنه لم يرها من قبل .. وجاء قبل أن يقرر شيئا .. ويظهر

أن كل ما حدث هو أن شهيرة هانم صديقة أمها هى التى وضعت خطة هذا الزواج وأقنعت أم عزيز بأن تتقدم لخطبة ابنة صديقتها لابنها .. لا شك أن أمها كانت تحادث صديقتها كثيرا عن رغبتها فى تزويج ابنتها وعن قلقها فى تحقيق هذا الأمل ..

وكان عزيز فى جلسته يفتعل حديثا مع سعاد من خلال ابتسامة مفتعلة.. وصوته جاف فيه خشونة وكأنه صوت عمدة .. ولكنه يستطيع أن يختار كلامه .. إنها كلمات مهذبة رقيقة .. وهى تسمع ولا ترد إلا بكلمات قليلة .. كلمة أو كلمتين .. وهو ما يضعها فى صورة البنت الخجولة البريئة التى لم تتعود على التحدث مع الغرباء .. بعكس بنات هذه الأيام اللاتى يتحدثن مع رجل قريب أو غريب بجرأة ووقاحة ..

وانتهت الزيارة دون أن يعلنا أى قرار .. وقالت أم سعاد وهى تحتضنها وعلى وجهها فرحة :

– ما رأيك فيه .. إنى متأكدة أن الخطوبة ستتم .. نظراته إليك وكلام أمه عنك وهى تبحلق فيك .. إنه هو وأمه جُنَّا بك ..

وقالت سعاد وهى فى حيرة :

– ولكنه أكبر مما تصورته يا ماما ..

وقالت الأم وهى تربت على كتف ابنتها كأنها تواسيها :

– المفروض أن طبيعة البنت بالنسبة لعمرها تختلف عن طبيعة الرجل .. حتى يقال إن البنت تكبر أسرع مما يكبر الرجل بنسبة عشر سنوات .. فإذا كنت الآن فى السادسة عشرة فأنت فى سن يضاهى سن رجل فى السادسة والعشرين .. وعزيز مهما كان كبيرا لا يمكن أن يتجاوز الثانية أو الخامسة والثلاثين .. أى أن الفارق بينكما لا يفرق بين تجاوب طبيعتكما .. واسألينى أنا .. لقد كان زوجى أكبر منى بأكثر من عشرين

سنة ورغم ذلك عشت معه وأنا أحس بأنى أنا الكبيرة وهو الأصغر .. إن كل الرجال أصغر من كل النساء ..

ولم تقتنع سعاد بكلام أمها ولكن رأيها لا يزال متعلقا بالاستسلام ..

وبعد ساعات دق جرس التليفون ولم تحمله الأم وتدخل إلى غرفة نومها ولكنها تتحدث وسعاد تسمعها من بعيد .. لا شك أنها تتحدث مع أم عزيز .. وقد تحدثتا طويلا .. ثم وضعت الأم سماعة التليفون والتقطت ابنتها بين ذراعيها وهى تصيح كأنها تزغرد :

– مبروك يا سعاد .. عزيز وأمه سيجنان فرحا بك .. إنه يريد أن تعلن الخطوبة فى هذا الأسبوع ويتم كتب الكتاب بعد أسبوعين ، ولكنى اشترطت عليه كما سمعت أن يذهب للقاء بابا ..

ولم تبد على سعاد فرحة وقالت فى هدوء أقرب إلى البرود :

– هل يكفى أسبوعان لأعد نفسى لهذا الزواج ..

وقالت الأم وفرحتها تزغرد على وجهها :

– يكفى يومان ..

وقاطعتها سعاد :

– والبيت الذى سأقيم فيه .. والجهاز ..

وقالت الأم بسرعة :

– لقد قالت لى أمه إنه سيخصص الفيلا التى يملكها لك .. وهى فيلا يقيم فيها وحده وليس مع أمه .. وهو مصمم على ألا يبدأ بتغيير أثاث الفيلا إلا بعد أن تقيمى فيها حتى تختارى كل شىء بنفسك .. إنها فيلا وليست شقة ..

وقالت سعاد ساهمة كأنها تحادث نفسها :

– كيف أعد نفسى للزواج فى أسبوعين .. لن نستطيع أن تنتهى حتى من إعداد ثوب واحد ..

وقالت الأم كأنها تفيق ابنتها من أحلامها :

– لا تتمسكى بالمظاهر .. إن المظاهر للناس ، وما تريدينه قبل الزواج يمكن أن تحققيه بعد الزواج .. وعلى كل حال يمكن أن يكون الأسبوعان شهرا .. ونحن طبعا أحرار ..

واستدارت الأم نحو التليفون وحادثت زوجها القديم والد سعاد .. وحادثته بنفس اللهجة الآمرة التى كانت تحادثه بها أيام أن كانت معه .. وأبلغته أن هناك عريسا لسعاد سيزوره غدا .. وحادثته قليلا عن صفات هذا العريس .. وسعاد متأكدة أن والدها سيوافق على زواجها كعادته فى الاستسلام لأوامر أمها .. وهى لن تستغيث به ليرفض .. إنها هى نفسها لا ترفض ..

ووضعت الأم سماعة التليفون والتفتت إلى سعاد وهى تقول فى عجلة :

– هيا بنا .. سنذهب الآن إلى مدام فلور الخياطة ..

واستسلمت سعاد فى صمت .. إن أمها هى التى تقوم بكل شىء من خلال أوامرها ..

وأعلنت الخطبة فعلا فى نفس الأسبوع .. وأعلنت فى حفل صغير يجمع أفرادا من العائلتين .. وسعاد مرتديه الثوب الجديد الذى كانت أمها قد أقنعت مدام فلور بالانتهاء منه فى يومين .. وأختها نجوى تنظر إليها وعلى شفتيها ابتسامة مشفقة .. إنها تعلم أن سعاد استسلمت لهذا الزواج تحت سيطرة أمها .. وأحيانا تفتعل كلمات كأنها نكات وتضحك ضحكات

صارخة كأنها تهزأ من كل الحياة .. وأبوها الذى حضر الحفل يجلس صامتا لا ينطق إلا بالكلمات الرسمية كلما اضطر أن ينطق .. وخطيبها مكتف بأن يحلق فيها كلما استطاع أن يدير وجهه لها .. وحاجباه يرتفعان أحيانا كأنه لا يستطيع أن يقاوم البصبصة لها ..

وأثناء فترة الخطوبة لم تحس سعاد بجديد ناحية خطيبها .. إن حديثهما لا يزال حديثا بين غريبين .. وعيناه لا تكفان عن البحلقة فيها وهى ترخى عينيها ولا تطيق هذه البحلقة .. ربما كانت هذه البحلقة هى كل ما يجمعه بها .. فقط تزوج شكلها .. جمالها .. ولا يهمه أن يكتشف شيئا آخر فيها .. إنها لا تعرفه وهو أيضا لا يعرفها .. إلا شكله وشكلها .. وكان أحيانا يمد يده ويتحسس شعرها أو كتفها ولكنه لم يحاول أبدا تقبيلها .. لعله رجل محافظ .. يؤمن بأنه لا تحق له القبل إلا بعد كتب الكتاب .. وقد دعاها مرتين للعشاء فى الخارج وأمها معهما .. أن أمها هى كل شىء .. إنها وحدها التى يحادثها فى كل التفاصيل .. بل إنه لم يدع خطيبته لترى البيت التى ستقيم فيه .. بيتهما .. ولكنه دعا الأم .. وربما لم تكن دعوة ولكن الأم هى التى طلبت أن ترى هذا البيت .. وقد عادت منه فرحة .. إنها فيلا رائعة وقضت ساعات تحادث ابنتها عنها وتصفها لها .. ولعل خطيبها يعتبر أمها هى صاحبة البيت الذى يأخذ منه فتاة يعاشرها ويمتع نفسه بها .. إن صاحبات مثل هذه البيوت هن المسئولات إلى أن ينفرد بالفتاة التى يأخذها ويبدأ متعته بها فوق الفراش .. ربما كان متعودا على مثل هذه البيوت ..

وقد تم الزفاف فعلا بعد ثلاثة أسابيع .. إن عزيز كان دائما متعجلا .. وقد تم أيضا بلا حفل .. إن عزيز نفسه لم يكن يريد حفل زفاف كاملا رائعا .. حتى أنه لم يدع إلى هذا الحفل الضيق الصامت إلا صديقا واحدا من أصدقائه بجانب أفراد العائلة .. وسعاد كانت أمها قد أعدت لها ثوب الزفاف .. فستان العروس .. ولكنه كان ثوبا هادئا رغم القماش الغالى الذى

اختارته أمها ورغم الرشاقة الجميلة التى وضعتها فيه الخياطة فلور والطرحة الصغيرة التى لا تنسدل إلى ما بعد كتفيها ..

وانتهى الحفل بلا زفة كالتى يقوم بها العوالم .. ووقفت أمها مع أبيها مع المدعوين يودعونها وداعا صامتا تفيض عليه الابتسامات المفتعلة كأنهم يودعونها على محطة قطار ، القطار الذى يحملها إلى مصيرها .. ومن بعيد لمحت أختها نجوى وفى عينيها دموع ..

• •

وأفاقت سعاد من هيامها مع ذكرياتها وباب الشقة يفتح .. لقد عادت ابنتها سامية وابتسمت سعاد ابتسامة تحمل كل نبضات حبها واطمئنانها .. إن سامية لا تخلف أبدا وعدها وقد وعدت أن تعود بعد ساعة ، ولم يمض عليها فعلا أكثر من ساعة .. وصاحت سامية فى مرح :

- ماما .. انظرى إلى الساعة ..

وقالت سعاد من خلال ابتسامة حب :

- لم تمض سوى ساعة .. إنى دائما مطمئنة إلى وعودك ..

وقالت سامية ضاحكة :

- أنا لا يهمنى اطمئنانك .. ولكن أريد أن أطمئن أنا إلى أنى لم أعط أحمد أكثر من المقرر ..

وقالت سعاد :

- وكيف حال أحمد ؟

وصاحت سامية وهى تجرى إلى غرفتها :

- مجنون .. لا يريد أن يدخل الامتحان .. يقول إن المهندسين هم عبيد للأغنياء الذين يبنون العمارات وهو لا يريد أن يكون عبدا ، وسيكون رجل أعمال .. وقبل أن أحكى لك أريد العشاء .. كل ما أشوف أحمد أجوع ..

وقالت سميرة وهى جالسة وراء المكتب الصغير بعد أن رفعت النظارة عن عينيها :

- أنا أيضا أريد العشاء .. إنى أجوع من كثرة العمل لا من كثرة السطيط كست سامية ..

وقالت سعاد فى رجاء :

- انتظرا حتى تعود أختكما سهير .

وقالت سميرة فى حدة :

- أنا لا أعرف متى ستعود .. ولا أنت تعرفين يا ماما مهما كانت قد وعدتك ..

وقالت سعاد وهى تحنى رأسها كأن ذكر سهير قد أثقله :

- مهما كان .. لننتظر ساعة .. نصف ساعة ..

لوت سميرة شفتيها وعادت ووضعت نظارتها على عينيها وعادت إلى كتبها .. وصاحت سميرة من حجرتها :

- علشان خاطرك نصف ساعة لا أكثر يا ماما ..

وقطبت سعاد حاجبيها .. إنها لا تستطيع أن تطمئن أبدا إلى ما تفعله سهير رغم أنها تدعى أنها لا تخفى عنها سرا مهما كان .. وصحيح أنها تقول لها الكثير حتى عن القبلات التى تستسلم لها ورغم ذلك فهى تحس

دائما بأن هناك شيئا لم تقله .. وهى تخاف عليها أكثر مما تخاف على أختيها .. ترى أين هى الآن .. وماذا تفعل الآن .. لقد كانت هى نفسها فى ماضيها تفعل .. ولكنها لم تفعل ما فعلته إلا بعد أن قاومت طويلا .. ولكن سهير لم تصل بعد إلى العمر الذى يكفى لليأس من المقاومة .. ووجدت نفسها تعود وتهيم فى ماضيها البعيد ..

* *

إنها تتذكر ليلة زفافها إلى عزيز .. لقد وضعها فى سيارته وهى فى ثوب العرس .. وجرى بها إلى الفيلا .. إنها فيلا بعيدة قريبة من بلدة الحرانية وقريبة من شارع الهرم .. وهى على أرض زراعية واسعة يملكها هناك .. وقد دخلت الفيلا وهى تحاول أن تكون سعيدة باسمة وحاولت أن تبدأ بالطواف بها غرفة بعد غرفة إلا أن عزيز شدها من ذراعها وهو يضحك ضحكة تعبر عن لهفته إلى شىء :

- دعى كل ذلك للصباح .. نحن الآن وحدنا لأول مرة ..

وأخذها إلى غرفة النوم .. ووقفت سعاد تتطلع فيها .. كيف قالت لها أمها أن كل شىء فى الفيلا رائع .. إنها حجرة كل شىء فيها قديم .. ليست طرازا ريفيا أو فلاحيا إنها الطراز الخشبى العادى وإن كان يبدو أن طرازها ثمين .. وكانت تتطلع حولها بينما عزيز يخلع بدلته ويفك ويخلع القميص ورباط العنق .. ثم التفت إليها وهو فى القطع الداخلية لثيابه وقال وابتسامة نهمة تكسو شفتيه :

- ألم تخلعى بعد .. نسيت أنك لازلت صغيرة .. يجب أن أتولى أنا خلع ملابسك عنك ..

ورفع يده وجذب طرحة الزفاف عن رأسها .. ثم مد أصابعه يبحث عن أزرار ثوبها .. وصاحت فيه :

احترس .. إنك ستمزق الثوب ..

ثم وجدت نفسها مضطرة لان تمد أصابعها مع أصابعه حتى تطمئن إلى سلامة الثوب وهى تخلعه .. إلى أن أصبحت بلا ثوب .. وشدها يرقدها على الفراش .. وأصبح فوقها وهى تنظر فى وجهه بذهول كأنها تسأله ماذا سيفعل بها .. ولكنه لا يتكلم .. ثم صرخت صرخة خافته .. لقد أصبحت الآن امرأة .. لم تعد فتاة .. هذا هو كل ما تحس به .. أنها لم تعد فتاة ..

وانزاح عزيز من فوقها وهو يقول مبتسما منتشيا بمتعته :

- مبروك عليك .. مبروك عليك يا مدام .. ومبروك عليك أنا ..

ثم قام من جانبها وخرج من الغرفة ..

وهى لا تزال مذهولة كأنها فى إغماء .. هل هذا هو كل ما كانت تسمع عنه وتتوهمه .. ولكنه لم يقبلها .. لقد كانت تتصور أن القبلات هى المقدمة لكل ما يحدث .. ولكنه لم يقبلها .. وقد عاشت معه بعد ذلك وهو لا يقبلها .. إن هذه هى طبيعته .. إنه لا يعرف القبلات .. وقد حاولت بعد ذلك بسنوات وفى ليلة أحست بالألفة بينها وبينه أن تعلمه القبلات .. إنها هى نفسها لم تجربها ولكنها تعرف عنها .. ولكنه رفض أن يذوق ويدرب نفسه على القبلات .. وضع شفتيه على شفتيها فى فتور ثم أبعدهما وهو يقول :

- دعينا من لعب العيال .. إنى أفضل أن أملأ بك عينى وأنا أعيش معك منتهى المتعة ..

هذه هى طبيعته .. وكل شى حولها يحرمها من تحقيق أحلامها وأوهامها التى عاشت فيها كل بنت .. وليلتها ليلة الزفاف .. تركها عزيز على الفراش وحيدة ساعات طويلة .. وهى لا تنام .. ولا تدرى أين هو خارج الغرفة ولا ماذا يفعل .. إلى أن عاد إليها .. عاد يترنح .. سكرانا ..

وألقى بنفسه على الفراش وأدار ظهره لها وغط فى النوم فورا .. إنها لم تكن تعرف أنه يشرب الخمر .. وفى الليالى التى دعاها فيها هى وأمها إلى العشاء أيام الخطوبة لم يشرب الخمر معهما .. ربما طلب كأسا واحدة من النبيذ .. ولكنها تعرف الآن أنه سكير .. مدمن .. يشرب حتى وهو وحده دون أن يكون حوله أصدقاء يغرونه على الشرب .. وقد عانت كثيرا من حالته عندما يشرب حتى تعودت كلما بدأ يشرب داخل البيت أن تتركه وحده وتعتبره قد خرج إلى أن يعود إليها سكران ..

ومن يومها الأول من زواجها قررت سعاد الاستسلام وإخفاء كل ما تعانيه فى داخلها .. هذا هو الزواج .. وهذا هو نصيبها من الدنيا .. وتذكر فى هذا اليوم الأول أن قام زوجها بعد أن تناول إفطاره وقال إنه خارج إلى العمل .. وتركته يخرج .. وتفرغت بكل عقلها وإحساسها للطواف بحجرات الفيلا وتقف طويلا فى كل غرفة لتضع تخطيطا جديدا لها وتنتقى لها بخيالها ما تحتاجه من أثاث .. إنها تعد جهاز العروس الذى لم تحصل على شىء منه قبل الزواج .. وقد بهرت يومها بحديقة الفيلا .. إنها جنة .. وقد حرمت طول عمرها من أن يكون لها حديقة إلى أن منحها الله الجنة .. إن كل همومها تذوب تحت أشجار وزهور هذه الجنة .. وتذكر يومها .. يوم الصباحية .. بعد أن تركها زوجها عزيز وقال إنه خارج إلى عمله .. إنها تعرف أن له مكتبا فى شارع سليمان باشا ولكنها لا تعرف ماذا يعمل .. كل ما تعلمه أنه يملك هذه الأرض فى الحرانية ويملك أرضا أخرى فى الفيوم .. ولكن ما هو العمل الهام الذى يجعله يترك عروسه فى يوم الصباحية .. لا تدرى .. ورغم ذلك لم تعترض على تركها وحدها .. ولم تحاول أن تغريه بالبقاء ولو بابتسامة .. وقد جاءت أمها لتزورها فى يوم الصباحية وسألت بمجرد أن دخلت :

– أين زوجك ؟

وقالت سعاد ساخرة :

– خرج ..

وقالت الأم فى دهشة ساخطة :

– كيف يترك عريس عروسه فى صباحية الزفاف ..

ولكنها كأنها تنبهت إلى ضرورة مراعاة حالة ابنتها فاستطردت قائلة فى صوت رؤوف :

– لابد أنه يتحمل مسئولية أعمال كثيرة ..

ولم ترد عليها سعاد وأخذتها تطوف بها البيت وتحكى لها عما تريده فى كل غرفة .. أن أمها يجب أن تعلم ما تريده لأنها لن تتركها أبدا تشترى أى شىء وحدها .. ثم إنها تعتبر نفسها مسئولة عن التعامل مع عزيز وليست زوجته سعاد .. وعزيز ليس بخيلا ولكنه أيضا ليس كريما .. إنه يناقش كلما وجد نفسه مضطرا لأن يدفع قرشا .. وقد عاد عزيز يومها إلى البيت فى أواخر ساعات الغروب وكانت الأم قد انصرفت .. وبدأت سعاد تروى له ما رأته وما تريده فى البيت .. وعزيز يهز رأسه مبتسما دون أن يعترض على رأى أو على فكرة ثم ضاق بهذا الحديث بمجرد أن انتهى من تناول العشاء .. إنه يريدها فى غرفة النوم .. إنها تعودت طول حياتها معه على الاستسلام لإصراره كلما أرادها وهما فى غرفة النوم .. إنه مفرط .. وهى تتحمل إفراطه ولكنها لم تستطع أبدا أن تحدد صورة لهذا الإفراط .. إنه قد يريدها فى كل يوم .. وقد يريدها فى الصباح والمساء .. ثم قد يتركها دون أن يريدها أياما .. بل خلال السنوات الطويلة كان أحيانا يتركها شهرا ثم يعود إلى إفراطه .. وهى نفسها لا تبدى أنها تريده .. إنها فعلا لم تحس أبدا بأنها تريده على الفراش .. لقد عودته على الاستسلام الصامت .. ربما كانت طبيعتها باردة كما يقال عن بعض النساء ..

وقد فرحت فرحة تطير بها عندما اكتشفت أنها حامل .. وتذكرت كلمة أمها عندما قالت لها ولأختها إنها لم تنجبهم إلا ليخففوا عنها ضيقها بأبيهم

ويعينوها على احتماله .. وكانت متأكدة أنها ستنجب ما يخفف عنها كل ما تعانيه من حياتها مع عزيز .. وكانت تجلس فى الحديقة بعد أن تنتهى من الإشراف على البيت ويدها على بطنها المنفوخ وهى تبنى الأحلام بمن ستنجبه كأنها ستطير به إلى عالم آخر .. إلى جنة كالجنة التى تصورها هذه الحديقة .. إلى أن أنجبت سهير وفرحت بها ولكن زوجها عزيز لم تبد عليه كل هذه الفرحة .. كانت فرحته باردة ولم يحاول أن يشترك حتى فى اختيار اسم ابنته .. هى التى اختارت الاسم بحرف كالحرف الذى يبدأ به اسمها هى .. س .. كما اختارت أسماء بقية البنات .. ولم يكن عزيز مقصرا ولا مصدوما بخيبة الأمل لأنه كان يريد أن ينجب ولدا لا بنتا .. ولكن كانت هذه طبيعته .. يعتبر إنجاب الأولاد مجرد واقع تفرضه الحياة ولا يستحق كل هذه الفرحة ولا كل هذا الاهتمام ..

وقد تعودت منذ تزوجت على أن زوجها يدعو فى كل يوم جمعة أصدقاءه وزوجاتهم وبينهم أصدقاء بلا زوجات ونساء بلا أزواج ليقضوا اليوم فى الحديقة ويتناولوا الغداء وأحيانا تستمر بهم الدعوة حتى يتناولوا العشاء .. وكانت سعاد سعيدة بهذه الدعوات .. سعيدة بانشغالها بالإعداد لها وسعيدة برؤية المدعوين وقضاء الوقت بينهم .. وإن كانت قد بدأت تلاحظ أن هناك أنواعا غريبة من الشخصيات بين هؤلاء المدعوين وخصوصا أنواعا عجيبة من النساء غير المتزوجات اللاتى يدعوهن زوجها .. ثم بدأت تخمن أنه قد تكون له علاقة خاصة مع هذه المرأة أو تلك .. لعل زوجها يخونها .. ثم تأكدت من هذا التخمين بعد عدة ظواهر واكتشافات .. إن زوجها يخونها .. أكثر من ذلك إنه مدمن نساء .. واغتاظت ولكنها لم تكن تغار إلى حد أن تترك الغيرة تسيطر على تصرفاتها .. حتى أنها كانت تحاول أن تقنع نفسها بأن النساء اللاتى على علاقة بزوجها يخففن عنها ويلهينه عن التنغيص على حياتها .. ربما كانت الأيام أو الشهور التى يخفف خلالها زوجها من إفراطه فى استغلال جسدها هى فترات يكون خلالها

مكتفيا بامرأة أخرى .. ولم يحدث إلا مرة واحدة أن ثارت سعاد .. كان زوجها عزيز قد سافر للإشراف على أرضه فى الفيوم وعاد ومعه امرأة شابة .. إنها جميلة هذا الجمال الفلاحى .. ورشيقة القوام هذه الرشاقة التى تشتهر بها معظم الشابات الفلاحات .. الرشاقة التى تشد القوام بحمل البلاص فوق الرأس ..

وقال عزيز فى بساطة بصوته الجاف القوى :

- مسعودة ستعمل فى البيت ..

ولم ترفض سعاد وأخذت تحادث مسعودة وتحدد لها ما هو مطلوب منها من أعمال البيت ثم أخذتها إلى الحجرة المخصصة لها على أرض الحديقة ملتصقة بالبيت .. ولكنها بدأت تلاحظ مع الأيام كأن مسعودة تتدلل على عزيز وتتجرأ عليه أكثر مما يمكن أن تتجرأ أى خادمة .. وبدأ الشك يساورها .. وفى ليلة من الليالى التى تعودت فيها سعاد أن تترك زوجها وحده يشرب الخمر فى غرفة البار بينما تسبقه هى إلى غرفة النوم .. فى إحدى هذه الليالى كان الشك مستبدا بها ووجدت نفسها تقوم من الفراش لتهدأ بالجلوس بجانب زوجها .. ولكنها لم تجده فى غرفة البار يشرب كأسه .. وقبل أن تبحث عنه فى غرفة أخرى لمحته من الشباك المطل على الحديقة خارجا من غرفة مسعودة .. وجرت عائدة إلى غرفة النوم والطعنة تنحر فى صدرها .. لعل لهذا أصبح عزيز لا يسهر خارج البيت كثيرا كما تعود .. ولكنها حاولت بحكم طبيعتها أن تمسح الطعنة أو على الأقل تخفف منها .. لتفترض أنها متزوجة من رجل له زوجة ثانية تقيم فى نفس البيت كما كان يحدث أيام زمان .. ولكنها لا تستطيع أن تهدأ .. ثم إن مسعودة منذ جاءت وهى تتعبها كخادمة .. إنها لا تجيد شيئا ولا تفهم شيئا علاوة على جرأتها على زوجها .. لا .. إنها لا تستطيع أن تحتملها .. ولن تحاول احتمالها .. وعندما عاد زوجها إليها بعد أن كان قد مر على غرفة البار

وشرب أكثر .. ادعت سعاد النوم وإن لم تنم حتى الصباح .. وعلى مائدة الإفطار قالت بصوت حاولت أن يكون هادئا :

- مسعودة يجب أن تعود إلى بلدها ..

وقال عزيز بدهشة المفاجأة :

- لماذا ؟

ورفعت إليه سعاد عينيها بنظرة صارمة كأنها غاضبة منه وتعرف كل شيء وقالت :

- إنها ليست نافعة للبيت ولا لى .. علاوة على أنها متعبة وغبية وحمارة ..

وسكت عزيز برهة كأنه يقيس الموقف ثم كأنه قرر الاكتفاء بلياليه مع مسعودة وقال :

- غدا سأعيدها ..

وصاحت سعاد :

- تعود اليوم ..

وصاح عزيز صيحته الغليظة التى كانت تنتهى أحيانا بضرب سعاد :

- كيف أعيدها اليوم .. من يحملها إلى بلدها أم أترك عملى وأسافر بها أنا ..

وسكتت سعاد برهة ثم قالت بصوت خفيض كأنها تخشى صياح عزيز :

- إذن .. غدا تعود إلى بلدها ..

وليلتها قرر عزيز أن يقضى الليلة فى البيت لتتركه سعاد وحده فى غرفة البار كأنه قرر أن يقضى ليلة وداع مع مسعودة .. ولكن سعاد لم تتركه وحده فى غرفة البار وجلست بجانبه وهى تسليه بالحكايات وتفتعل إغراءه بنفسها .. إغراءه بأن يأخذها هى .. ويئس عزيز من إقناعها بأن تسبقه إلى غرفة النوم .. وعندما قام معها إلى هناك كان باردا ساخطا ولم يحاول معها ..

وسافرت مسعودة فعلا فى اليوم التالى .. انتهت حكايتها ..

والمدعوون إلى أيام الجمعة عرفوا عن سعاد قلة كلامها واختيارها المواضيع الجادة الرقيقة كلما تحدثت .. بل عرفوا انزواءها بنفسها وهى معهم وخصوصا انزواءها عن الرجال .. وكانوا فى الوقت نفسه مبهورين بجمالها .. ولكنه جمال يفرض الاحترام حتى لم يجرؤ أى رجل على المحاولة معها ولو بكلمة رغم أن المحاولات بين الرجال والنساء لم تكن تكف أبدا بين هذا النوع من المدعوين .. وقد اقتنعوا كلهم بأن سعاد متعلقة بعزيز كل التعلق وتحبه منتهى الحب وهو ما يغنيها عن كل الرجال وكل المغريات .. لم يكن منهم من يعرف حقيقة الواقع الذى تعيشه سعاد مع زوجها ..

وبين هؤلاء المدعوين التقت سعاد بأقرب أصدقائها إليها حتى اليوم .. أو ربما كانت صديقتها الوحيدة .. هدى .. وكانت هدى أيامها لا تزال متزوجة .. وربما كان ما ربطها بسعاد أنها كانت كلما جلست بجانبها وانفردت بها بدأت تشكو من زوجها .. إنها شكوى تعبر عن حالة سعاد وإن كانت قد مرت شهور وهى لا تبادل شكوى هدى بشكواها .. إن هدى كان لها التأثير الأكبر فى الماضى الذى كتبته سعاد على نفسها .. بل ربما كانت هى السبب فى كل ما حدث ..

• •

وطردت سعاد ذكرياتها عن خيالها عندما خرجت سامية من غرفتها وهى تصيح :

– النصف ساعة انتهت .. إما نجلس للعشاء أو سأدخل المطبخ وحدى ..

وقالت سميرة وهى تجمع أوراقها وترفع نظارتها :

– وأنا أيضا .. لن أنتظر الهانم سهير حتى تعود ..

وقامت سعاد صامتة إلى المطبخ .. إن كل شىء من مطالب البيت هى التى تعده بنفسها .. بأصابعها .. هذا ما عودت عليه بناتها حتى أنها تلوم نفسها أحيانا لأنها لم تعودهن على مسئولية البيت وتعلمهن الطبخ والكنس والمسح والخياطة .. لقد مرت فترة قصيرة فى حياتهن وجدن أنفسهن مسئولات عن البيت .. ولم يفلحن فى حمل هذه المسئولية .. وربما كانت هذه أنانية سعاد .. أنانية الأم .. إنها تخص نفسها بكل المسئولية حتى تهرب من حيرتها الدائمة بشغل نفسها بالعمل وتحريك أصابعها .. أى أنه ليس فقط حبا فى البنات وإصرارا على إراحتهن من أعمال البيت ليتفرغن للمذاكرة .. ولكنها دائما فى حاجة إلى شغل نفسها بعيدا عن حيرتها ..

ونقلت سعاد أطباق الطعام إلى المائدة ونادت على بنتيها لتناول العشاء .. وما كدن يبدأن حتى سمعن الباب يفتح وتدخل سهير .. وصاحت فيها سعاد بمجرد أن بدت أمامها :

– لماذا تأخرت .. إن الساعة وصلت العاشرة ..

وقالت سهير من خلال ابتسامة واسعة :

– بونسوار أولا .. ثم إن الساعة العاشرة لا تعتبر تأخرا .. أنا بنت عاقلة ..

وعادت سعاد تصيح :

– وأين كنت حتى العاشرة .

وقالت سهير وهى تقترب من أمها وتقبل رأسها :

– كما قلت لك يا ماما .. كنت عند نيفين .. وكان أخوها ياسر وأخوها شريف ومعهما شلة من الأصدقاء .. ورقصات .. إن عندهم مجموعة من الديسكات تجنن .. آخر رقصات العالم ..

وقالت سعاد وهى تزيح بنتها من الالتصاق بها :

– كان المفروض أن تذاكرى لا أن ترقصى ..

وقالت سهير ضاحكة :

– إن الرقص هو الذى يؤدى إلى النجاح .. النجاح فى الدنيا لا فى المدرسة ..

وقالت سميرة وهى تنظر إلى أختها فى ازدراء :

– الرقص ليس له علاقة بالدنيا ولا بالمدرسة .. كلامك مسموم ..

وقالت سامية ضاحكة :

– لا تنسى يا سميرة أن سهير اتفقت مع فرقة شطوط على الرقص فى الكبارية .. خلاص .. ضمنت مستقبلها ..

وقالت سعاد لابنتها سهير :

– اقعدى ..

وقالت سهير وهى ترقص فى خطوات كأنها تغيظ أختيها :

– آسفة .. تناولت العشاء ..

وصاحت سميرة فى أمها :

– كنت تريدين أن ننتظر إلى أن تنتهى ست هانم من الرقص والعشاء ..

وقالت سهير لسميرة ردا عليها وهى تتجه إلى غرفتها :

– من فضلك لا تقرئى فى السرير وتضيئى النور .. من تريد القراءة تقرأ بره ..

وسعاد الأم تسقط رأسها على صدرها كأنها تهم بالبكاء .. وتلقى من يدها الشوكة التى تأكل بها .. إنها لم تتناول العشاء .. إن ابنتها سهير تخيفها .. وتثير فيها اللوعة على مستقبلها .. وإن كانت تذكرها بماضيها ..

(٤)

وسعاد هائمة فى ذكرياتها ..

كان قد مضى عشر سنوات على زواجها وأنجبت بناتها الثلاث وهى كما هى لم تتغير .. تسكب كل أيامها فى رعاية بناتها .. وتعيش الاستسلام الصامت لكل متاعب زوجها عزيز .. وساعات تستريح فيها بين أشجار الحديقة التى تعتبرها جنة عمرها بينما تترك بناتها يلعبن أمامها .. ولكن كان قد بدأ يتحرك فيها إحساس بأنها ظلمت نفسها .. أعطت كل حياتها لهذا الزوج ولم يعد فيها شىء لها .. لماذا لا يكون لها حياة خاصة بجانب الحياة التى أعطتها لزوجها كما تسمع عما يفعله كثير من الزوجات الأقل منها حرمانا من الإحساس بالحياة .. ولكنها كانت تقاوم هذه الأحاسيس التى تطرأ عليها وترفض الاستسلام لها .. يكفيها بناتها .. إنهن كل حياتها .. وهن لها وحدها .. لا تترك منهن شيئا لأبيهن .. ولن تسمح أبدا بأن يفرض نفسه عليهن كما فرض نفسه عليها .. وهو نفسه لم يكن أبا يتفرغ للاهتمام ببناته .. والبنات أنفسهن لا يشعرن بمسئولية أبيهن عنهن .. ويكاد يكون إحساسهن به هو نفس إحساس أمهن .. رجل متعب فى البيت .. وإن كان هذا الرجل يثور أحيانا محاولا فرض نفسه على بناته .. قد يثور لأن أمهن تختار لهن ثيابا يعتبرها خارجة ولا يوافق على أن يرتدينها .. أو لأن أمهن تركتهن يوما فى ضيافة صديقتها هدى ليلعبن مع ابنتها وابنها ..

وكانت سعاد تتلقى هذه الثورة صامتة دون أن تحقق شيئا مما يريد فرضه على بناته .. وهو نفسه كان ينسى ما دفعه للثورة إلى أن يعود بعد مدة ويثور مرة أخرى .. وهى مصرة دائما على أن بناتها لها وحدها ..

ولكن بناتها كبرن وأصبحت مسئوليتها عنهن تترك فى أيامها أوقاتا من الفراغ .. وخصوصا بعد أن أدخلتهن المدارس .. وكانت هى التى تحملهن إلى المدرسة وتعود بهن فى السيارة الصغيرة التى اشتراها لها زوجها عزيز .. وكان قد وافق على أن تقوم هى بحملهن إلى المدرسة ربما لأنه راعى إحساس الأم .. أو ربما ليطمئن عليهن أكثر .. أو ربما لأنه لم يستطع أن يتفق مع مدرسة لترسل السيارة المدرسية حتى الحرانية البلدة البعيدة لحمل بناته .. وكان أبخل من أن يستأجر سائقا خاصا .. إن شراء سيارة صغيرة لزوجته توصل بها البنات أرخص وأسهل عليه من دفع مرتب سائق خاص .. وكان قيامها بحمل البنات إلى المدرسة يتعبها ولكنها كانت تتحمله لتكون أكثر ارتباطا ببناتها .. وكانت تأخذهن إلى المدرسة فى الصباح الباكر ثم تعود بالسيارة إلى الحرانية ثم تعود مرة أخرى لتأخذهن من المدرسة .. ولكنها كانت أحيانا لا تعود إلى الحرانية وتبقى فى القاهرة توفيرا من متاعب قيادة السيارة .. وتقضى الوقت تلف فى الأسواق أو تزور صديقتها هدى طوال فترة المدرسة حتى تتركها وتذهب لبناتها ..

إن هدى قد أقامت لنفسها حياة خاصة تهرب بها من حياتها مع زوجها .. ولم تكن قد كشفت لها عن أسرارها داخل هذه الحياة الخاصة .. كل ما كشفت لها عنه أنها من هواة اللعب بالتليفون .. كانت تقضى وقتا طويلا وهى تتصل بالتليفون برجال لا تعرفهم وتتكلم كأنها تغازلهم وتعرض نفسها عليهم ثم تضع سماعة التليفون وتقضى فترة وهى تضحك فى مرح .. وكانت هدى تلح عليها أن تشترك معها فى لعبتها .. ولكن سعاد ترفض وتكتفى أن تكون متفرجة تتسلى بلعبة صديقتها .. إن إحساسها لا يساعدها على الإقدام على مثل هذه اللعبة .. وإن كانت قد أقدمت مرة .. طلبت هدى نمرة رشدى أباظة وما كادت تسمع صوته حتى وضعت السماعة فى يد سعاد .. وأخذت سعاد السماعة بيد ترتعش وقالت بصوت متهدج وهى تحاول أن تقلد هدى :

- آلو .. أنا معجبة ..

وقبل أن تسمع كلمة من رشدى أباظة أعادت السماعة إلى هدى قائلة :

- لا أستطيع .. لا أستطيع ..

وأعادت هدى سماعة التليفون إلى مكانها وهى تقول ضاحكة :

- هلى تخجلين حتى من كلام التليفون .. يا أختى عيشى الدنيا .. لا تتركى نفسك مدفونة .. ثم ماذا نفعل .. إننا نتسلى بمشاهدة الدنيا من خلال ثقوب القبر الذى نعيش فيه ..

وكانت تترك هدى وإحساسها بأنها تظلم نفسها يشتد .. لماذا لا تجرؤ على التخفيف عن نفسها ولو بمجرد التسلية باللعب البرىء .. إنها لا تلعب حتى لعبة الكوتشينة أو الطاولة لتسلى نفسها .. بل لماذا لا يكون لها رجل آخر يخفف عنها متاعبها مع زوجها كما تفعل الكثيرات من الزوجات وربما كان لهدى أيضا رجل آخر وإن كانت لا تكشف لها عنه .. وتتنهد سعاد .. إنها واثقة أن كل الرجال الذين يمرون بها يتمنونها ويشتهونها .. يكفى جمالها .. ولكنها تعرف أيضا أن الرجل فى المجتمع الذى يحيط بها لا يقدم إلا إذا شجعته المرأة على الإقدام .. ويكتفى بالتعبير عن أمانيه بنظرات حتى يتلقى إشارة السماح له بالتقدم .. وهى تلمح هذه النظرات فى عيون كل الرجال حتى فى عيون أقرب أصدقاء زوجها ولكنها لا تحاول أبدا أن تعطى إشارة السماح بكلمة أو بابتسامة أو بنظرة .. ولا يلبث يأس الرجل من الوصول إليها أن ينتهى إلى احترام .. إنها زهقت من هذا الاحترام .. زهقت من طبيعتها التى تفرض عليها الصمت والانعزال بنفسها والاكتفاء دائما بما هى فيه .. ولكنها لا تلبث أن تقاوم هذه الأحاسيس التى تشتد بها حتى تتغلب عليها وترفض الاستسلام لها .. يكفيها بناتها ..

ثم حدث أن فاجأها زوجها بعد كل هذه السنوات بأنه استطاع أن

يستأجر شقة رائعة مطلة على النيل فى حى جاردن سيتى وسط القاهرة .. وسينتقلون إليها .. كل حياتها ستنتقل إلى وسط القاهرة .. وفرحت .. إن متاعب حمل بناتها إلى المدرسة والعودة بهن ستخف كثيرا .. ثم إنها ستكون قريبة من أمها وأختها وصديقتها هدى وتراهن أكثر مما تراهن وهى تقيم بعيدة عنهن .. ولعل ما دفع زوجها إلى الانتقال للسكن وسط القاهرة أنه أصبح عجوزا .. إنه الآن تعدى الخامسة والأربعين من عمره .. وأصبح لا يحتمل المشوار الطويل حتى الحرانية ولا قضاء اليوم كله فى القاهرة إلى أن يعود إلى بيته .. أو ربما قرر أن يبيع أرض الحرانية بعد أن ارتفع ثمنها عشرات الأضعاف .. وقد باعها فعلا بعد شهور .. وكان قد وقف معها ليتركوا الحرانية بسرعة .. وتركتها سعاد ولا يعكر فرحتها إلا أنها ستترك الحديقة التى كانت جنة تهدأ فيها لحظات من يومها .. وستترك هوايتها الوحيدة وهى تربية الفراخ والبط والديوك الرومى أيضا .. ولكن لعلها ستستريح من لحظات إحساس غريب كانت تمر بها بسبب هذه الهواية .. إحساسها كلما ذبحت فرخة أو بطة لإعدادها للطعام بانقباض حزين فى صدرها يكاد يدفعها للبكاء لأنها تذبح مخلوقا قامت بتربيته ورعايته منذ ولد .. وكأنها أم هذه الفراخ والديوك وهذا البط ..

وقد تغيرت كل حياتها منذ انتقلت لتعيش فى جاردن سيتى وسط القاهرة .. كأن الحياة قد اتسعت .. إنها تخرج من البيت كثيرا لتقوم بزيارات أو لتطوف بمحال الشراء .. وهى ترى وتتعرف إلى ناس أكثر يملأون حياتها بضجيج يسليها ويملأ كل أيامها .. وكان زوجها قد قرر أن ينقل دعوة أصدقائه لغداء كل يوم جمعة فى فيلا الحرانية إلى دعوتهم مساء كل يوم خميس لتناول العشاء .. ودعوات العشاء تثير ضجيجا وتملأ الساعات أكثر من دعوات الغداء فى الحدائق الهادئة .. وخصوصا أن كل أصدقاء زوجها يدمنون تناول الخمر .. أصبحت هذه الدعوات ليالى صاخبة ..

والتقت فى إحدى هذه الدعوات لأول مرة بمحمود عبد العزيز .. وكان مدعوا مع زوجته ..

ومنذ اللحظة الأولى وجدت عينيها تتعلقان به .. إنه وسيم وسامة بسيطة وليست وسامة زاعقة .. ولونه أسمر بسيط يختلط بأبيض بسيط .. وقامته رشيقة فى بساطة .. ليس طويلا ولا قصيرا .. ولا رفيعا ولا سمينا .. وهو بسيط حتى فى حركاته وكلامه .. إنه يتحرك كأنه ليس غريبا عن البيت الذى يدخله لأول مرة .. ويتكلم فيروى حكايات أو يعرض آراء تثير اهتمام من حوله ويضحكون معه أو يحزنون معه .. كل ذلك فى بساطة كأنه لا يحس بأن فيه شيئا يتباهى به أمام الناس ويتميز به عنهم .. وكل ذلك بعكس ما أحست به نحو زوجته شريفة .. ليس فيها شىء بسيط .. إنها أطول منه وأكثر امتلاء .. وهى ليست جميلة جمالا زاعقا ولكنها جميلة .. وعيناها تتحركان كأنها تدرس كل لقطة تقع عليها فى كل لمحة .. وتتحدث مع كل الناس ولكن حديثها متحفظ كأنها تفتعله لتغطى به ما تفرضه أصول الوجود فى المجمتع .. وهى كبيرة .. لعلها فى مثل سن زوجها .. وهو وإن كان قد فقد ملامح الشباب إلا أنه يبدو أصغر من زوجها عزيز ..

ولا تدرى ما الذى جذبها إليه من النظرة الأولى .. لعله يمثل الشخصية التى تتجاوب مع شخصيتها .. تتجاوب حتى بمجرد لقاء صدفة .. وقد كانت تسمع عنه قبل أن يصادق زوجها .. تسمع عنه كإحدى الشخصيات التى تعيش فى هذا المجتمع .. وقد لمحت صورته فى بعض المجلات التى تنشر صور مختلف المجتمعات .. ولم يكن ما تسمعه أو ما تراه من صوره يثير فيها أى اهتمام خاص .. كل شىء بدأ بعد اللقاء .. وقد تنبهت إلى أنها تكثر من تتبعه بعينيها .. حتى أنها أهملت فى الترحيب بزوجته فكانت تضغط على نفسها وتقوم لتجالسها وترحب بها .. إنها منذ اللقاء الأول وهى لا تستطيع أن تكون مرتاحة معها أو إليها .. وتعود وتتبعه بعينيها وقد التقت بعينيه مرات .. ولم تر فى عينيه هذا الانبهار بجمالها الذى تعودت أن تراه

فى عيون الرجال عندما تلتقى بهم لأول مرة .. ولكنها كانت ترى تحت عينيه ابتسامة خفيفة تحس أنها لها وحدها .. كأنه يائس منذ البداية من الوصول إلى أكثر من هذه الابتسامة .. ولم يتعمد طوال السهرة أن يقترب منها ليخصها بحديث ولكنه ساعة تناول العشاء .. وكان عشاء على بوفيه يلتف حوله المدعوون وقوفا .. وجدت نفسها تقترب منه ووجدته فى نفس اللحظة يقترب منها .. وبدأ يحدثها حديثا عاديا يروى لها فيه حكاية ذكره بها طبق الجمبرى المقدم مع العشاء .. ولعله اكتشف من ليلتها أن ليس من طبيعتها أن تتكلم طويلا أو تجيد الكلام ولكنها كانت تستمع إليه وعلى شفتيها ابتسامة واسعة أوسع من الابتسامة التى تعودتها .. وهو يحدثها مكتفيا منها بهذه الابتسامة ردا عليه ..

وبعد أن انتهت الدعوة وألقت نفسها لتنام مرت بها لحظات كانت تجد نفسها تتذكر كلمة أو حركة من كلمات وحركات محمود وتبتسم لها كأنها تبتسم له ..

وقد أصبح محمود مواظبا على تلبية دعوات زوجها مساء كل خميس من كل أسبوع .. وهو كان يدعوهما إلى ولائم يقيمها فى بيته .. ولم تكن تسعد بدعواته رغم حرص زوجها على تلبيتها .. إن زوجته وهى صاحبة الدعوة تكون أقوى فى شخصيتها .. شخصية ست البيت .. حتى أنها كانت تخاف هذه الشخصية وتتعمد الابتعاد عنها وتعود إلى طبيعتها المنزوية الصامتة .. وتجد نفسها حتى كأنها تخاف تتبع محمود بعينيها كما تعودت منذ التقت به .. إنها تحس بأنها لن تكون أبدا صديقة لشريفة صداقة حلوة كاملة .. بل إنها بدأت تقدر أنه حتى صداقة زوجها عزيز مع محمود ليست صداقة حلوة كاملة .. إنها تحس رغم كثرة الدعوات المتبادلة أن زوجها لا ينطلق مع محمود انطلاقه مع بقية أصدقائه .. لم يكن بينهما نفور أو تحفظ ولكن ليس بينهما انطلاق .. حتى بعد أن يشربا الكؤوس لا تستطيع أن تصل بهما إلى الانطلاق .. وربما كان حرص كل منهما على دعوة

الأمر هو مجرد اعتراف بقيمة كل منهما فى هذا المجتمع الذى يضمهما ..

وقد مر عام وإحساس سعاد بمحمود لا يتغير وخصوصا عندما يكون مدعوا إلى بيتها .. وإن كان هذا الإحساس يشتد فى لحظات تتمنى خلالها أن تراه .. ولكن لا شىء أكثر من هذا اللقاء المتباعد خلال الدعوات .. ورغم أنها تحس بإحساسها نحوه فهى لا تعرف إحساسه هو نحوها .. إنه دائما مكتف بابتسامتها الواسعة التى يثيرها على شفتيها ودون أن يحاول حتى استغلال هذه الابتسامة ..

وكانت صديقتها هدى قد استطاعت أن تحصل على الطلاق وتعيش وحدها فى البيت مع ابنها وابنتها .. استراحت من زوجها وبدأت تتمتع بكل حريتها .. وهى تعرف أن صديقتها سعت إلى الطلاق دون أن يكون لها رجل آخر تتزوجه ويعوضها عن الزوج الذى طلقته .. كل ما كانت تريده هو أن ترتاح من متاعب هذا الزوج وتنطلق حرة .. وهى تحسدها .. كيف تستطيع هى الأخرى أن تستريح وتنطلق .. إنها لم تحاول حتى الآن .. إنها لا تستطيع أن تتصور نفسها بعيدة عن متاعب زوجها ولا كيف تنفرد بحياتها وتتحمل مسئولية نفسها وحدها .. إن هذه هى الحياة .. حياتها .. ليس لها نصيب فى حياة بلا متاعب ..

وفى يوم كانت سعاد عند صديقتها وبدأت وهى تفتعل حديثا عاديا تسألها عن محمود دون أن تتركها تلمح ولو من بعيد إحساسها به ..

وقالت لها هدى ومن عادتها أن تنطلق دائما عندما تتحدث عن الرجال :

– معروف عنه أنه مهذب .. ولا يتعمد البصبصة .. ولا يغازل .. ولكن له حكايات .. لعلها حكاية واحدة كانت يوما ما حديث كل الناس .. لقد وقع فى حب واحدة واستسلم لهذا الحب سنوات .. وأصبحت هذه الواحدة

تعرف به وهو يعرف بها .. ثم انتهى كل شىء وعرف الناس أن هذه الواحدة قد تزوجت غيره ..

وقالت سعاد وكأنها ليست راضية عن هذه النهاية بين محمود وحبيبته :

– ولماذا لم يتزوجها هو ..

وقالت هدى ضاحكة :

– لا أدرى لماذا .. ربما لأنه رجل عاقل يغلبه عقله على عواطفه .. اسمعى .. سأحدثه فى التليفون .. إنى معجبة به .. إن دمه خفيف وكلامه عسل .. وقد حاولت مرات أن أغريه بإعجابى عندما كنت أراه عندكم .. ولكنه كان يكتفى بكلامه اللذيذ المسلى .. وكنت أنساه إلى أن ذكرتنى به .. إنى أعرف نمرة تليفونه .. لقد بحثت عنها يوما ثم عدت ونسيت أن أطلبه ..

وشدت هدى فورا من جانب التليفون « بلوك نوت » تزدحم أوراقه بعشرات الأرقام كلها مسجلة بخط يدها .. وأخذت تقلب فى الأوراق إلى أن وضعت أصبعها على رقم ثم رفعت سماعة التليفون وأدارت الرقم .. ثم قالت وقد رد عليها :

– أنا هدى .. لعلك تعرفنى .. إننا نلتقى عند صديقتى .. و ..

لقد قالت له اسمها .. وليس كما تعودت أن تقول اسما كاذبا كلما لعبت بالتليفون .. لعلها جادة هذه المرة وتريد محمود فعلا ..

ووجدت سعاد نفسها وبلا وعى منها تخطف سماعة التليفون من يد هدى وتقول فيها كأنها تشخط فيه وتثير خناقة :

– من فضلك .. إذا كنت تريد التحدث فى التليفون فحدثنى أنا ..

وسمعت صوته كأنه يصيح مبهورا :

– أنت .. سعاد .. مستحيل .. غير معقول .. لقد كنت دائما أبعد من آمالى ..

لقد عرفها من صوتها دون أن تقول له اسمها .. كأنه كان يعيش هذا الصوت وهو بعيد عنها .. وقالت وقد أفاقت من إحساسها وبدأ صوتها يهدأ ويهدج :

– ما الذى جعلك تبعدنى كل هذا البعد ..

وقال بصوته المبهور :

– منذ رأيتك وأنا أحس بك فى قمة المستحيل وكنت أقاوم أى لمحة أمل تخطر على بالى ..

وارتبكت كيف ترد عليه ثم قالت كأنها تهرب من أن تعترف له :

– إنى أتكلم جادة يا محمود .. إذا أردت أن تتحدث فى التليفون حدثنى أنا ..

وقال وكأنه يتعلق بها قبل أن تهرب منه :

– كيف أتصل بك ؟

وقالت بعد برهة فكر :

– سأتصل بك أنا .. أوروفوار ..

وسمعته يرد كأنه يتنهد :

– أوروفوار .. ولو أنى لا أصدق أننى ولا أصدق نفسى .. كأنى حلقت فى أوهام ..

وعادت تكرر :

– أوروفوار ..

ثم ألقت سماعة التليفون والتفتت إلى هدى وعيناها مرخيتان وقالت بصوت مرتعش خجول :

– اتركى لى محمود يا هدى ..

وقالت هدى وهى تضحك ضحكة مفتعلة والدهشة تكسو وجهها منذ بدأت سعاد تتكلم فى التليفون :

– وقعت .. مبروك يا عروسة .. يا عروسة الحب .. ولكن اسمعى .. أنت عبيطة .. وهذه أول مرة يجذبك الحب .. ولا تعرفين ولا تفهمين منه شيئا .. أريدك أن تقولى لى أولا بأول ما يجرى بينك وبين محمود ..

وقالت سعاد وهى تضحك ضحكة خافتة مفتعلة :

– ماذا سيكون بينى وبينه .. إنها مجرد تسلية كما تتسلين أنت بحديث التليفونات .. وكل ما جذبنى إلى محمود هو التسلية ..

وقالت هدى وهى تنظر إلى سعاد بعينين مشفقتين كأنها تخاف عليها فعلا :

– حتى التسلية .. أبلغينى عنها أولا بأول ..

وقالت سعاد من خلال ضحكتها المفتعلة :

– لا تخافى على .. أنا لست مجنونة .. وقد اخترت محمود لأنه لم يبدأ وأنا التى بدأت .. ولأنى بدأت فلن أخرج عن حدود التسلية .. اطمئنى ..

وتركت سعاد بيت صديقتها وعادت إلى بيتها ووجدت نفسها تجلس مباشرة بجانب التليفون .. لا .. لا يصح أن تحادث محمود الآن .. سوقى التقل يا بنت ولا تتهاوى عليه .. وقامت من جانب التليفون تدور وتلف فى

البيت وتشغل عقلها وأصابعها بكل ما يخطر لها .. ولكنها تعانى من مقاومة التليفون .. إنها ليست مجنونة .. إنما تحس بأنها مجنونة فعلا .. ولكنها تقاوم جنانها .. وقد ظلت تقاوم حتى أخذت المقاومة قدرتها على النوم .. لم تنم ..

وفى اليوم التالى حادثته فى التليفون .. إنها تحس كأنها تطير معه فوق السحاب .. تحس أنها وجدت حياتها وبدأت تعيش .. وحديثه حلو لا يريد أبدا أن ينتهى .. وقد كانت تحادثه مرة فى اليوم .. وأصبحت تحادثه مرتين .. ثم ثلاثا .. ثم أربعا .. وكانت تحادثه وزوجها خارج البيت وبناتها فى المدرسة فأصبحت تحادثه حتى وزوجها وبناتها فى البيت .. وجدت الوسيلة التى تستطيع بها أن تختلى به وبالتليفون .. وقد أعطاها كل أرقام تليفوناته وكانت تحفظها دون أن تكتبها .. حتى وهو فى بيته ومعه زوجته كانت تستطيع أن تحادثه .. حتى عندما كان يدعى فى الخارج كان يعطيها نمرة التليفون الذى يذهب إليه لعلها تريد التحدث إليه .. ولكنه كان فى كل حديث يريد لقاءها .. معظم الحديث ينصب على الإلحاح فى طلب لقاء .. وهى مترددة .. وترددها يضعف .. ورغبتها فى لقائه تعصرها .. أين يلتقيان .. إن كلا منهما متزوج ولا يستطيعان اللقاء فى مكان عام أو تحت شجرة فى شارع هادىء .. ليس لهما إلا أن يلتقيا فى بيت لتتستر عليهما الجدران .. وهو يقول إن لديه البيت الذى يلتقيان فيه .. لديه شقة فى الزمالك .. وقد قالت لها صديقتها وهى تستغيث بها لتريحها من ترددها :

– إن اللقاء سيتم مهما حاولت المقاومة .. وما يحدث خلال اللقاء هو ما تريدينه أنت لا ما يريده هو .. إن المرأة أقوى من الرجل ولا يستطيع أن يأخذ منها أكثر مما تعطيه .. واسألينى أنا ..

وكان قد مضى شهران فى حديث التليفونات إلى أن خرجت للقائه .. ودخلت الشقة ..

• •

وقبل أن ترد الأم كانت سامية قد خرجت من غرفتها وهجمت على سهير وأمسكت بذراعها تضغط عليها بعنف وهى تصيح :

- كيف تتصلين بأحمد دون أن أسمح لك ..

ونظرت سهير فى عينى أختها كأنها تهددها وقالت فى تحد :

- اتركى ذراعى أولا وإلا فلن يحدث طيب ..

ورفعت سامية يدها عن ذراع أختها كأنها خافتها فعلا واستمرت تصيح :

- تكلمى .. لماذا تحادثين أحمد فى التليفون ..

وقالت سهير فى بساطة وهى تبتسم ساخرة :

- وماذا فيها .. صديق أختى هو صديق العائلة ..

وصرخت سامية :

- لا .. صديق أختك يكون صديقها وحدها ..

وقالت سهير وهى أكثر سخرية :

- خلاص .. اطمنى .. سأتركه لك لتشربيه وحدك ..

وتركتهما سهير بإهمال ودخلت غرفتها .. وسقطت سامية جالسة بجانب أمها قائلة :

- أيعجبك هذا يا ماما ..

وقالت الأم وهى تتنهد :

- ماذا أفعل يا ابنتى .. إنى منكوبة بأختك سهير ..

وساد الصمت بينهما فترة إلى أن قالت الأم وقد هدأت تنهداتها :

- قولى لى ياسامية .. ألم يحدث بينك وبين أحمد جديد ..

وقالت سامية وقد هدأت هى الأخرى :

- ماذا تقصدين يا ماما ..

وقالت الأم بسرعة :

- ألم يبدأ بينكما كلام عن المستقبل ..

وقالت سامية وهى تبتسم ابتسامة صغيرة كأنها فهمت ما تقصده أمها :

- أى مستقبل ؟

وقالت الأم ملهوفة :

- مستقبلكما معا .. إلى أين سينتهى حبكما ..

وقالت سامية وهى تضحك :

- تقصدين الزواج .. لم يحن الوقت بعد يا ماما .. ولا أنا ولا هو يخطر على بالنا موضوع الزواج ..

وقالت الأم فى دهشة مرة :

- كيف يا ابنتى .. إنه سيتخرج هذا العام ويصبح مهندسا ويصبح فى حاجة إلى الزواج ..

وقالت سامية من خلال ابتسامتها :

- ولكنى سأتخرج بعد أربع سنوات .. وسأكون مهندسة أنا أيضا ..

وقالت الأم فى صوت غاضب :

- هل تنتظرين كل هذه المدة ..

وقالت سامية كأنها تحادث نفسها :

- إنى قد لا أكون فى انتظار التخرج ولكنى أنتظر أن أكون أنا وأحمد فى حاجة إلى الزواج ..

وصاحت الأم :

- إن الرجل لا يحس أبدا بحاجته إلى الزواج مادامت البنت معه بلا زواج ..

وقالت سامية فى رقة كأنها تشفق على أمها :

- هذا كلام زمان .. أو كلام ينطبق على البنت الهايفة المجنونة التى تعطى كل شىء بلا زواج .. اطمئنى يا ماما .. إن ابنتك عاقلة وتفهم كل شىء .. وأنا واثقة أنى سأصل بأحمد إلى حالة احتياجه للزواج مادمت قد أصبحت أنا أيضا فى حاجة إليه ..

وقالت الأم وكأنها مغتاظة من ابنتها :

- قد يتركك قبل أن يصل إلى هذه الحالة ..

وقالت سامية وهى تتنهد :

- إن الطلاق فى الحب أرحم من الطلاق فى الزواج .. على الأقل لا يكون طلاقا ينصب على أدمغة أبناء .. وأنت تعرفين يا ماما ..

وأحست سامية فورا بأنها أهانت أمها بكلمتها الأخيرة فقامت تقبلها على رأسها وهى تقول :

- اطمئنى يا ماما .. مستقبلى مضمون ولا تشغلى بالك به ..

ثم جرت من أمامها ودخلت غرفتها وراء سهير .. إنها غرفة واحدة تضم البنات الثلاث ..

وعادت سعاد الأم إلى حيرتها وقد سقط رأسها على صدرها .. متى تتزوج بناتها .. وكيف .. ومتى تطمئن إلى أن ماضيها لن يعرقل طريقهن ..

(٥)

وكانت سعاد أحيانا تثور على اتهامها لنفسها بأن لها ماضيا يضيع مستقبل بناتها .. أى ماضى هذا الذى تخافه .. إنها لم تكن امرأة من نساء الشارع .. ولم تكن ملكا لكل الرجال .. كل ماضيها لم يشهد إلا رجلا واحدا بعد زواجها .. لم يشهد سوى محمود .. ومحمود لم يكن مجرد رجل .. إنه المغيث المجير الذى أرسله الله لها لإنقاذها من زوجها .. ولو لم يكن هو محمود لكان رجلا آخر فقد كانت قد وصلت إلى الحالة التى لا تستطيع فيها مزيدا من احتمال زوجها .. ولكن الحمد لله أنه محمود .. إنه فعلا ملاك .. لم يكن أبدا مجرد رجل يشتهى امرأة .. ولم يقدم على مغازلتها كما يقدم بقية الرجال .. إنها هى التى بدأت .. حتى القبلة الأولى لم تكن قبلته وكانت قبلتها هى ..

وطافت على شفتيها ابتسامة وهى تتذكر القبلة الأولى ..

كانت ذاهبة إلى الشقة التى يلتقيان فيها لأول مرة .. وكانت طول الطريق ترسم ما يمكن أن يجرى بينهما داخل هذه الشقة .. لقد قالت لها صديقتها هدى إن المرأة هى التى تقرر ما يجرى لا الرجل .. وقد قررت ألا يجرى بينها وبين محمود سوى الكلام .. وقد كان كلاما طويلا حلوا كأنه كلام يرسم لكل الدنيا صورة جديدة رائعة هادئة لم ترها من قبل .. وكانا يتكلمان وهما جالسان على أريكة واحدة ويده تحتضن يدها وإن كانا متباعدين .. إلى أن قال لها فى صوت ينبض بصدق عواطفه :

قال بنفس البساطة :

– كانت فى حاجة لأن تتزوج ..

وعاجلته فى غيظ أشد :

– ولماذا لم تتزوجها أنت مادمت كنت تحبها ..

وقال وهو ينفث دخان سيجارته :

– الزواج حالة والحب حالة أخرى .. الزواج حالة تشمل المجتمع كله الذى أعيش فيه .. وتشمل التفاصيل الدقيقة لكل ما يعيشه الإنسان .. والحب حالة تجمع بين اثنين .. رجل وامرأة .. وهى حال تجعلهما يكتفيان هما الاثنان أحدهما بالآخر دون أن يحتاجا إلى شىء آخر مما تقوم عليه الحياة .. ولم أكن أستطيع أن أستغنى عن حالة الزواج التى أعيشها ولا أستطيع أن أعيش بلا حالة حب .. فكنت أجمع بينهما .. ولكنها لم تستطع أن تستغنى عن حالة الزواج فانتقلت إليها وهجرت حالة الحب ..

وقالت من خلال غيظها :

– ولماذا لم تحاول منذ البداية أن تجمع بين الحب والزواج فى حالة واحدة ..

وقال كأنه يتحسر :

– هذا ما فعلته .. لقد كنت فى حالة حب مع زوجتى منذ كانت طالبة معى فى الجامعة .. ولم أتركها تتم تعليمها لأتزوجها .. ولكنها بعد ذلك بدأت تنفصل حالة الزواج عن حالة الحب .. وقد عشت طويلا .. أكثر من خمسة عشر عاما دائمة أعانى فيها تباعد الحالتين يوما بعد يوم .. إلى أن التقيت بالحب الذى سبق حبك ..

وصاحت سعاد يومها :

– مادمت قد احتملت حالة الزواج كل هذه المدة فلا شك أنك سعيد بها ..

ونظر إليها كأنه يلومها على صيحتها وقال :

– إنها ليست سعادة ولكنها مسئولية .. وهى مسئولية تؤكد رضائى عن نفسى ولا يمكن أن أتخلى عنها أو أفرط فيها .. وكذلك الحب .. إنه ليس مجرد هناء عاطفى ومتعة .. إنه مسئولية .. وأنا لأنى أحبك فإنى أحس بمسئوليتى عنك .. وهو إحساس يعوضنى عن المزيد الذى أتمناه ولعلك أنت أيضا تتمنينه ..

وقد فهمت من كل هذا الحديث أنه لن يتزوجها .. وربما احتملته يومها لأنها هى الأخرى كانت فى حالة زواج من عزيز .. كلاهما فى حالة واحدة .. أو فى حالتين متساويتين .. حالة زواج وحالة حب .. ولكنها بعد أن بدأت تفكر فى الطلاق .. بدأ يخطر على بالها .. إذا كانت من سبقتها فى حب محمود لم تستطع أن تتزوجه فلماذا تفترض أنها هى الأخرى لا تستطيع .. ولعله يحبها أكثر منها .. إنها لا تستطيع أن تتصور حبا أكبر من هذا الحب الذى يضفيه عليها .. ولا تستطيع أن تتصور أن كل هذا الحب كان يمكن أن يضفيه على امرأة قبلها حتى على زوجته التى يقول إنه تزوجها عن حب .. إنه لن يخذلها أبدا إذا أرادت منه الزواج .. إنه يقول إن الحب مسئولية والمسئولية ستدفعه إلى الجمع بين الحالتين إذا وجد نفسه مضطرا .. حالة الحب وحالة الزواج ..

وفى يوم جمعت ثيابها فى حقيبة وخرجت من بيتها إلى بيت أمها .. وأمها لم تفاجأ بها .. كانت قد بدأت الشكوى لها منذ شهور .. وهى نفسها كانت منذ سنوات وهى لا ترتاح لعزيز زوج ابنتها .. تكرهه وتسخط عليه لأنه لا يستسلم لها ولا يحترمها ولا يهمه أن تغيب عنه مهما غابت .. ابتسمت سعاد ابتسامة حزينة وهى تدخل بيت أمها .. لقد كانت دائما تتمنى

ألا تكون حياتها كحياة أمها .. ولكن ها هى تعيش نفس الحياة .. تجد رجلا آخر غير زوجها وتطلب الطلاق كما فعلت أمها ..

وكانت قبل أن تخرج من بيتها قد جمعت بناتها وقالت لهن بصراحة إنها ستترك أباهن .. ولن تعود إليه .. ووافقت البنات فورا رغم أنهن كن لا يزلن صغيرات .. لم تكن ابنتها الكبرى سهير قد تجاوزت الثالثة عشرة .. ربما أحسسن يومها أنهن مقبلات على لعبة جديدة .. كأن حياتهن لعبة .. أو ربما كن يعذرن أمهن فهن يشعرن بأن أباهن لا يطاق .. لا هن يطقنه ولا أمهن .. وقد قالت لهن سعاد يومها نفس ما قالته لها أمها عندما تركت بيتها تطلب الطلاق من أبيها .. إنها ستتصل بهن كل صباح بالتليفون لتعد معهن ما يحتجنه وما يحتاجه البيت .. وهى لا تستطيع أن تعتمد على ابنتها سهير لأنها لاهية عن كل شىء وتكره حمل أى مسئولية .. وابنتها الثانية سميرة جادة ولا تقبل أن تخرج عن اهتمامها بعلومها .. واختارت ابنتها سامية لتعتمد عليها رغم أنها لم تكن تتجاوز العاشرة من عمرها .. كما اعتمدت عليها أمها هى رغم أنها هى الأخرى كانت فى العاشرة ..

أما حبيبها محمود فقد ثار .. إنه لا يريدها أن تترك بيتها أو تطلب الطلاق .. وقالت له وهى تحاول أن تواجه ثورته فى هدوء :

– لا تخف .. إنك لن تتحمل أى مسئولية ..

وصاح محمود :

– أنا لا أخاف المسئولية .. ولكنى أخاف على حبنا .. لقد بدأنا الحب وعشناه وأنت وأنا فى حالة واحدة .. أنت متزوجة من غيرى وأنا متزوج من غيرك .. ولكن الآن .. عندما تصبحين أنت مطلقة وأنا متزوج فكيف يعيش حبنا .. وأنت تعلمين أنى لا يمكن أن أطلق يوما لأكون فى حالتك ..

وصرخت سعاد :

– أنا لم أطالبك بطلاق زوجتك .. وأعلم أنك تحتمل الزواج .. ولكنى أنا لا أحتمله فدعنى أطلق ..

وقد ظل محمود رافضا .. ولكن بعد أيام استسلم لكل ما تتخذه من إجراءات الطلاق .. لقد أصبحت وهى فى بيت أمها أكثر حرية وتعطيه أكثر ..

ولكن زوجها عزيز ليس كريما مهذبا كأبيها عندما طلق أمها لمجرد أنها تريد الطلاق حتى لو كان هو لا يريده .. إن عزيز يصر إصرارا عنيفا على عدم الطلاق .. ربما لأنه ليس من طبيعته أن يعطى ويحس بالمهانة عندما يفرض عليه أحد العطاء .. إنه لا يحبها ولكنه لا يقبل منها أن تتركه .. هو وحده صاحب الحق فى أن يتركها .. حتى بعد أن عرف أن هناك رجلا دخل حياتها .. إنه من هذا النوع الغريب من الرجال .. يقبل أن تكون زوجته لرجل آخر وهى تحمل اسمه دون أن يصون كرامته وينزع اسمه عنها ويطلقها .. ولكن .. ربما كان عزيز معذورا فى الإصرار على عدم الطلاق .. إنه يخاف على بناته دون أمهن .. من يتولى تربيتهن ورعايتهن .. أو ربما يخاف أن يتحمل مسئوليتهن وحده .. كما يخاف أن يتركهن لأمهن وحدها وقد فقد ثقته فيها وفى شرفها .. ثم كيف تستمر حياة هذا البيت .. لعل الحل الوحيد هو أن تعود زوجته إلى بناتها وإلى البيت حتى لو اضطر أن يتحمل الغفران عن خطيئتها ..

ولكنها لن تعود أبدا .. إن الزوجة التى خانت إذا عادت إلى زوجها فكأنها تلقى بنفسها فى الجحيم ..

وظل زوجها عزيز مصرا على عدم الطلاق ..

حتى بعد أن لجأت إلى المحاكم لم تستطع أن تحصل على الطلاق ..

وهى تعيش سنوات غريبة ..

• •

ودق جرس التليفون فخرجت سعاد من ذكرياتها ورفعت السماعة .. إنه رجل يطلب الحديث إلى إبنتها سميرة .. إبنتها الجادة العنيفة فى جديتها والمنعزلة داخل كتبها .. يطلبها رجل .. إنها المرة الأولى التى يطلبها فيها رجل ، بل إن التليفون لم يكن يطلبها إلا نادرا حتى من صديقات بنات .. وقال الرجل اسمه .. عمر بليغ حشمت .. والتفتت سعاد إلى ابنتها والدهشة فى عينيها :

– سميرة .. واحد يريدك .. اسمه عمر ..

وقفزت سميرة نحو التليفون والتقطت السماعة من يد أمها كأنها تخطفها .. وأمها تراقبها .. إن ابنتها تتكلم فى التليفون بلهجتها الجادة ولكن على شفتيها ابتسامة ضعيفة كأنها تقاوم حتى لا تكون ابتسامة واسعة .. وتكلمت قليلا ثم التفتت إلى أمها وهى تعيد السماعة قائلة :

– واحد سيأتى لزيارتى الآن يا ماما ..

وقالت الأم بدهشة :

– واحد .. من يكون ؟

وقالت سميرة بصوتها الجاد القاطع :

– معيد عندنا فى الكلية .. الأستاذ عمر بليغ حشمت .. كنت قد طلبت منه مذكرات فاتتنى وسيحملها إلى ..

وقالت الأم كأنها تتجرأ على مناقشة ابنتها بعد أن عودتها على ألا تناقشها :

– ولماذا لا يعطيها لك وأنتما فى الجامعة ..

وقالت سميرة وهى تنظر إلى أمها كأنها تأمرها بأن تكف عن المناقشة :

– إنى متعجلة عليها .. وغدا الجمعة إذا كنت تذكرين .. وأفضل ألا يستقبله أحد منا معى .. إنها زيارة عمل .. شغل .. دراسة ..

وصاحت الأم ولعلها المرة الأولى التى تصيح فيها فى وجه ابنتها سميرة :

– مستحيل .. مادام هناك رجل يدخل البيت فيجب أن أكون أنا موجودة ..

وقالت سميرة فى سخط متأفف :

– هذه مظاهر .. ولكن لا مانع .. ولا تحاولى أن تسأليه عن أصله وفصله كعادتك واتركينا نعمل .. ثم لا أريد أن تظهر أختاى حتى لا تكون حفلة نحتفل فيها بضيف ..

وقالت الأم فى استسلام :

– سأنبه عليهما ..

وتركتها سميرة ودخلت الغرفة .. غرفة البنات .. ولم تسمع سعاد ماذا قالت لأختيها فقد كانت تعد لاستقبال الضيف .. ولكن لاحظت عندما عادت إليها ابنتها سميرة أنها اهتمت أكثر من عادتها باختيار ثوبها وتلوين وجهها بالألوان الهادئة التى تبدو وكأنها طبيعية وقد ركزت النظارة فوق عينيها ..

وجلست سعاد تنتظر الرجل القادم بلهفة .. لا يمكن أن يكون قادما لمجرد تسليم أوراق .. لابد أن هناك شيئا أقوى يدفعه إلى المجىء ويدفع سميرة أن تقبل أن يجىء .. حتى لو كان شيئا لم يتصارحا به بعد .. إنه أول رجل تسمع عنه فى حياة سميرة ..

وجاء .. والأم تشربه بعينيها وهى تصافحه .. إن شكله مقبول .. وتبدو على وجهه ملامح الجدية .. ليس كبقية الشبان الذين تقفز على

شفاههم ابتسامات جريئة وتطل من عيونهم نظرات وقحة .. وحتى الزى الذى جاء به .. إنه بدلة كاملة وقميص وكرافت كأنه جاء فى مهمة رسمية .. ليس كأحمد صديق سامية الذى جاء لزيارتها بالقميص والبنطلون وصدره يكاد يكون عاريا .. ولا تدرى لم ذكرها وجهه بملامح زوجها القديم أبى البنات .. لعله هو الآخر من أصل فلاحى .. وربما كانت هذه الملامح الفلاحى هى التى جذبت سميرة إليه ، فكل بنت تتأثر فى اختيار رجلها بملامح أبيها .. وقد لاحظت وهو يصافحها ورغم جدية ملامحه أن هذه الملامح تهتز كأنه مرتبك .. ولعل فى هذا ما يطمئنها فهو ارتباك يدل على أنه مهذب ولم يتعود زيارة البنات .. ولكن من يدرى .. لعله ارتبك لأنه لم يكن ينتظر أن يلتقى بسميرة وأمها معها .. إنه جاء لها وحدها .. لينفرد بها .. من يدرى ..

واختارت سميرة أن يجلسا خلف المكتب وفتحا الأوراق وبدآ يتحدثان حديثا لا تفهم منه أمها شيئا .. حديث حول ما يدرسانه .. وقامت الأم وتركتهما لتعد الشاى للضيف .. ولمحت وهى فى طريقها إلى المطبخ ابنتها سهير وهى تطل من ثقب الباب .. إنها لا تستطيع أن تنتظر حتى تراه فى مناسبة عادية .. تريد أن تكتشف بسرعة هل يستحق إغـراءه أو لا يستحق ..

وعادت إليهما وقدمت الشاى ثم جلست على مقعد مريح فى آخر الغرفة والتقطت خيوط التريكو وبدأت تشغل أصابعها به .. ولم تحاول أن تتابع ما يدور بينهما من كلام .. ولكنها كانت ترفع عينيها بين كل حين لتعود وتتفحصه أكثر ..

ولم تدوم الزيارة طويلا .. حوالى ساعة .. وقامت سميرة تودعه حتى الباب بعد أن صافح أمها فى أدب كبير .. كأدب أيام زمان .. وقد لمحت الأم ابتسامة ابنتها تتسع أكثر .. وأغلقت الباب وراءه ثم عادت تجلس إلى مكتبها .. وخرجت سهير من غرفتها وقالت لأختها :

- رأيته .. إنه فى درجة مقبول ..

ونظرت إليها سميرة فى احتقار دون أن ترد عليها .. والتفتت سهير إلى أمها قائلة :

- إنى خارجة يا ماما .. لقد كنت حابسة نفسى فى الغرفة بناء على تعليمات ست سميرة حتى لا يرانى ضيفها .. تخاف عليه هى الأخرى .. باى باى ..

وتركتها أمها تخرج دون أن تقول كلمة .. بينما ابنتها سامية فى غرفة البنات ولم تحاول أن تخرج إلى حديث مع أختها وكأنه لم يحدث ما يمكن أن يثير اهتمامها .. وقالت الأم وهى تحتضن ابنتها سميرة بابتسامة كبيرة :

- حدثينى يا ابنتى عن الأستاذ عمر ..

وقالت سميرة كأنها تتهم أمها بالجهل :

- إن اسمه الأستاذ بليغ .. وصحيح أن أول اسمه عمر ولكنه معروف باسم الأستاذ بليغ ..

وقالت الأم كأنها تستجدى ابنتها :

- وماذا تعرفين عنه ..

وقالت سميرة فى زهق :

- أعرف أنه معيد فى الكلية يدرس لنا علم الاقتصاد السياسى .. وأعرف أنه يعد لنيل الماجستير ..

وقالت الأم فى إلحاح :

- وماذا تعرفين عن عائلته ؟

وصاحت سميرة كأنها جرحت :

- مالى ومال عائلته حتى أعرف عنها شيئا ..

وقالت الأم بإلحاحها :

- أقصد ما تعرفينه عن حالته ..

وعادت سميرة تصيح :

- لا أعرف عنه إلا أنه معيد فى الكلية .. وهو معروف بين الطلبة ومحترم .. واسكتى يا ماما .. اعفينى من فضلك من أسئلتك .. إنى أعرف هوايتك لمثل هذه الأسئلة وكنت أخشى أن توجهيها له شخصيا وهو هنا .. ولكن الحمد لله .. كنت عند وعدك .. كفى يا ماما .. دعينى أذاكر ..

وسكتت الأم .. وهى كأنها تلوم نفسها .. لماذا فعلا تسأل كل هذه الأسئلة .. إنها تعرف لماذا تسأل .. إنها ضحية خيالها الذى يوحى إليها بأن كل رجل يتقرب من إحدى بناتها سيتزوجها أو يجب أن يتزوجها .. ولكن لماذا تتخيل أن الأستاذ بليغ يمكن أن يتزوج سميرة .. لماذا لا تصدقها وتعتبر أن كل ما بينهما هو حاجة تلميذة إلى الأستاذ وتطوع الأستاذ لخدمة تلميذته .. وسكتت .. لم تعد تسألها عنه ..

وكانت قد مرت ثلاثة أسابيع عندما جاءت إليها سميرة تقول لها فى لهجة مهذبة لم تتعودها منها :

- اتفقت مع الأستاذ بليغ .. أن يمر علينا ليساعدنى فى دروسى .. إنى تائهة فى علم الاقتصاد السياسى والامتحان قرب .. وسيأتى يوم الخميس ..

وذهلت الأم ووجدت نفسها تعيد ما سبق أن قالته لابنتها سامية عندما فكرت أن تكرر دعوة صديقها أحمد .. وقالت وهى تحاول أن تكون هادئة :

- اجلسى بجانبى يا ابنتى .. إننا نعيش وحدنا .. ثلاث بنات وأم ليس بيننا رجل .. لا أب ولا زوج ولا أخ .. وزيارة غريب لنا أكثر من مرة

تثير كلام الناس وتشهيرهم بنا .. ويقولون إنى فتحت البيت للرجال لأتركهم لبناتى .. لا يا ابنتى .. اعملى معروف ..

وصاحت سميرة بصوتها العنيف :

- لا يهمنى كلام الناس .. إنهم يتكلمون لمجرد شهوة الكلام .. وقد تكلموا عنا وعنك كثيرا وأنت تعرفين ، ثم إن زيارة لبنت وسط عائلتها أرحم من أن يلقاها خارج البيت حتى لو كان يلقاها فى الشارع أو تحت شجرة .. هل تريدين أن أذهب أنا إليه بدلا من أن يأتى إلينا .. إنه يقيم وحده فى شقة فى الجيزة .. هل تريدين أن أتلقى دروسى فى شقته .. واسمعى يا ماما .. إنى مصرة على دعوته ، وتستطيعين أن تطرديه ولكنك ستطردينني معه ..

وابتعدت سميرة عن أمها ودخلت غرفتها ورزعت الباب وراءها فى عنف ..

وسقطت الأم فى أعماق الذهول وأمواج الحيرة تتلاطم بها .. ماذا تفعل .. هل كتب عليها أن تستسلم لابنتها .. ورفعت سماعة التليفون تستغيث بصديقتها الوحيدة هدى .. وأخذت تروى لها الموضوع الذى يحيرها وهى تكاد تبكى .. وقالت هدى فى بساطة :

- وماذا فيها .. أستاذ يدرس لتلميذة .. كل البنات يتردد عليهن الأساتذة فى بيوتهن .. وإذا لم يكن لك رجل فليس هذا ذنب ابنتك .. وحرام أن تكون ضحية لوضع كتب عليها .. ولكن يجب أن تفتحى عينيك على آخرهما .. فسمعة أساتذة الجامعة كسمعة الأطباء .. هذا له التلميذات وهذا له المريضات ..

وطال الحديث حتى اقتنعت سعاد بالاستسلام لابنتها .. وجلست فى انتظاره وهى تتساءل : لماذا يزورهم دائما يوم الخميس ، لقد كانت زيارته السابقة فى يوم خميس أيضا .. كأنه يقضى سهرة نهاية

الأسبوع عندهم بعد أن ينتهى من عمله وبدلا من أن يذهب إلى سينما .. أو كباريه .. ولكن الزيارة لم تعد قاصرة على يوم الخميس .. إنه يأتى مرتين فى الأسبوع .. وأحيانا ثلاث مرات .. لم يبق على الامتحان سوى أسبوعين ..

والواقع أن العائلة كلها بدأت ترتاح لبليغ .. إنه مهذب .. يراعى كل التقاليد وكل الأصول .. وحديثه فى الفترات القصيرة التى يتحدث فيها إلى أفراد العائلة حديث ممتع .. يفكر سعاد بأحاديث حبيبها محمود .. لقد كان أروع ما فيه اختياره لموضوع حديثه أو الموضوع الذى يرد به على سؤال .. وابنتها سهير لم تحاول أبدا تسليط إغرائها عليه .. لا لأنها تغيرت ولا لأنه لا يستحق محاولة الإغراء ولكن خوفا من أختها سامية .. إنها تعلم أن أختها لن تسكت على أى كلمة تقولها أو أى حركة تعرض نفسها بها .. وابنتها سامية تعامله كأستاذ .. لا أستاذ فى العلم بل كأنه أستاذ فى كل نواحى الحياة ..

ولم تكن الفترات التى يجتمع فيها بأفراد العائلة إلا لحظات ثم يتفرغ هو وسميرة للعلم .. والأم سعاد دائما معهما تشغل أصابعها بأشغال التريكو .. وكانت تضيق وتزهق فهى ليست فى حاجة إلى ما تطرزه بالتريكو ولكنها تحتمل فى سبيل ابنتها وفى سبيل المحافظة على مظهر العائلة .. وكأنها تقول لبليغ .. هكذا نحن لا نترك رجلا ينفرد ببنت من بناتنا .. بل إنها كانت تتبع طريقا لمقاومة الإشاعات .. كانت تتعمد كلما التقت بجارة على السلم أو صديقة فى الشارع أو كانت فى زيارة أن تقول .. عن إذنك لقد حان وقت وصول الأستاذ للتدريس لابنتى سامية .. تريد أن تقول لكل الناس إن الرجل الذى يدخل بيتها هو أستاذ يدرس لابنتها وكأنها تنفى ما يمكن أن ينطلق من إشاعات ..

وفى كل تنهداتها تزفر الأمل الذى يعيش معها .. الأمل فى أن يتزوج

ابنتها .. أن يتزوج بليغ من سميرة رغم أنها لا تعرف عنه بعد ما يكفى لتفرح به كزوج .

الأمل فى أن يتزوج بناتها الثلاث حتى تفيق من عقدة إحساسها بأن ماضيها قد يحول دون زواجهن .. الماضى الذى لم تنس منه يوما واحدا رغم كل هذا العمر الذى فات ..

(٦)

وابتسمت سعاد ابتسامة مسكينة وهى تعود إلى ذكرياتها التى لا تزال تعيش فيها يوما بيوم ..

إنها عندما تركت بيتها وبدأت تعيش فى بيت أمها أحست أنها انفردت بشخصيتها وأصبحت فى منتهى الحرية .. بلا زوج .. وبلا مسئولية .. هذا النوع من المسئوليات الذى كان يشغلها طول النهار وطول الليل .. مسئوليات لا تريحها حتى بعد أن تنام .. فهى تحلم بها .. مسئوليات الأم وست البيت .. أما اليوم فهى بعيدة عن بناتها وليست ست البيت .. إنها حرة .. طليقة .. إنها تقوم كل صباح وتتصل ببناتها بالتليفون لتتفق معهن على إعداد ما يحتاجونه وما يحتاجه البيت .. إن ابنتها الصغرى سامية التى تعتمد عليها قد أثبتت أن ذكاءها وشخصيتها أكبر من عمرها .. وتستطيع أن تحقق كل ما يحتاجه البيت وما يحتاجه أبوها .. وبعد ذلك كانت تتصل بالمحامى الذى اختارته .. أو اختارته أمها .. ليحصل لها على الطلاق .. إن كلامه كثير ولا تخرج بشىء .. إنها لا تستطيع أن تطمئن إلى أنها ستحصل على الطلاق .. ولا تستطيع أن تيأس من الأمل فى الطلاق .. ثم فيما عدا ذلك فكل نهارها وليلها لحبيبها محمود .. إنها معه دائما فى التليفون أو فى لقاء أو فى إحساسها به كأن كل دنياها أصبحت دنيا محمود .. وكان محمود يتجاوب معها فى إحساسها كأن دنياه هو الآخر أصبحت دنيا سعاد .. وكان يتحايل على مسئوليات عمله وعلى مسئولياته تجاه زوجته ليلقاها كثيرا .. كلما أرادت وكلما استطاع .. حتى أصبحا فى كثير من الأيام يتناولان الغداء سويا فى الشقة .. وأحيانا العشاء .. وكانت هى التى تقوم

بإعداد هذا الغداء والعشاء ولكنها لم تكن تحس وهى تقوم بالإعداد أنها ست البيت داخل هذه الشقة التى يلتقيان فيها .. إنها فقط تحس بأنها تخدم حبيبها لتهنأ به أكثر .. بل إنهما مرة قررا أن يقضيا الليل كله معا .. واستطاع محمود أن يقنع زوجته بأنه مسافر إلى الإسكندرية بحكم العمل وسيقضى الليلة هناك .. واستطاعت هى أن تقنع أمها بأنها ستقضى الليل مع أختها نجوى .. واستطاعت أن تقنع أختها بالكذب معها .. وقضيا الليلة معا .. وكانت الليلة الأولى التى تحس فيها أنها تنام نوما طبيعيا وعيونها مغمضة فوق صدر محمود .. النوم الذى تنامه كل امرأة كاملة فى عناصر طبيعتها كامرأة .. وإن كان نوما لم يستمر سوى ساعات قليلة .. ساعتين أو ثلاثا .. فهما فى حاجة كل منهما إلى الآخر لا يستطيعان أن يصلا إليها بالنوم .. إن مجرد تبادل الكلام يغنيهما عن النوم .. وكانت تمر لحظات خلال هذا الكلام يحتار فيها إحساس سعاد بين اللوم والاستسلام .. إن محمود لا يحب أن يستمع منها إلى تفاصيل ما وصلت إليه من إجراءات الطلاق .. بل لا يحب أن تفتح له سيرة الطلاق فإذا فتحته استمع فى إهمال وكأنه لا يستمع .. أو تعمد أن يحول الكلام إلى موضوع آخر .. وتحس كأنه لا يريد لها الطلاق .. إنه لا يزال بعد كل ما حدث يريدها زوجة رجل آخر كما أنه زوج لامرأة أخرى .. وكل ما يقبله هو أن تفصل حياتها عن هذا الرجل الآخر لتعطيه أكثر دون أن تطلب الطلاق .. إنه هو له حياة يفصلها عن حياته مع زوجته رغم ذلك فهو لا يطلب ولا يفكر فى الطلاق .. وليس معنى ذلك أنه يختلف فى نسبة حبه لها عن حبها له .. إنه كما قال لها مرة يختلف عنها فى نسبة تحمل المسئولية .. فالزواج مسئولية كما أن الحب مسئولية وتمر بخاطرها كل هذه الخواطر وهما يعيشان الكلام معا ولا تلبث أن تطرد خواطرها وتستسلم له .. تستسلم لما يريد .. ولكن مهما كان ما يريده فهى مصممة على الطلاق .. كيف تعود إلى زوجها عزيز حتى لو ادعى أنه غفر لها .. فالزوج الذى يغفر أقسى وأبشع من الزوج الذى لا يغفر .. إنه يعيش مع الزوجة التى أعادها إليه بدافع الانتقام منها ..

بعدها بدلا من أن يقتلها بالطلاق .. ثم كيف تعود إليه وتظل على علاقتها بمحمود .. العلاقة التى يفرضها الحب .. لا .. مستحيل .. إن مسئولية الحب ليست كما يقول محمود .. مسئولية تفرض عليهما حالتين .. حالة الزواج وحالة الحب .. إن الحب الكامل لا يفترض إلا حالة واحدة .. ومسئوليته تفرض التفرغ له .. أى تفرض التخلص من مسئولية الحالة الأخرى .. حالة الزواج .. تفرض الطلاق من هذه الحالة .. ولذلك فهى مصممة على الطلاق لأنها تحب الرجل الآخر .. وهى واثقة عندما يتم هذا الطلاق أن محمود سيقنع هو الآخر بأنه لا يستطيع أن يعيش إلا حالة واحدة .. حالة الحب .. وهو يحبها وتعطى حبه كل ما تتيحه لها حريتها .

ولكن هذه الحرية المطلقة لم تستمر سوى أيام أو أسابيع .. ثم بدأت أمها تتدخل فى الحد من هذه الحرية .. إنها تعلم أن ابنتها على علاقة برجل آخر .. إنها تسميها علاقة لأنها لا تستطيع أن تعترف بأن ما بينهما حب .. فالحب لا يستطيع الإحساس به والاعتراف به إلا طرفاه .. وهى لا ترفض لابنتها هذه العلاقة .. فهى نفسها فى شبابها ارتبطت بمثل هذه العلاقة وهى زوجة .. واستطاعت أن تطلق زوجها الرجل الأول وتتزوج الرجل الثانى .. وهى تبذل كل ذكائها وكل شطارتها للحصول على الطلاق لابنتها كما حصلت عليه هى .. وكل دوافعها أن تتزوج ابنتها من الرجل الثانى كما تزوجت هى .. ولكن الأم بدأت تلاحظ أن ابنتها منهارة على هذا الرجل الثانى .. وتعطيه بإفراط .. وهذا الإفراط لا يمكن أن يؤدى إلى الزواج .. يجب أن يظل هذا الرجل الثانى محروما إلى أن يضطر للزواج .. ثم إن الأم الآن عجوز وتجاربها فى شبابها أصبحت تتخذ صورا وتفسيرات غير ما كانت عندما كانت تعيش فيها .. إن عقول العواجيز تختلف عن عقول الشباب .. حتى بعد أن يصبح الشاب نفسه عجوزا .. وأقوى ما يسيطر على فكر العواجيز هو أنهم أصبح لهم حق القيادة .. قيادة كل شىء يدور حولهم بحكم تجاربهم وبحكم احترام عمرهم .. لذلك قررت أم سعاد أن

تتولى قيادتها .. قيادة كل علاقتها بالرجل الذى اختارته بل قيادة كل كلمة تتبادلها معه .. ورفضت سعاد هذه القيادة .. إنها تريد حريتها .. ومهما تمادت فى هذه الحرية فلن تخرج عن الحرية التى كانت لأمها وهى فى شبابها .. وقد كانت يوما تتمنى ألا تكون كأمها حتى فى حريتها .. حتى تجنب نفسها وبناتها الفضائح التى عرفت بها أمها .. حتى لو تنازلت عن حريتها .. ولكن ما وقع قد وقع .. وأصبحت كأمها لها رجل آخر بجانب زوجها .. فلماذا تنقاد لقيادة أمها وهى صورة منها .. واشتدت الخناقات بينها وبين أمها .. حتى بدأت تفكر أن تهجرها كما هجرتها أختها نجوى منذ البداية .. ولكن أين تذهب وكيف تعيش إذا هجرت أمها .. إن نجوى كانت دائما أقوى منها وقد تركت بيت أمها وخرجت تعمل وتكسب ما يوفر لها تكاليف الحياة .. أما هى فإنها لا تتصور أنها تستطيع أن تعمل .. ليس لها أى مؤهلات ولا حتى شهادة دراسية يمكن أن تعتمد عليها فى البحث عن عمل .. ليس لها إلا جمالها .. وقد تعودت وأصبح من طبيعتها أن تدلل بجمالها وتعجز عن استغلاله .. إنها لم تعط جمالها أبدا حتى ولو لمجرد النظر إلا لحبيبها محمود .. وحتى وهى مع محمود لا تحس باستغلال جمالها .. إنها تحس بحبيبها هو وهى دون استغلال .. ولكن لماذا لا تهجر أمها وتذهب وتقيم فى شقة محمود التى تلتقى فيها معه .. إنه لا شك يرحب بإقامتها فى الشقة .. ويفرح .. ستكون له أكثر .. وقبل أن تتخذ قرارها النهائى استشارات أختها نجوى .. وصرخت نجوى فورا :

- إياك .. إنها شقة لقاء ليست شقة حياة .. وإذا أقمت فيها فكأنك تعطيه حق اللقاء بلا موعد ودون أن يكلف نفسه الجرى وراءك .. وستفقدين كل قيمتك العائلية .. لن يكون لك أى مظهر من المظاهر التى تؤكد أنك امرأة محترمة لها عائلة تصونها وتوفر لها تكاليف الحياة .. وستعطيه كل حقوق الزوج بلا زواج .. فلماذا يتزوجك وخصوصا أنك أصبحت بلا عائلة .. إنك ستكونين إذا أقمت فى شقته كأنك تحفة عثر عليها واحتفظ بها فى

دولابه .. ويفتح الدولاب كلما أراد أن يمتع نفسه بالتحفة التى عثر عليها .. لا .. إنك بذلك تضحين حتى بمجرد الأمل فى أن تكونى زوجة محترمة .. لا زوجة له ولا لغيره .. وتعيشين تائهة فى الحياة وبناتك تائهات معك ..

وتأثرت سعاد بكلام أختها نجوى .. كل ما قالته مقنع وصحيح .. ولكنها حاولت أن تقاوم اقتناعها فسألت صديقتها الوحيدة هدى .. وقالت هدى من خلال ابتسامتها اللاهية الخبيثة :

- كل شىء وله ثمن .. وأنت إذا أقمت فى الشقة فلن تكون شقة لقاء كل ما يطلبه منك أحاديث وقبلات .. بل ستكون شقة حياة تفرض عليك كل ما تتطلبه الحياة .. وستحملين كل مسئوليتها .. الطبخ والغسيل والكنس والمسح .. ثم كل ما يحتاجه الرجل الذى يدخل عليك .. ويجب أن تقدمى له أكثر مما يجده فى بيته .. إنك لن تكونى زوجة ولكنك ستتحملين أكثر من متاعب الزوجة .. فما هو ثمن كل ذلك .. يجب أن تتفقى معه مقدما على ما يدفعه ليوفر لك الحياة التى تعوضك عما تتحملينه ..

هذا ما قالته هدى .. ولكن لا .. لا .. إنها لا يمكن أن تطالب محمود بثمن .. وإلا كانت عاهرة تبيع ما تعطيه .. لا .. لا يمكن .. وعدلت نهائيا عن فكرة الفرار من أمها والالتجاء إلى الإقامة فى الشقة .. واستمرت تعانى الخناقات مع أمها .. خناقات تصل إلى الصراخ .. ولكنها تستطيع دائما أن تصل إلى محمود كلما أرادته ..

إلى أن حدثت المفاجأة ..

لقد فوجئت فى صباح باكر ببناتها الثلاث يدخلن إليها فى بيت أمها وقد حملت كل منهن حقيبة كبيرة ..

لقد طردهن أبوهن وأمرهن بأن يذهبن إلى أمهن ..

وتشتت عقلها وهن واقفات أمامها صامتات .. ليس فى عيونهن دموع

بل لسن ثائرات أو غاضبات وكأنهن يخفين فرحتهن بالعودة إلى أمهن .. وهدأ نسبتها وهى تحتضنهن وتقبلهن .. ان أباهن لم يطردهن قطعا .. ولكنه عجز عن تحمل مسئوليتهن .. وبناتها متعبات .. كل البنات فى هذه السن متعبات .. وكانت هى نفسها وهى تحادثهن فى التليفون تحرضهن على بعض أوامر أبيهن .. لأنها كانت تشفق على بناتها من هذه الأوامر أو كانت غير مقتنعة بها أو لمجرد إزعاج أبيهن الذى أصبحت تكرهه وهو يرفض الطلاق .. وكان أبوهن قد حاول أن يستعين بأخته على تحمل مسئولية البنات فاستدعاها لتقيم معهن .. وهى امرأة عجوز عانس قاربت الستين من عمرها .. ولكن متاعبه زادت .. إن البنات يسخرن من هذه الأخت ويتلاعبن بها .. وهى تعلم كل ذلك .. إنها لم تكن تكتفى بحديث التليفون معهن كل صباح بل كانت تحادثهن فى كل ساعات اليوم ، تستطيع أن تتفرغ لهن وتطمئن إلى استطاعتها سماع أصواتهن .. بل إنها لم تكن تطيق البعد عنهن فكانت تذهب كلما استطاعت لتراهن فى المدرسة .. وكانت تراهن رغم أن أباهن كان قد طلب من ناظرة المدرسة ألا تسمح بزيارة أى مخلوق للمدرسة لرؤية بناته حتى لو كانت أمهن .. فبينه وبين الأم قضايا فى المحاكم .. ولعل الناظرة كانت مضطرة إلى الخضوع لمطالب الأب باعتباره ولى الأمر ولكنها كانت من الرقة والحنان بحيث تسمح للأم برؤيتهن كلما جاءت إليهن فى المدرسة .. وقد كانت سعاد تكتشف فى أحاديث التليفون أو فى زيارات المدرسة أن بناتها ينقصهن شىء يرفض أبوهن أن يشتريه لهن .. قطع من الثياب أو أشياء تحتاجها البنات ولا يعرف عنها الرجل شيئا ويخجلن من أن يصارحنه بها .. كما لا يكفى ما يعطيه لهن من نقود أن يشترين .. فكانت تتحايل على أمها حتى تأخذ منها ما تعطيه لبناتها .. إن أمها بخيلة ولا تحس بأن ابنتها لها حق عليها .. إنها ليست كريمة إلا مع ابنها رشيد أخى سعاد المقيم فى باريس .. وقد كان أبو البنات يلحظ أحيانا شيئا جديدا مع البنات فيسألهن من أين جئن به ..

فيقلن إن أمهن أرسلته إليهن عن طريق بواب العمارة .. ممنوع أن يلتقين بأمهن أو يحادثنها فى التليفون .

وكانت سعاد قد تركت بيت زوجها .. وهى تتمنى أن تصحب بناتها معها حتى لو اختطفتهن .. ولكنها كانت تخشى أمها .. إنها تعرف أن أمها لن تطيق البنات ولن تتحملهن فى بيتها .. إنها كما كانت دائما امرأة أنانية تريد أن تحصر كل ما فى الحياة على ذاتها .. هى وحدها .. وسبق أن تخلصت من بناتها .. دفعت نجوى إلى هجرها وتعمدت تزويج سعاد قبل أن تتم السادسة عشرة لمجرد التخلص منها .. حتى ابنها رشيد رغم أنه يحصل على مزيد من حبها أكثر من حبها لأختيه تعمدت أن تدفعه لاستكمال دراسته فى باريس ولم تحل دون هجرته للإقامة هناك .. فكيف يمكن أن تتحمل هذه الأم وجود حفيداتها فى بيتها .. لا يمكن ..

ولكن .. جاءت البنات سواء أرادت أم سعاد أم لم ترد نتيجة عجز أبيهن عزيز عن تحمل مسئوليتهن .. إنه قدر مفروض قد يكون فى صالح سعاد .. فإن تخلى عزيز عن بناتها قد يكون توطئة لموافقته على الطلاق الذى عجزت حتى اليوم عن أن تناله حتى من خلال المحاكم ..

وسيطرت الفرحة على سعاد بعودة بناتها إليها .. وأخذت تعد لهن حجرة فى البيت وترتب كل شىء دون الاهتمام باستشارة أمها صاحبة البيت أو تلبية أوامرها .. إنها تتحداها .. ولكن هذا التحدى أصبح مع الأيام لا يطاق .. وسعاد تحتمله وتخفف عن بناتها احتماله .. دون أن تطلب من أمها أو حتى تعرض عليها حلا يريح كلتيهما .. ولكن الأم هى التى وجدت الحل .. ستخصص لسعاد وبناتها شقة فى عمارة قديمة كانت قد ورثتها عن زوجها الثانى الثرى .. وهى شقة لا يقل إيجارها رغم قدم العمارة عن عشرين جنيها .. وإذا أجرتها مفروشة تصل إلى مائة وخمسين جنيها .. وستتحمل الأم هذه التضحية حتى تتخلص من ابنتها وحفيداتها .. وإن كانت

تتعمد تسجيل إيجار قدرته للشقة المفروشة وتجعلها توقع على هذا التسجيل حتى إذا تزوجت أو تزوجت إحدى بناتها رجلا ثريا أخذت مالها من ديون .. وبجانب هذا رفضت الأم أن تعطى ابنتها سعاد أى مليم للإنفاق على حياتها .. إن زوجها عزيز أصبح يدفع لها مبلغا شهريا للإنفاق على بناته .. وهو مبلغ يكفى لتغطية احتياجاتها هى الأخرى ..

وفرحت سعاد بهذا الحل مستهينة بكل ما قد يصادفها من متاعب .. وانتقلت هى وبناتها إلى شقة العمارة القديمة وبناتها الثلاث أكثر فرحة منها ..

ولكن قبل أن تمر شهور على انتقالهن إلى الشقة اكتشفت سعاد أن المبلغ الذى يرسله لها زوجها عزيز فى أول كل شهر لا يكفى للإنفاق على بناتها وعليها .. وخصوصا أنها تتعمد أن تحتفظ لهن ولنفسها بالمظهر الذى كانت توفره لهن البيئة التى نشأن فيها .. وكان لا يمكن أن تطلب من زوجها عزيز أن يرفع من قيمة المبلغ الذى يدفعه .. سيكون رده الوحيد هو أن تعود إليه هى وبناتها .. بل ربما تعمد أن يبخل عليهن حتى يجبرهن على هذه العودة .. وهى لا يمكن أن تعود ..

وبدأت تعانى من الفلس .. إنها لا تستطيع اعتمادا على نفسها أن تصل إلى مليم واحد .. وكل ما يصلها هو هذا المبلغ المحدود الذى يدفعه زوجها عزيز للإنفاق على بناته والذى فرضت على نفسها أن تعيش به هى الأخرى رغم أنه مبلغ لا يكفى لتغطية احتياجات البنات وحدهن .. ماذا تفعل .. وبدأت تفكر فى الاعتماد على محمود .. إنه يقول إن الحب مسئولية .. وهو يحبها فيجب أن يتحمل مسئولية إعانتها على الحياة ويوفر ما تطلبه احتياجاتها لتعيش .. ومحمود لم يحاول أبدا أن يمدها بأى مبلغ من المال .. ربما لأنه يتصور أنها من عائلة قادرة وليست فى حاجة إليه ليمدها بالمال .. أو ربما لأنه حريص على ألا يجرح إحساسها بمد يده إليها محملة بالنقود .. كأنها امرأة تبيع نفسها وتأخذ ثمن ما تعطيه .. ولكنه فى الوقت نفسه كان

يسرف فى هداياه لها .. لقد أهداها قطعا من الذهب بعضها محلى بالماس .. وقد وضع فى أصبعها خاتما ذا فص ماسى صغير وهو يرجوها ألا تخلعه دائما ليحس أنه دائما معها .. وقد اعتبرت هى هذا الخاتم هو خاتم الخطوبة وتعمدت أن تنقله إلى أصبع يدها اليسرى ليكون خاتم زواج .. وهى لا تستطيع أبدا أن تبدأ بأن تطلب منه .. إنها هى الأخرى حريصة على أن تبقى صورتها فى عينيه دون أن تتغير .. صورة ابنة عائلة ليست محتاجة .. وقد فكرت فى الحالات التى كانت الأزمة تضغط عليها فيها أن تبيع من الهدايا التى أهداها إليها .. إن ثمنها يكفى لحل أزمتها وملء يديها الفارغتين .. ولكن مستحيل .. إنها تعيش داخل هذه الهدايا .. وتحس أنها لو باعت منها فكأنها تبيع من حياتها .. إن أمتع الساعات التى تقضيها وحدها هى أن تخرج هذه الهدايا وتقلب فيها وتكاد تقبل كل قطعة منها .. بل تتخيل هذه الهدايا علامات الطريق الذى يرسم مستقبلها إلى أن تصل إلى اليوم الذى يجمعها بمحمود .. يوم أن تتزوجه .. ماذا لو جاء محمود وقلب فى هداياه ووجد إحداها ناقصة .. كأنه مرت أيام باعته فيها .. لا يمكن أن تضحى بمحمود ولا بهداياه ..

إلى أن جاء يوم وقعت فيه ابنتها سهير مريضة مرضا خطيرا .. حمى فى المصارين .. واضطرت أن تدعو الطبيب إلى البيت بدلا من أن تحمل ابنتها إليه .. إن الطبيب الذى يأتى بنفسه تصل أتعابه إلى ثلاثين جنيها ، لقد تعمدت أن تدعو الطبيب الغالى الذى تعودت أن تدعوه لبناتها منذ كانت مع زوجها حتى تطمئن .. والأدوية التى أوصى بها يصل ثمنها إلى أربعين جنيها .. وقد أفلست تماما .. ليس معها ما يكفى حتى لشراء الطعام لأهل البيت .. وجرت إلى أمها وبكت بين يديها مستجدية .. ولم تعطها أمها سوى عشرة جنيهات مع مجموعة من الأوامر والنصائح العنيفة تسقطها عليها كأنها تضربها بالسياط .. وفكرت أن تتصل بزوجها عزيز لتستغيث به حتى ينقذ ابنته .. ولكنها لو أبلغته بخطورة المرض فقد يصمم على أن يأتى بنفسه

إليها ليطمئن عليها .. وهى لا تدرى كيف تستطيع أن تواجهه وهى وحدها فى البيت مع بناتها وربما يتعود زوجها على مثل هذه العادة فيتردد كل يوم بحجة رؤية بناته .. إنه إلى اليوم لم يأت إليها وكانت ترسل بناته إليه كلما طلب أن يراهن .. ولم يكن يشتاق كثيرا إلى رؤيتهن .. ولكنها كانت مضطرة إلى الاستعانة به فأرسلت إليه ابنتها الصغرى سامية .. إنها أقرب بناته إلى قلبه .. وأوصتها قبل أن تذهب ألا تحدثه عن خطورة مرض أختها وألا تدفعه إلى المجيء لزيارتها .. وقد عادت من عنده ابنتها بعد أن انتظرتها طويلا فى قلق ودعاء أن يرسل إليها زوجها ما يكفيها من نقود .. وقد عادت ابنتها وهى لا تحمل منه سوى عشرين جنيها .. كل ما أصبح فى يد سعاد لا يكفى لإنقاذ ابنتها .. واندفعت كأنها جنت وفتحت درج الهدايا وأخذت تقلب فيها إلى أن اختارت حلية ما شاء الله مطرزة بفصوص صغيرة من الماس وأسرعت تجرى إلى حى الصاغة .. وباعتها .. أصبح فى يدها ما يكفيها .. إن محمود هو الذى أنقذ ابنتها سهير ولو أنه لا يدرى ..

ثم بدأ الإفلاس يزحف عليها من جديد .. وكانت هناك حفلة تقيمها مدرسة البنات .. وهى حريصة على أن تظهر بناتها فى الحفلات بأرقى مستوى المظاهر .. إنها تريد أن تقول للناس إنها وبناتها لا يعانين شيئا ولا ينقصهن شيء .. وقررت أن يذهبن إلى الحفل مرتديات فساتين تبهر الناس .. ولم تكن دائما تشترى فساتين جديدة .. إن لها من المهارة فى الخياطة ما تستطيع به أن تقلب الفستان القديم إلى فستان جديد .. ولكنها وجدت أن الزى الذى اختارته لتقلب إليه فساتين البنات يحتاج إلى أن تشترى قطعة قماش أخرى ومجموعة من « كلبسات » الزينة .. وهى فى آخر الشهر وما معها من نقود لا يكفى لشراء شيء .. وفكرت أن تقترض من صديقتها هدى .. ولكن فجأة طرأ على فكرها أن تأخذ ما تحتاجه من محمود .. إن ما تحتاجه مبلغ صغير لا يمكن أن يؤثر فى تقدير محمود

لشخصيتها أو يجعله يتصور أنها بدأت تستغله .. وتمكنت الفكرة من عقلها .. وكانت على موعد مع محمود فى ذلك اليوم .. لقاء فى الشقة .. وقد تعودت رغم كل متاعبها أن تذهب إلى محمود دائما وهى مستكملة كل مظاهر العز .. عز ابنة العائلة المحترمة .. وثوبها وحذاؤها وتسريحة شعرها « والمكياج » الذى تزين به وجهها .. لا يبدو فى كل ذلك شيء ناقص أو شيء هبط مستواه .. إنها عبقرية بمهارتها فى التغلب على إفلاسها .. وقد جلست إليه فى هذا اللقاء وسط الكلام الذى يجمعهما ولا ينتهى أبدا إلى أن قالت ضاحكة :

– إننى اليوم فى حاجة إليك .. فقد نسيت قبل أن أنزل من البيت أن أفتح كيس النقود لأطمئن إلى أن فيه ما أحتاج إليه .. وأنا سأتركك وأطوف فى السوق لأشترى قماشا يحتاج إليه البنات .. وسأضطر إلى أن أعتبرك البنك الخاص وأقترض منك .. عشرون جنيها فقط ..

ونظر إليها محمود وابتسامته تزغرد بحبه ثم قال ضاحكا وهو يمد يده ويلتقط محفظة نقوده :

– لن أعطيك عشرين جنيها وسأعطيك مائة حتى أطمئن إلى أنك ستعيدين إلى العشرين ..

ومد يده إليها بالمائة جنيه .. وانزوت تخبىء عنه وجهها وقد بدأت حالة خجل صادق قوى تنتابها وقالت فى صوت خافت متهدج :

– لا .. لست فى حاجة إلى كل هذا المبلغ .. ماذا أفعل به ..

والتقط محمود حقيبتها وفتحها ووضع فيها المائة جنيه .. وقال فى صوت جاد بعد أن أنهى ضحكته :

– لقد قلت لك إن الحب مسئولية .. وقد كنت حائرا فى تحديد وتوسيع مسئولية حبى لك .. كنت أحيانا أخاف منك أو أخجل منك لأصارحك بمزيد

من مسئوليتى .. ولكنى اليوم أخاف ولا أخجل .. أنا المسئول عنك فى كل ما تتطلبه حياتك .. مسئولية شاملة .. مسئولية يفرضها على الحب .. ويفرض عليك حبك قبولها ..

وتغيرت حياة سعاد منذ ذلك اليوم ..

أصبح محمود يعطيها كل شهر مبلغا كبيرا .. أكبر من المبلغ الذى يدفعه زوجها عزيز لبناته .. ولكنها إلى اليوم لا تستطيع أبدا أن تأخذ هذا المبلغ كأنه من حقها .. لا تستطيع أن تمد يدها إليه كما كانت تمدها إلى زوجها .. ولا تستطيع أن تطالبه كما كانت تطالب وتحاسب زوجها .. إنها قد لا تستطيع أن تمد يدها إلى النقود التى يقدمها لها وتتركه يفتح حقيبتها ويضعها فيها بنفسه .. أو أن تأخذها من يده دون أن تنظر فيها كأنها تخطفها ووجنتاها دائما تحمران خجلا .. إن مسئولية الحبيب لا يمكن أن تحس بها كما تحس بمسئولية الزوج .. بل إن مسئولية الحبيب عندما تصل إلى هذا الحد يصبح الحبيب يحمل صفة العشيق وليس مجرد صفة الحبيب ..

ولم يتوقف محمود عن تقديم هداياه مع حرصه على المرتب أو المصروف الذى يقدمه لها كل شهر .. بل إنه وصل بهداياه إلى أن اشترى لها سيارة صغيرة هى سيارة العائلة كلها حتى اليوم .. إنه كريم كرما طبيعيا لا يفتعله ولا يتظاهر أو يتباهى به .. ليس كزوجها عزيز .. وإن كان عزيز كريما أيضا ولكنه ضنين بكرمه ويحتاج إلى جهد كبير لإقناعه بأن يكون كريما .. وقد قضت كل حياتها وهى تعانى التحايل على إقناعه بأن يكون كريما .. أما محمود فهو ليس محتاجا إلى هذا الجهد لإقناعه بالكرم .. إنه كريم تلقائيا دون أن يطلب الاقتناع ..

وأصبح محمود هو المسئول عنها فى كل دنياها .. لم يكن يحس بمسئولية تجاه بناتها .. ولكنه كان مسئولا عن مسئوليتها تجاه بناتها .. وحتى اليوم هو المسئول رغم كل ما حدث بينه وبينها ..

* *

وأفاقت سعاد من ذكرياتها كأنها تهرب من حياتها التى انتهت .. على صوت باب البيت يفتح وتدخل ابنتها سميرة .. وكانت سميرة قد انتهت من الامتحان منذ أيام وخرجت اليوم لتذهب إلى الجامعة لتعرف النتيجة .. ولمحت سعاد على وجه ابنتها عندما عادت ما يطمئنها ولكنها عاجلتها قائلة :

- خيرا .. النتيجة ؟

وقالت سميرة وفرحتها هادئة وابتسامتها ضيقة :

- طبعا نجاح .. وامتياز ..

وقفزت سعاد من جلستها واحتضنت ابنتها وأخذت تقبلها وهى تقول فرحة :

- إنى دائما مطمئنة إليك .. متأكدة منك .. ربنا يتم حياتك كلها بالنجاح .. (ثم قالت ضاحكة وهى تتركها من بين ذراعيها) .. والآن لنفكر فى الهدية .. هدية النجاح ..

وقالت سميرة وابتسامتها تتسع :

- لنؤجل البحث عن الهدية .. إن بليغ سيأتى إلينا هذا المساء ..

وقالت سعاد بدهشة وقد هدأت فرحتها :

- ولكن المذاكرة انتهت ..

وقالت سميرة ضاحكة على غير عادتها :

- أليس فى الحياة شىء غير المذاكرة .. ربما كان هناك موضوع آخر يجىء ببليغ إلينا .. وهو يريد أن يحادثك ..

واشتدت دهشة الأم وقالت :

- فيم يريد أن يحادثنى ..

وقالت سميرة من خلال ضحكتها :

- إنى اتركه ليقول ما يريده .. ومن حقك أن تصبى عليه كل هوايتك فى إلقاء الأسئلة والمناقشة ..

وقالت سعاد وقد بدأت ابتسامة تطوف على شفتيها كأنها بدأت تفهم :

- قبل أن أناقشه أحتاج إلى مناقشتك ..

وقالت سميرة فى مرح :

- لا .. أفضل أن أتركه يتعذب بالمناقشة وحده .. ثم إنك قد تفهمين من مناقشته غير ما فهمت أنا .. بل إنى سأترككما وحدكما وأحرم نفسى منكما لأترك لك حرية الفهم وحرية القرار .. عن إذنك ..

وجرت من أمامها إلى غرفتها .. غرفة البنات .. وابتسامة سعاد تتسع .. إنها لا تلح فى أن تمهد لها ابنتها فى تفسير الموضوع الذى جاء بليغ من أجله .. فهذه هى طبيعتها .. لا تحاول أن تريح أحدا وكأنه يكفى وجودها لراحة الجميع .. ولكن لا شك أن بليغ يجىء ليطلب سميرة .. وزغردت فرحة سعاد فى صدرها .. ولكنها عادت مع فكرها وكبتت فرحتها .. إنها لا تعلم عنه شيئا حتى تفرح به .. كل ما تعلمه أنه أستاذ مهذب مؤدب يعطى الدروس لابنتها .. ثم لعله جاء لموضوع آخر لا تريد ابنتها أن تفصح عنه ..

وقضت الساعات وهى تعد البيت لاستقبال بليغ .. وكانت دون أن تحس إنما لمجرد اندفاع تندفع إليه تعده إعدادا خاصا كأنها تستعد لحفلة .. وفى الوقت نفسه لا يتوقف تفكيرها .. ماذا سيقول بليغ وماذا ستقول هى .. ثم نادت ابنتيها سهير وسامية وقالت لهما فى جدية :

- إن الأستاذ بليغ سيزورنا ولا أريدكما أن تجلسا معه .. وإذا كان لدى كل منكما مشوار فلتقم به وتترك البيت ..

وقالت سامية ضاحكة :

- ما سر هذه الزيارة .. لا يمكن أن تكون زيارة مذاكرة فموسم المذاكرة قد انتهى ..

وقالت الأم فى جدية تحاول أن تفرض بها هدوءا على البنتين :

- ليس لها سر .. إنها زيارة .. لعله جاء يهنىء سميرة بالنجاح ..

وقالت سامية من خلال ضحكتها :

- أو لعله جاء ليطلب يد سميرة .. لماذا لا .. إنى أراه متيما ..

وقالت سهير وهى تدعى البراءة :

- إنى أريد أن أراه لأناقشه فى موضوع يهمنى ويتعلق به كل مستقبلى .. لا تحكمى على بأن أضحى بمستقبلى ..

وارتفع صوت الأم سعاد قائلة :

- أريد من كل منكما أن تبحث لنفسها عن مشوار .. وهذا آخر كلام ..

وقالت سامية ضاحكة وهى تمثل انحناءة :

- سمعا وطاعة سيدتى ..

وقالت سهير وهى تلوى شفتيها :

– إذا خرجنا ثرت علينا وإذا جلسنا فى البيت طردتنا منه لنقوم بالمشاوير .. غريبة .. ولكن اطمئنى .. لن أترك بليغ يتمتع برؤيتى ولا بلمحة ..

وتركتنا الأم وحدها وفكرها يضج بالتساؤل .. لماذا يجىء بليغ .. ماذا يريد ؟ لماذا لا تريحها ابنتها سميرة وتقول لها كل شىء ..

(٧)

بقيت سعاد فى انتظار عمر بليغ حشمت أستاذ ابنتها وهى لا تستطيع أن تهدأ أو تستقر .. أحيانا تنطلق كل أحاسيسها مع فرحتها ثم تعود وتحذر نفسها من هذه الفرحة .. إنها لا تعرف شيئا عنه .. وأحيانا يأخذها خيالها إلى تصور كل الأيام المقبلة حتى تبدأ فى تصور حفل الفرح الذى تقيمه لابنتها .. إن بيتها ضيق لإقامة فرح ولا حتى حفل لإعلان الخطوبة .. من الأفضل أن يقام الفرح فى بيت أبى البنت .. إنه شقة واسعة مشرقة تطل على النيل ، وهى التى اختارت كل قطع أثاثها قبل أن تتركها ولم يحاول زوجها تغيير شىء من هذا الأثاث أو شراء شىء جديد .. ومن يدرى .. ربما وافق الأب على إقامة الفرح فى فندق هيلتون تأكيدا لمظهر العائلة وتباهيا أمام أصدقائه .. ولكن من يدرى أيضا .. ربما قضت الأقدار على ابنتها بألا يكون لها حفل ولا فرح .. وكل ذلك وأكثر يتضارب فى تفكير سعاد وهى تروح وتجىء فى البيت وتشغل أفكارها وأصابعها فى أى شىء تجده أمامها حتى تشغل نفسها عن أفكارها .. إنها أول مرة تجد نفسها تعانى من هذه الأفكار .. أفكار أم العروس ..

إلى أن جاء بليغ .. وقد فتحت له سميرة الباب بعد أن كانت قد بالغت فى الاهتمام باختيار ثوبها وتزيين نفسها على غير عادتها .. بل إنها رفعت النظارة من عينيها كأنها تصارح بليغ بأنها فى الواقع ليست فى حاجة إلى هذه النظارة ولكنها تضعها تظاهرا بمظهر العلم .. وكأن العلم يستهلك عينيها .. ورأت سعاد بليغ كما رأته أول مرة .. إنه يرتدى بدلة كاملة بالقميص والكرافت .. رغم شدة الحر .. بل إنها نفس البدلة كأنه لا يملك

بدلة أخرى يحتفظ بها لمثل هذه المناسبات .. وكان يبتسم ابتسامة رغم وقارها إلا أنها تبدو كأنها ابتسامة مرتعشة ..

وقالت سميرة كأنها تعلن قرارا سبق أن اتفق عليه :

- بليغ يريد أن يتحدث إليك يا ماما .. وسأتركِكما ..

وقالت الأم كأنها تستغيث بها :

- لا يا ابنتى .. ابقى معنا .. ليس هناك أسرار أو حديث يخفى عنك ..

وقالت سميرة مبتسمة :

- لا يا ماما .. ليست أسرارا .. ولكنى أريدك حرة فى كلامك دون أن أتدخل فيه ..

وقالت الأم وهى تتنهد مستسلمة دون أن تعترض :

- إذن .. تولى أنت إعداد الشاى ..

واختفت سميرة عنهما وجلست الأم وبجانبها بليغ يبتسم ابتسامته الوقور التى ترتعش مترددة فوق شفتيه .. إن سعاد معجبة بهذه الابتسامة .. بل معجبة ببليغ كله رغم هذه البدلة الكاملة التى يلبسها فى عز الحر .. إنه إعجاب يجعله مختلفا عن كل الشباب الذين رأتهم .. ربما لأنه إعجاب ينبض بالاحترام ..

وقال بليغ بصوته المهذب بعد أن تنحنح كأنه يسلك زوره بالنحنحة :

- إننا نعترف .. سميرة وأنا .. بأنك صاحبة الفضل فيما انتهى إليه رأينا .. لقد كان سماحك لى بأن أدخل البيت لأساعد سميرة فى دروسها هو ما قرب بينى وبينها .. وعرفتها كلها وعرفتنى كلى .. وقد كنت أخجل

واشفق عليك ونحن نضطرك للجلوس معنا تشتغلين بالتريكو .. إلى أن اتفقنا على أن نريحك من شغل التريكو .. لقد جئت لأطلب يد سميرة ..

وقالت سعاد وهى تحد من فرحتها وترخى عينيها كأنها خجله أمام عريس ابنتها :

- ولكن سميرة لا تزال فى الجامعة وأعتقد انها مصممة على استكمال دراستها .. إلا إذا كانت قد غيرت رأيها ..

وقال بليغ فى هدوء ومن خلال ابتسامته :

- لا .. لم تغير رأيها .. وأنا أيضا أفضل أن تتم دراستها .. وقد اتفقنا على أن نبقى كخطيبين إلى أن تحصل هى على البكالوريوس .. وأحصل أنا على الدكتوراه ..

وقالت سعاد كأنها تعلن اعتراضها :

- ولكن سميرة لا تزال أمامها سنتان أو ثلاث حتى تحصل على البكالوريوس .. ولستما فى حاجة إلى كل هذه السنوات قبل الزواج كخطيبين ..

وقال بليغ فورا وبتأكيد وكأنه يدافع عن نفسه :

- إننا فى حاجة لنجاهر كل الناس بأننا ارتبطنا كل منا بالآخر .. وإعلان الحب والمجاهرة به لا تكفى .. فالناس يطلقون لأنفسهم حرية تفسير هذا الحب .. وهم أرحم بألسنتهم فى تفسير الخطوبة .. وأنت نفسك كنت تحرجين من السماح لى بدخول البيت خوفا من كلام الناس حتى كأستاذ يزور تليمذته .. وقد قالت لى سميرة إنك فعلا بدأت برفض زيارتى .. أما بعد إعلان الخطوبة فلن يتكلم الناس ولن تضطرى إلى أشغال التريكو .. وقد ناقشنا .. سميرة وأنا .. كل احتمالات هذه السنوات التى سنقضيها كخطيبين .. قد أحصل على الدكتوراه قبل تخرجها من الجامعة فنتزوج

وتستكمل هى دراستها وهى زوجة .. بل إننا ناقشنا احتمال أن يغير كل منا رأية فى الآخر ويتخلى عن حبه لا سمح الله .. حتى هذا الاحتمال ناقشناه وانتهينا إلى الرأى بأن الفراق قبل الزواج أرحم من الفراق بعد الزواج .. كما تعرفين .. ولو أنى واثق ومطمئن إلى أن ما بينى وبين سميرة هو العمر كله ..

وسكتت سعاد برهة كأنها تهضم هذا الكلام ثم قالت فى صوت حائر :

– إذا كانت سميرة قد وافقت وأحس مقدما أنها موافقة .. فلأنها تعرفك كلك .. أما أنا فإنى فى الواقع لا أعرف عنك شيئا حتى أوافق .. وسميرة ضنينه فى التحدث إلى عنك .. وأريد أنا الأخرى أن أوافق وأنا أعرف كل شىء ..

واعتدل بليغ فى جلسته وقال مبتسما ابتسامة ضعيفة كأنه يسخر من نفسه وفى الوقت نفسه مزهوا بها :

– أنا من طنطا وكل عائلتى لا تزال تقيم هناك .. وأنا الوحيد من أخوتى بل من كل أفراد العائلة الذى وصلت إلى الجامعة .. وقد تخرجت بين الأوائل وعينت معيدا .. وأنا منذ البداية وأنا أريد أن أكون معيدا ثم أستاذا فى الجامعة .. وسأنتهى من تقديم الماجستير هذا العام .. ومرتبى الآن ستون جنيها فى الشهر (وضحك مستطردا) وأسمع أن هناك علاوات قد تصل بمرتبى إلى خمسة وستين أو سبعين جنيها . وأقيم وحدى فى شقة صغيرة بالجيزة .. شقة فى حارة ..

وانقبض صدر سعاد .. إن مرتبه لا يكفى لفتح بيت الزوجية .. وحتى لو صبرا على الزواج سنوات فلن يزيد مرتبه عن ثمانين أو تسعين أو حتى مائة جنيه .. لم تعد المائة جنيه تكفى هذه الأيام لفتح بيت ولا فى أدنى مستوى لمظاهر المجتمع الذى تعيش فيه ابنتها .. إن زوجها عزيز يعطى لها مائة وخمسين جنيها فى الشهر للإنفاق على بناته .. ولا تكفىْ .. لولا

ما تأخذه من محمود لكانت قد اضطرت لقفل هذا البيت والعودة إلى زوجها إنقاذا لبناتها .. وقالت لبليغ متلجلجة :

– لا شك أن العائلة ترسل إليك ما يساعدك على استكمال احتياجاتك .. إن الدنيا أصبحت غالية ..

وقال بليغ من خلال ابتسامته :

– ابدا .. إن كل العائلة لا تملك سوى سبعة أفدنة من أرض القرية .. ووالدى موظف صغير فى محاكم طنطا .. (واتسعت ابتسامته الساخرة) تستطيعين أن تقولى إنه كبير السعاة .. والعائلة تعتبرنى كأنى أصبحت من كبار رجال الدولة وفى منتهى الثراء حتى أنى أتعمد أن أحمل لهم الهدايا الصغيرة حتى لا أخيب رأيهم فى ..

وسكتت سعاد برهة طويلة كأنها تفكر بينما تتنهد كأنها تزفر حيرتها .. إلى أن قالت كأنها تحادث نفسها :

– إنى متأكدة أن سميرة موافقة .. وأنا واثقة مطمئنة لكل ما تقرره سميرة .. فأنا أيضا موافقة .. مبروك .. مبروك عليك وعليها .. وربنا يتمم بخير ..

واتسعت ابتسامة بليغ وعمت الفرحة كل وجهه وقال مرحا :

– لقد كان الفضل لك فى البداية وسيبقى الفضل لك دائما طول عمرى وعمر سميرة .. لن نستطيع أبدا أن نستغنى عن فضلك .. أبقاك الله لنا ..

ثم هدأ صوته قليلا وقال مستطردا وكأنه كان قد أحس بحيرة سعاد عندما أعلن لها حالته :

– وأحب أن أقول لحضرتك إن سميرة لا تفهم الزواج على أنه رجل وامرأة وشقة وأكل وشرب .. ولكن الزواج هو مشروع بناء .. بناء الحياة

كلها .. وأنا واثق أننا بإذن الله سنبنى الحياة فى أعلى مستوياتها .. إن سميرة إنسانه هائلة وثقى فى ..

ومد يده إليها قائلا من خلال فرحته :

– لنقرأ الفاتحة ..

وابتعدت برأسها عنه أكثر كأنها خشيت أن تتبادل معه القبلة التى تفرضها مثل هذه المناسبات .. إنها أم صغيرة شابة ولا يمكن أن تسمح لأحد بتقبيلها حتى لو كانت قبلة على خدها ومن عريس ابنتها .. وقالت :

– إن قراءة الفاتحة معى لا تكفى .. يجب أن تقرأ الفاتحة مع أبيها ..

وقال بليغ وقد انكمشت ابتسامته كأنه صدم بمسئولية جديدة :

– إنى لا أستطيع أن ألتقى بالأب إلا بعد أن تبلغنى موافقته .. فإنى لا أستطيع إذا كان لديه أى اعتراض أن أحادثه كما حادثتك مطمئنا إلى موافقته ..

وفى هذه اللحظة دخلت سميرة عليهما وهى تحمل صينية الشاى .. وتركتها أمها تضع الصينية ثم جذبتها وقبلتها قائلة :

– مبروك يا ابنتى .. ألف مبروك .. لقد وافقت لأنى قدرت أنك موافقة .. ليس هذا فحسب .. فإنى مطمئنة إلى بليغ كل الاطمئنان .. ولكنه لا يريد أن يذهب إلى أبيك إلا بعد أن يوافق مقدما ..

وقالت سميرة مبتسمة ابتسامة صغيرة :

– سمعت ..

وكأنها تعترف بأنها سمعت كل كلمة تبادلتها أمها مع خطيبها .

وقالت الأم بسرعة :

– لا أدرى كيف نبلغ أباك ونحصل على موافقته .. أنت تعلمين القطيعة بينى وبينه ولن يحتمل منى كلمة لو حادثته .. فمن يحادثه ؟

وقالت سميرة فى لهجة جادة وإصرار :

– أنا التى ستحادثه .. اتركى المسئولية على ..

ونظرت إليها أمها فى دهشة كأنها لا تصدق أن ابنتها سيكون لها الجرأة لتحادث أباها .. بينما قالت سميرة لبليغ كأنها تعتبر أن الموضوع قد انتهى :

– لقد قرأت أمس فى كتاب الإحصاء .. تعال نجلس على المكتب لأعيد قراءته معك .. إنه يحيرنى ..

وقالت الأم مبتسمة :

– يا ابنتى ليس هذا وقت مذاكرة ..

وقالت سميرة فى لهجة أستاذة :

– المذاكرة ليس لها وقت .. إنها حرة ..

وقام بليغ واقفا قائلا فى ابتسامة كبيرة :

– سأقرأ الفاتحة مع ماما أولا .. إنها الأهم ..

وقالت سميرة ضاحكة :

– لا تقل ماما .. إن أمى أصغر منك ..

وقال بليغ ضاحكا :

– إن كل ما هو بالنسبة لك هو نفسه بالنسبة لى ..

ومدت سعاد يدها إلى بليغ مبتسمة قائلة :

– الفاتحة ..

ووضعت يدها فى يد بليغ وإذا بسميرة تمد يدها وتضعها فوق يديهما قائلة ضاحكة :

– يجب أن أقرأها معكما .. هذه هى الأصول من حقوق المرأة .. حتى الفاتحة يجب أن تشترك فى قراءتها .. إنها فاتحة لها ..

وقرأ الثلاثة الفاتحة وهم فى قمة السعادة .. ثم شدت سميرة بليغ إلى المكتب .. ولم تحاول سعاد أن تجلس أمامهما وتبدأ فى تطريز التريكو .. تركتهما وحدهما ودخلت غرفتها ..

وقد جاءت سهير وسامية بعد أن كان بليغ قد خرج .. وقيل لهما الخبر .. وفرحت سامية وأخذت تنطط حول أختها وتشيع النكات والضحكات .. أما سهير فقد كانت تفتعل الفرحة .. إنها الأخت الكبرى وكان يجب أن تكون أول من يفرحوا بها .. ولكن أختها الأصغر سبقتها .. لا يهم .. ستتزوج ..

وفى اليوم التالى اتصلت سميرة بأبيها فى التليفون واتفقت على أن تذهب إليه .. وخرجت .. وأمها تلف وتدور فى البيت وتشغل عقلها وأصابعها فى أى شىء منتظرة عودة ابنتها .. وقد عادت دون أن تبدو عليها فرحة وقالت فى سخط :

– لقد طلب أن أعطيه فرصة ليسأل عنه .. ويتأكد من أنه يصلح لى .. لابنته ..

وقالت الأم فى دهشة :

– الم تقولى له كل شىء عن بليغ ..

وقالت سميرة من خلال سخطها :

– قلت له أكثر مما قاله بليغ لك عن نفسه .. ولكنه أصر على أن أترك له مهلة يسأل فيها عنه .. واتفقنا على ثلاثة أيام ..

وتركت أمها وهى تدق الأرض بخطوات غاضبة .. والأم تبحلق بعينها فى الفضاء واليأس يزحف عليها ..

وقضيا الأيام الثلاثة والبيت كله لا يتكلم إلا فى موضوع واحد .. خطوبة سميرة لبليغ .. وبليغ لم يحاول أن يزورهن هذه الأيام .. كأنه فى انتظار موافقة الأب مراعاة للتقاليد .. ولكنه يتكلم مع سميرة فى التليفون ..

إلى أن عادت سميرة إلى زيارة أبيها .. والأم تتعذب بتصوراتها كأنها داخل نار تشوى كل ما فيها .. إلى أن عادت ابنتها .. عادت واجمة وفى عينيها دموع مكبوتة .. وقالت كأنها تهم البكاء :

– لقد رفض أبى .. وقال كلاما قذرا سخيفا .. أنت تعرفين ما يمكن أن يقوله ..

وأمسكت سعاد بكتفى ابنتها تهزها وهى تصرخ :

– ماذا قال .. قولى ماذا قال ..

وقالت سميرة وقد بدأت دموعها تنزف من عينيها :

– قال إنك تتركيننا نزحف فى الشارع لنصطاد أى رجل .. ولانصطاد إلا الطامعين فيه هو .. فى ثروته وفى الإنفاق عليهم .. وبليغ واحد منهم ..

وسكتت سعاد برهة وهى تغلى ثم قالت لابنتها :

– اسمعى .. إن الخطوبة قد تمت .. ومن حقنا أن نعلنها حتى ولو لم يوافق أبوك فأنت بلغت سن الرشد ولست فى حاجة إلى ولى أمر .. لست فى حاجة إلى موافقة أبيك ولا موافقتى .. وسأبدا أنا فى إعلان الخطوبة ..

وقبل أن تجيبها ابنتها رفعت سعاد سماعة التليفون واتصلت بأمها وقالت لها وهى تفتعل منتهى الفرحة إن ابنتها سميرة قد خطبت للاستاذ عمر بليغ حشمت .. المعيد بالجامعة .. يكفى فخرا به أنه معيد بالجامعة .. ثم

اتصلت سعاد بأختها نجوى لتبلغها الخبر .. ثم بصديقتها هدى .. ثم بمن تعرفهم من الصديقات والجارات .. ثم قالت لابنتها وهى تلهث :

– إذا اتصل بليغ فاطلبى منه أن يأتى إلينا ..

ثم دخلت غرفتها وألقت نفسها على سريرها كأنها انهارت .. إن زوجها عزيز لا يمكن أن يفهم كيف يحقق سعادة ابنته .. ولتشطب وجوده من كل مستقبل بناتها .. إنها لا يمكن أن تفرض عليهن أن يتزوجن كما تزوجته هى .. أى تترك الأب أو الأم تفرض رأيها .. كل بنت من حقها أن تختار من تتزوجه حتى لو رفض الأب والأم .. ثم أكثر من ذلك .. إن زواج سميرة يحررها من العقدة التى تعذبها .. عقدة إحساسها بأن ماضيها يحول دون تقدم أحد للزواج من بناتها .. لقد حلت هذه العقدة وتقدم بليغ يتوسل ويستجدى يد ابنتها ..

* *

وعادت سعاد كما تعودت تستسلم لصور ماضيها تمر فى وعيها كأنها شريط سينمائى حبست أمامه ..

لماذا تعتقد أن هذا الماضى يمكن أن يكون عقدة فى حياتها .. إنه ماض عادى .. لقد أحبت محمود كما تحب أى امرأة رجلا .. ولكنه رجل متزوج من غيرها .. وماذا فيها .. كأنها تزوجت رجلا متزوجا من أخرى .. إن من حق النساء أن يستجبن لحق الرجال فى الزواج مثنى وثلاث ورباع .. ولولا أن زوجها عزيز يرفض أن يطلقها لتزوجت محمود فعلا .. أو ربما استطاعت وهى حرة أن تقطع علاقتها به وتبعد عنه .. ولكنها بقيت معه بلا زواج لأنه لم يكن لها حق الزواج .. فزوجها لم يطلقها .. وكأن هذا الزوج كان يخدم محمود بإعفائه من مسئولية الزواج التى يفرضها الحب ..

إلى أن حدثت المفاجأة الثانية .. بعد المفاجأة الأولى التى أطلقها زوجها

عزيز بإرسال بناتها ليقمن معها .. لقد اتصل بها محاميها وقال لها وهو يهلل فى فرح :

– مبروك .. لقد كان عندى فى مكتبى زوجك عزيز بك .. وقد كتب ورقة الطلاق ووقعها .. وهى عندى .. أرجو أن تمرى على لتأخذى طلاقك .. مبروك يا هانم .. إنى مضطر أن أقول مبروك على الطلاق بعد أن تعبنا أكثر من أربع سنوات ..

وغطت دهشة المفاجأة على فرحة سعاد بحصولها على الطلاق .. لماذا طلقها بعد كل هذا العناد والإصرار على عدم منحها الطلاق .. هل جد جديد فى حياته يدفعه إلى قبول الطلاق .. ربما قرر أن يتزوج من أخرى .. أو ربما يئس من عودتها إليه بعد كل هذه السنوات الطوال .. أو ربما قضى هذه السنوات وهو يقنع نفسه بأنه يهين نفسه ويهين كرامته طالما تركها تحمل اسمه وهى مع رجل آخر .. وهى تعلم أنه يحتاج إلى وقت طويل حتى يقتنع بأى شىء .. المهم .. الحمد لله .. لقد استراحت .. استراحت على الأقل من ثقل دم هذا المحامى واستنزافه لأموالها حتى يحقق لها الطلاق ..

وقد ذهبت للقاء محمود وهى فرحة وقالت له كأنها تزغرد لنفسها :

– لقد حصلت على الطلاق ..

ولم يتجاوب محمود مع فرحتها .. بل تجمدت عيناه وهو ينظر إليها كأنه صدم .. ثم قال وبين شفتيه ابتسامة تقطر مرارة :

– ابدئى منذ اليوم فى العد التنازلى .. أى عشرة .. فتسعة .. ثمانية .. سبعة .. إلى أن تصلى إلى الصفر ..

وقالت فى دهشة :

– أعد على ماذا ؟

وقال هو يتنهد فى استسلام :

– على الحياة التى يعطيها لنا حبنا ..

وقالت تتساءل ثائرة :

– ما دخل طلاقى من عزيز بحبى لك ..

وقال فى هدوء بعد أن أشعل سيجارته :

– قد يستمر حبك كما يستمر حبى إلى الأبد .. ولكنه لن يكون حبا يجمع بيننا ..

وصرخت بحيرتها :

– لماذا

وقال وهو ينفث الدخان :

– لقد جمعنا الحب كما سبق أن قلت لك ونحن الاثنان فى حالة واحدة .. أنت متزوجة من رجل آخر وأنا متزوج من امرأة أخرى .. والآن أصبحنا فى حالتين مختلفتين .. أنا متزوج من الأخرى وأنت لست متزوجة .. والحب مهما بلغ يعجز عن أن يستمر فى الجمع بين هاتين الحالتين المختلفتين ..

وقالت وهى تنظر إليه فى لوم :

– إذن خذنى معك إلى نفس حالتك .. تزوجنى .. أم أنك تريدنى أن أتزوج رجلا غيرك حتى أضمن استقرارنا معا ..

وقال فى هدوء وهو يخفى عنها عينيه كأنه خجل منها :

– أنت تعرفين منذ يومنا الأول أنى لا استطيع أن أتزوج .. ولن أتزوج مهما عانيت .. ولا أتمنى أن تتزوجى رجلا آخر .. ولكنى أخشى اليوم

الذى تتمنين فيه أنت الزواج من آخر ..

وقالت صارخة وصرختها تنبض بصدقها :

– لا .. أبدا .. إنى لن أكون أبدا لرجل آخر غيرك .. حتى لو عشت وحيدة العمر كله ..

ثم قامت وجلست على ساقيه واحتضنته قائلة بكل حبها :

– دعك من هذه التوهمات .. وتأكد أن حصولى على الطلاق سينقلنا إلى سعادة أكبر من السعادة التى نعيشها اليوم ..

ولكنها وجدت نفسها بعد حصولها على الطلاق وكأنها قد أصبحت مجنونة .. جنت بغرابة ما فعلت حتى يتزوجها محمود ..

* *

ودخلت ابنتها سامية عليها تشدها من ذكرياتها .. لقد جاء بليغ .. وقامت وهى منهكة بأعصابها وفكرها وخرجت إليه ..

إن بليغ ليس سعيدا برفض الأب لزواجه من سميرة حتى لو تم الزواج رغم هذا الرفض .. إن هذا الرفض لا يمس الزواج وحده ولكنه يمس كرامته واعتزازه بنفسه بعد أن أصبح رجلا مرفوضا .. تعدى عليه أحد الناس ورفضه زوجا لابنته كأنه يقول له أنت أحقر من أن تصل إلينا وتدخل بيوتنا وتصاهرنا .. وفى الفلاحين يكفى مثل هذا الرفض لتقوم مذابح .. فهل يذهب إلى أبى سميرة ويقتله لأنه أهانه ..

ولكن سعاد استطاعت أن تهدىء من سخطه .. هذه هى طبيعة زوجها عزيز .. إنه لا يقتنع إلا إذا عاش الواقع الذى يقنعه .. وقد كان مثلا يرفض بعنف أن يترك بناته ليعشن مع أمهن .. وكان يقول كلاما جارحا كأنه لا يطمئن على شرف البنات إذا عشن مع أمهن .. ولكن بعد فترة واجه

الواقع الذى أقنعه بأنه لا يستطيع تحمل مسئولية تربية البنات فغير رأيه وأرسلهن إلى أمهن .. وكذلك زواج ابنته من بليغ .. إنه يرفضه لأنه ليس هناك واقع يقنعه به .. وسيقتنع عندما يواجه هذا الواقع .. واقع سعادة ابنته بهذا الزواج ..

ثم قالت سعاد لبليغ وهى تحتضنه بابتسامتها :

- لقد أعلنت الخطوبة من ناحيتى لكل أفراد عائلتى وصديقاتى ..

وقالت ابنتها سامية فى حماس :

- وهل يلبسان الدبل رغم عدم موافقة بابا ؟

وقالت الأم كأنها تعلن تحديها لزوجها :

- هذا من حقهما ..

وقالت سهير فى فرحة كأنها وجدت مناسبة تفرح بها :

- ونقيم حفلا لإعلان الخطوبة ..

وردت سميرة فى حدة :

- أنا لا أريد حفلات ..

وقالت الأم سعاد فى فرح هادىء :

- لن نقيم حفلا .. ولكننا سندعو العائلة .. أمى وأختى وصديقتى هدى فهى أيضا أختى ..

وقالت سهير فى حدة :

- ألا أدعو صديقتى نيفين وبقية الشلة ..

وقالت الأم فى عنف :

- لا .. وإن أتيت بهم سأطردهم ..

ولوت سهير شفتيها قرفانة ساخطة وكأنها قررت بينها وبين نفسها ألا تحضر الحفل ..

والتفتت الأم إلى بليغ قائلة :

- وأنت من تدعو من أفراد العائلة ؟

وقال بليغ وهو يبتسم :

- أعتقد أنى مضطر أن أدعو أبى وأمى وإخوتى .. إن عددهم كبير .. تسعة ..

وقالت الأم ضاحكة :

-البيت يتسع للترحيب بهم ..

وقد أقيمت الحفلة فعلا .. واهتمت سعاد بها إلى أعلى درجات الاهتمام ليسمع الناس بها حتى لو كانوا لم يدعوا إليها .. ولم يحضر أبو بليغ الحفل .. وقال بليغ أنه قال له أن أبا العروس ليس موافقا ولن يحضر لقاء العائلتين فرفض أبوه أن يحضر هو الآخر .. إذا كان أبو العروس يرفضه فهو أيضا يرفضه .. ولكن جاءت مع بليغ أمه فى زى فلاحى كامل .. ومعها أخواته البنات الثلاث فى زى من أزياء المدينة ولكنه بسيط ومتأخر .. وجاء معه أيضا أخوه الأصغر .. وقد أخذ يتقرب من البنات كأنه هو الآخر يريد أختا منهن .. والبنتان تضحكان .. لقد تقاربت العائلتان رغم الفرق الشاسع بينهما ..

لا شك أن الحفل العائلى كان ناجحا .. ودخلت الأم سعاد لتنام وهى سعيدة فرحة .. ولكن فجأة بدأت تشعر كأنها تخاف المستقبل .. لقد حقق الله أملها وبدأت بزواج سميرة وستتزوج بعدها سهير وسامية فكيف تعيش

هى .. هل تعيش وحدها أم تعيش وهى تلقى نفسها فى كل بيت من بيوت بناتها .. كأنها تشحذ منهم الرحمة ..

وطردت هذا الخاطر من رأسها بسرعة .. يكفى أن الله يساعدها على زواج البنات الثلاث ويرحمهن من أن يؤثر ماضيها على مستقبلهن .. كأن الله غفر لها ماضيها ..

وانقادت بخيالها إلى ذكريات ماضيها الذى لا تزال تعيشه يوما بيوم ..

(٨)

وعادت سعاد تهيم فى ذكرياتها .. عادت إلى أيام الجنون الذى انطلقت به بعد أن حصلت على الطلاق .. لقد كانت تعيش قبل الطلاق وهى زوجة وليست زوجة .. وتعطى حبيبها محمود كل شىء ولا تستطيع أن تتزوجه .. وهى معذورة .. ولا تحس بخطيئة .. ولا تحس بتأنيب ضميرها .. فالقانون لا يسمح لها بأن تتزوج وهى زوجة رجل آخر لا يريد أن يطلقها .. وحبيبها معذور هو الآخر .. فهو أيضا لا يستطيع أن يتزوجها .. رغم أنه لا يتمنى هذا الزواج ولا يريده حتى يتمناه .. لقد قال لها صراحة وأكثر من مرة إنه لا يستطيع أن يترك المرأة الأخرى التى تزوجها ولا أن يتزوج عليها مهما وصل به حبه لها .. إنه يريد أن يبقى هكذا طول عمره .. له زوجة وله عشيقة .. وربما كان مكتوبا عليها أن تستسلم لأن تعيش حياتها وهى عشيقة .. مجرد عشيقة .. ولها العذر فإن زوجها لا يطلقها .. ولكنه طلقها أخيرا .. لم يعد لها عذر فى أن ترضى على نفسها أن تكون عشيقة ..

وهى لا تستطيع أن تفقد الأمل .. إن حبها وتعلقها بمحمود أقوى من اليأس .. ولكنها بدأت تفكر تفكيرا جديدا محصورا فى موضوع واحد .. كيف تتزوج محمود .. إن الطريق الوحيد هو أن تضعه داخل واقع يقنعه بالزواج .. أو يفرض عليه الزواج حتى لو كان لا يريده .. نفس ما تعودت أن تقنع به زوجها السابق الذى كان لا يقتنع إلا بعد أن يواجه واقعا يفرض عليه الاقتناع ..

وكأنها أقامت مع صديقتها هدى مجلس تخطيط .. إن هدى تعرف أكثر منها عن طبيعة الرجال ووسائل التغلب والسيطرة على هذه الطبيعة .. ولم يعد بينهما موضوع يجمعهما فى حديث إلا هذا الموضوع .. كيف تتزوج محمود .. وتكاوْها يلف ويدور إلى أن اتفقتا على أن الطريق الوحيد هو أن تفرض عليه المجتمع كله .. أن يصلا إلى أن يدفعا الناس كلهم وكأنهم يصيحون فى وجهه .. تزوجها وإلا حكمنا عليك بأنك سافل .. إنه تخطيط أقرب إلى أن يكون تهديدا له بالتضحية إن لم يتزوج .. ولكن سعاد لم يكن يخطر على بالها تهديده بالفضيحة .. كان لا يخطر على بالها إلا الزواج .

وبدأت تكثر من اللقاءات التى تجمعها بمحمود .. ومحمود يستجيب إلى اللقاء بسهولة .. إنه يحبها .. ثم أخذت تذهب إلى الشقة وحدها .. إن محمود كان قد ترك لها مفتاحا .. وكانت تتعمد وهى تدخل العمارة أن تحيى البواب وأن تحادث وتتعرف بالجيران الذين تلتقى بهم داخل المصعد .. بعد أن كانت تهرب من البواب وتتجاهل الجيران حتى لا تواجه ما يمكن أن يعرفوه عنها كامرأة تتردد على شقة عاشق .. ولكنها الآن تتعمد أن تكون بينهم امرأة عادية لا تهرب ولا تختبىء منهم .. كأنها تريدهم أن يقتنعوا بأنها لم تأت للقاء عاشق بل تأتى للقاء زوج .. وهذه الشقة أصبحت شقة زوجية .. وتتركهم يقتنعون أو لا يقتنعون بأنها زوجة وتترك لهم حرية تفسير هذا النوع من الزواج .. المهم أن يعاملوها كزوجة لا كعشيقة وأن يواجهوا محمود بأنه أصبح زوجا لهذه السيدة وليس مجرد عشيق يستغلها لتحقيق متعة ..

ووصلت إلى أن بدأت تنقل كثيرا من ثيابها واحتياجاتها وتحتفظ بها داخل الشقة .. وبدأت تغير أثاثها وترفع منه وتضيف إليه .. كأنها تؤثثها بجهاز العروس .. ولكنها لم تحاول أن تقيم فى هذه الشقة .. إنها لن تقيم فيها أو فى أى مكان مع محمود إلا بعد الزواج .. ومحمود مستسلم لكل ما تفعله .. إنها حرة فيما تتخذه لإسعاد نفسها .. وسعادته لا تتغير ..

لا تقل ولا تزيد .. ولا يخطر على باله أن هناك هدفا تسعى سعاد لفرضه عليه .. ويكفيه كل الاكتفاء أن يلتقى بحبه ..

إلى أن بدأت سعاد خطوة أخرى .. إنها تريده أن يرفه عنها بأن يصحبها خارج الشقة .. إنها زهقانه .. وهى مظلومة بين كل نساء العالم .. فالنساء يتمتعن بأن يعشن فى المجتمعات وفى ليالى الحفلات وفى الطواف بالمحال العامة مع أزواجهن ليرين الناس ويستمعن إلى الموسيقى ويرقصن .. وهى كأنها محكوم عليها بالسجن المؤبد .. لا تخرج من بيتها إلا إلى الشقة .. ولا تعيش إلا فى خدمة بناتها أو خدمة حبيبها .. حرام .. لقد زهقت من هذه الحياة .. حرام عليه أن يتركها وكأنها محكوم عليها بالسجن المؤبد .. داخل جدران البيت والشقة ..

واقتنع محمود .. إنها فعلا محرومة ومظلومة فى حين أنه هو شخصيا ليس محروما ولا مظلوما ويعيش الحياة كلها .. وهو يؤمن بأن الحب يفرض المساواة بين الاثنين .. إنه يتعمد أن يكون سخيا فى إمدادها بالمال حتى يحقق المساواة بينهما .. لا يمكن أن يستقر الحب والحبيب ثرى والحبيبة فقيرة شحاذة .. إن أرفع ما يحققه الحب هو تحقيق المساواة سواء بزواج أو بلا زواج .. إنما فقط بالحب .. ولكن المساواة بإمدادها بالمال لا تكفى .. إنه هو نفسه كان يحس أنها محرومة من بهجة الحياة .. كان عندما يخرج مع زوجته إلى حفل يتذكرها ويشفق عليها .. إنه يتمتع بالحفل ويتركها وحدها تتقلب على فراشها بين أربعة جدران .. واقتنع أخيرا بأن يحررها من بين الجدران بأن يصحبها إلى الخارج .. ولكنه كان يختار المحال البعيدة الضيقة التى لا تزدحم بالناس حتى لا يثير كلام الناس حولهما .. وصل إلى حد أن بدأ يسافر معها إلى الإسكندرية بعد التحايل على زوجته .. بل إنه كان فى مرة مسافرا إلى أوروبا .. وألحت عليه .. لماذا تعيش محرومة من السفر إلى الخارج وكل النساء اللائى تعرفهن يسافرن .. وسافر بها فعلا وإن كان قد اختار أن يسافر كل منهما فى طائرة

وحده حتى لا يراهما الناس فى المطار يركبان طائرة واحدة ..

وكل ذلك أطلق كلام الناس حولها .. والإشاعات .. إن بعض الناس يؤكدون أنهما قد تزوجا .. حتى أنها دخلت مرة تشترى من محل فى شارع قصر النيل وتقدم منها صاحب المحل قائلا فى احترام كبير :

– هل حضرتك مدام محمود عبد الرحمن ؟

وابتسمت سعاد دون أن ترد عليه بغير هذه الابتسامة ..

وقال صاحب المحل :

– لقد رأيتكما معا فى مطعم خريستو بشارع الهرم ..

ولم ترد عليه سعاد أيضا بغير ابتسامة .. لا تنفى ولا تؤيد .. إنها تجد هذه الإشاعات فى صالحها .. على الأقل تنفى عنها أنها مجرد عشيقة ..

ولاشك أن هذه الإشاعات وصلت إلى زوجته ولكنها امرأة تثق فى نفسها إلى حد الغرور .. إنها واثقة أن زوجها لن يتزوج عليها .. كل ما هناك أنه من هواة اللعب بالنساء وهى تتركه يلعب .. ومحمود نفسه كأنه لا يسمع هذه الإشاعات .. حتى عندما تحدثه عنها لا يهتم .. إنه لا يهتم مادام مطمئنا على الناحيتين من حياته .. ناحية الزوج وناحية العشيق ..

وكل هذه التطورات فى علاقة سعاد بمحمود لا تتم إلا وفقا للتخطيط الذى تناقشة كل يوم مع صديقتها هدى .. إن هدى متحمسة كل الحماس لتزويج سعاد من محمود .. كأنها تلعب لعبة قمار تريد أن تكسبها .. أو كأنها تريد أن تتباهى بذكائها الذى تستطيع به أن تحقق المستحيل .. وقد كانت تساعد سعاد وتتحمل معها مسئولية كل شىء .. حتى مسئولية البنات .. فقد كانت هدى تشرف على البنات فى غيبة أمهن وهى مع محمود أو كانت تأخذهن إلى بيتها ليلعبن مع ابنتها إذا كانت تعرف أن الغيبة ستطول ..

وقد عرضت عليها هدى خطوة جديدة .. لتقوم بدعوة صديقاتها إلى الشقة .. فهذا يضع محمود أمام واقع أن هذه الشقة شقة زوجية وليست مجرد شقة لقاء بين حبيبين .. وقالت هدى إنها ستكون أول مدعوة إلى هذه الشقة .. إن مجرد زيارتها للشقة سيفرض على محمود إحساسه بأنه يجب أن يتزوجها .. وبدأت الخطوة الجديدة .. دعت هدى إلى الشقة .. ثم دعت أختها نجوى .. ثم بدأت تدعو صديقات لم يكن محمود يعرفهن .. بل إن بعض الصديقات كن يصحبن معهن أزواجهن فى الدعوة .. ربما لأنهن يصدقن إشاعة أنها قد تزوجت محمود أو ربما لمجرد الفرجة .. وكانت سعاد تدعو إلى الغداء أو العشاء وحسب ما تضمن به أن محمود سيكون موجودا معها .. وكانت تعد للدعوة إعدادا فخما وتسرف فى إعدادها .. لتقول للناس إن زوجها محمود كريم معها حتى يسمح لها بكل هذا الإسراف ..

ومحمود يجلس بين المدعوين دون أن يحس بالهدف وراء هذه الدعوات .. لا يحس بما ينقصه حتى يغطى به الوضع .. وكأن من العادى الذى يقبله المجتمع أن تدعو العشيقة أصدقاءها إلى بيت اللقاء بعشيقها .. إن المجتمع يقبل الاعتراف بدعوات فى بيت الزوجية حتى لو كان للزوج عشيقة وللزوجة عشيق ولكنه لا يقبل دعوات فى بيوت العشاق .. ولكن محمود لا يحس بكل هذا .. إنه يستقبل المدعوين استقبالا طبيعيا .. كأنه يفرض على الجميع الاعتراف به كحبيب لا كزوج .. ولم يكن المدعوون طبعا يثيرون أى تساؤل عن الزواج .. ما عدا أختها نجوى فقد قالت لمحمود يوم ذهبت إلى الشقة وهى تبتسم كأنها فى انتظار رد يرحمها :

– متى يتم زواجك من سعاد ؟

ورد محمود ضاحكا فى هدوء :

– إنى أحب سعاد إلى حد أنى لا يمكن أن أعرض هذا الحب للزواج ..

وصعقت نجوى بهذا الرد .. وطالت المناقشة بينها وبين محمود .. إنه يقول لها نفس الكلام الذى قاله مرارا لسعاد .. وخرجت نجوى غاضبة وهى تصيح :

- لن أعود إلى هذه الشقة إلا إذا كنتما متزوجين فيها ..

وقد استمرت سعاد تحاول تنفيذ الخطة التى اتفقت عليها مع صديقتها هدى ..

كم مضى .. ؟

عامان ..

وبدأت سعاد تيأس .. وطرأ على خاطر هدى طريق آخر .. لتترك سعاد نفسها تحمل من محمود .. ثم تترك الجنين فى بطنها ولا تسقطه .. إلى أن يكون من المستحيل التخلص من هذا الجنين ويضطر محمود إلى الاعتراف به ويتزوجها .. حتى وإن كان لا يريد الزواج فهو يضطر أن يتزوج حتى لا يلقى بابنه فى الشارع ويتركه ابن حرام .. إن كثيرات من النساء اتبعن هذه الخطة .. ولكن لا .. لا يمكن .. إن سعاد سبق أن حملت من محمود دون تعمد وجرت إلى الطبيب لتسقط هذا الحمل .. إنها لا يمكن أن تعرض وليدها للضياع وعذاب الحياة لمجرد أن تستغله فى تحقيق غرض خاص من أغراضها .. ثم كيف تواجه بناتها وهى حامل دون زواج .. مهما قالت لهن فستكون كأنها تنشئهن داخل فضيحة .. وتتركهن يشربن الفضائح حتى يتعودن عليها ويعشنها .. وتختار كل منهن لنفسها فضيحة .. لا .. لا يمكن .. إنها لا يمكن أن تلد إلا وهى مطمئنة إلى أن ابنها ابن حلال وأن الدنيا كلها بالنسبة له دنيا كاملة طبيعية .. لتتزوج محمود أولا ثم تلد له .. وربما كان ابن محمود سيكون أعز عليها من بناتها اللاتى أنجبتهن من زوجها السابق عزيز .. سيكون وليد محمود هو وليد الحب .. وتستطيع أن تجاهر بناتها بالحب .. حب بلا فضائح ..

ورفضت سعاد هذه الخطة ..

وبدأ اليأس يزحف عليها أكثر .. حتى أن صديقتها هدى بدأت تيأس من نكائها .. ووجدت نفسها تحس أنها لم تعد تحتمل .. ولا يمكن أن تستمر .. وكانت تذهب إلى لقاء محمود فتجد أعصابها تتمزق فى داخلها وهى تنظر إليه .. ولم تعد تستطيع أن تنطلق معه فى حديث مرح .. أو حديث الحب .. بل تتعمد الصمت الطويل لعله يفهمها من صمتها أكثر مما يفهمها من حديثها .. ولعله يفهم ولكنه لا يريد أن يتحدث عن موضوع ما فهمه .. ثم تستسلم له .. تتركه يقبلها دون أن تذوب فى قبلته كما تعودت أن تذوب .. وتتركه يأخذها وهى باردة كما كانت طبيعتها مع زوجها السابق ..

ثم وجدت فكرها يتطور إلى أن أصبح محصورا فى مسئوليتها عن بناتها .. إن البنات يكبرن .. أصبحت سهير فى السابعة عشرة .. وسميرة فى الخامسة عشرة .. وسامية فى الثالثة عشرة إنهن يقتربن من سن استكمال الشخصية وسن الزواج .. كيف تكون عليه شخصيتهن وكيف يتزوجن والمجتمع كله والناس كلهم يعلمون عنهن أنهن بنات أم تعيش مع رجل فى الحرام .. إنها لن تكون وحدها ضحية حبها لمحمود ، سيكون بناتها ضحايا معها .. قد يعشن حياتهن بلا زواج كما تعيش هى .. والناس دائما يربطون كل بنت بأمها .. واكفى القدرة على فمها تطلع البنت لأمها ..

وكانت منذ سنوات قد صارحت بناتها بما بينها وبين محمود .. ولكنها قالت لهن إنه خطبها ولكنه ينتظر أن يحل بعض المشاكل قبل الزواج .. بل إنها بدأت تصحبهن إلى شقة لقائها بمحمود وهى تحاول أن تحيطه بجو عائلى لإقناعه بالزواج .. وقد أحبت البنات محمود .. فهو يدللهن ويغرقهن بالهدايا ويفرح برؤيتهن .. أو ربما أحببنه مسايرة لأمهن فى حبه .. وكان محمود يفرح برؤيتهن فعلا .. ولكنه لا يتذكرهن إلا عندما يراهن فإذا كن بعيدات لا يحس بوجودهن .. إلا إذا تعمدت سعاد أن تبلغه بأن اليوم يوم

عيد ميلاد إحداهن فيسرع بدفع ثمن هدية غالية احتفالا بهذا العيد ميلاد .. والبنات أيضا لا يشعرن بوجود محمود إلا إذا أخذتهن إليه أمهن .. أو إذا تلقوا منه هدية .. أو إذا ردت عليه إحداهن فى التليفون وهو يطلب أمهن .. إنه ليس أباهن .. وهن لسن بناته ..

ومنذ بدأ اليأس يزحف عليها امتنعت عن صحبة بناتها إلى شقة محمود .. ليس هذا فى صالح تربيتهن . كما قد [illegible] معتهن .. ماذا يقول الناس عندما يرين بنات داخلات فى شقة لقاء .. وعندما اشتد بها اليأس بدأت تقنع نفسها بأنه لا يكفى تربية البنات والحرص على سمعتهن بل يجب أن تبدأ بتربية نفسها هى من جديد وتقيم لنفسها سمعة جديدة بين الناس .. سمعة أم شريفة .. أى يجب أن تترك محمود وتقطع كل ما بينها وبينه ..

ولكن .. كيف تترك محمود .. إنها رغم كل شىء لا تزال تحبه .. إنه الرجل الوحيد فى حياتها وفى فكرها وفى كل أحاسيسها .. ثم إنها فى حاجة إليه .. إن كل حياتها أصبحت تعتمد عليه .. بل إن اعتمادها عليه هو الذى يوفر لبناتها احتياجات ومظاهر لا يكفى لتوفيرها ما يمدهن به أبوهن .. مها كان .. يجب أن تترك محمود وتستسلم للقدر .. إن حياتها منذ ولدت كانت فى يد القدر ..

وقد قررت أن تفاتح محمود بصراحة .. من الأفضل أن تبتعد عنه بأن تتفق معه على أن تهجره .. وقالت له فى لقاء الشقة وهى تحاول أن تكون هادئة :

– محمود .. إذا كنت تحبنى فتحمل أن أتركك .. أن ننتهى من كل ما بيننا ..

وقال محمود فى دهشة وجزع :

– لماذا ؟

وقالت وهى تخفف من عذابها بظل ابتسامة على شفيتها :

– لأنى لا أستطيع أن أستمر معك بلا زواج ..

وقال ورموشه ترتعش فوق عينيه :

– وهل تتزوجين بعد أن تتركينى .. هل اتفقت مع رجل آخر على الزواج ..

وابتسمت وهى تستعرض نفسها بين الرجال بخيالها .. إنها منذ تركت بيت الزوجية والرجال أصبحوا أكثر جرأة عليها .. جرأة تجردت من هذا الاحترام الذى كانوا يعاملونها به .. وربما بعد أن عرفت واشتهرت علاقتها بمحمود أصبح كل رجل يحاول معها أن يحل محل محمود .. لم يتقدم إليها أحد طالبا الزواج .. من يتزوج امرأة مطلقة لها ثلاث بنات ولها عشيق .. وكانت تواجه أى رجل يحاول معها بجفاء صارخ .. إنها لا تطيق النظر إلى أى رجل سوى محمود .. وقد تعمدت أن تقيم كل حياتها دون أن يكون فيها رجال من قريب أو من بعيد إلا محمود ..

وقالت لمحمود كأنها تلومه :

– أنت تعرف أن ليس فى حياتى أى رجل إلا أنت .. ولو كان قد تقدم لى رجل لأبلغتك قبل أن تسألنى ..

وقال محمود وهو يحاول أن يكون هادئا :

– إنى أعرف وأحس بما تعانين .. وأنا معترف بأنك تحملت وضحيت بما لم أتحمله أو أضحى به أنا .. وأعرف أنى مهما بذلت فلن أعوضك عما ضحيت به .. ولكن ما نحن فيه أصبح قدرا مكتوبا علينا .. وهو قدر يسعدنا بقدر ما يعذبنا .. وقد مضت عشر سنوات ونحن على هذا الحال .. ولا يمكن أن تغيرى هذا الحال إلا إذا كانت هناك خطة لحال آخر جديد .. أى أن كل ما ينقصك منى هو الزواج فلا تتركينى إلا للزواج .. وأنا

مضطر أن أحتمل يوم تتزوجين غيرى مهما تعذبت لأنك على حق .. ولو أنه حق مظهرك أمام الناس وليس حقك فى إسعاد نفسك ..

وقالت سعاد فى عصبية وسخط :

– لعلك توافق على أن اتزوج غيرك مع استمرار علاقتى بك .. لا .. مستحيل .. لا يمكن أن أكرر الخطأ الذى وقعت فيه .. إنى لم أحتمل هذا الخطأ عندما عرفتك فتركت زوجى لأكون لك .. ومادمت لن أكون لك إذا تزوجت فلن أكون لك حتى دون أن أتزوج ..

وقال محمود وهو يتنهد مبتسما ابتسامة مسكينة :

– ربما أختلف عنك لأنى رجل أعمال .. لا يمكن أن أشطب عملية إلا بعد أن أخطط لعملية أخرى .. وأنت تريدين أن تشطبى كل حبنا دون أن يكون لديك تخطيط لما يعوضك عن هذا الحب ..

وصاحت سعاد بحدة :

– إنك تختلف عنى لأنك تتصور أن كل ما ينقصنى هو الزواج .. لا .. ليس الزواج .. بل إنى لا أعتقد أنى أستطيع الزواج برجل غيرك .. ولكن ما ينقصنى هو اطمئنانى على مستقبل بناتى .. لقد كبرن وأصبحن قريبا من سن الزواج .. كيف تتزوج بنت وأمها أصبحت معروفة بأنها عشيقة رجل وليست زوجة .. إن الأم التى تخاف على مستقبل بناتها إما أن تكون زوجة أو تكون بلا رجل ..

وقال محمود فى ضعف كأنه يستجديها :

– إننا نستطيع أن نغير أسلوب حياتنا .. فنلتقى سرا كما بدأنا عندما بدأ لقاؤنا .. حتى يسكت الناس عنا ويعتقدوا أننا انفصلنا ولم يعد بيننا لقاء .. لست أنا الذى أشهر حبنا أمام الناس .. أنت من كنت السبب بإلحاحك أن نخرج معا إلى الشارع ونسافر معا وتقومين بدعوة الناس إلى عُشنا .. وكل

خطئى هو أنى طاوعتك واستسلمت لك .. ولكن .. لنعد ونخبىء حبنا عن الناس ونحميه ونحمى بناتك ..

واستمر النقاش طويلا دون أن يتفقا على قرار أو على حياة جديدة .. بل إنه اقترب منها واحتضنها وقبلها .. إنها لا تستطيع أن تقاوم قبلاته ..

ولكنها فى اليوم التالى كانت أشد تصميما على أن تهجر حبها .. أن تقطع كل ما بينها وبينه .. وذهبت وحدها إلى شقة اللقاء وهى تجرى كالمجنونة وفتحت الدواليب وأخرجت كل ما كانت تحتفظ به هناك من قطع الثياب وجمعتها وخرجت بها إلى بيتها .. وتعمدت ألا تتصل به بالتليفون يومين .. وهى تقاوم عذابها كلما وقعت عيناها على التليفون .. وكانت قد تركته آخر مرة وهما على موعد لقاء .. ولم تذهب إلى الموعد .. وبقيت فى بيتها تتقلب على سريرها ولا تطيق نفسها ولا حتى بناتها .. إنها تتعذب .. ولكن إصرارها أقوى من العذاب وتحمله .. وبعد ساعة من موعد اللقاء دق جرس التليفون وانطلق منه صوت محمود يقول فى دهشة :

– ماذا حدث .. لماذا لم تأتى ؟

وقالت ودموعها ترفع صوت بكائها :

– بحق حبنا يا محمود .. تحمل ما يفرضه على عقلى وإحساسى .. إنى لم أعد أستطيع أن أستمر .. ويجب أن أقاوم حبى ..

وسكت محمود برهة ثم قال فى صوت حزين كأنه يرثى نفسه :

– إنى لا أستطيع أن أقاوم حبى لك .. ولن أحاول مقاومته .. ولكنى سأقاوم لقاءك ولن أحاول أن أفرض نفسى عليك .. بل إنى حتى أساعدك على تحقيق ما تمكن من عقلك وإحساسك فلن أتصل بك مرة ثانية بالتليفون .. ولو أنى سأعيش العمر كله فى انتظار أن يحمل لى التليفون صوتك .. كان الله معك ..

وأسقط سماعة التليفون ..

وسقطت سعاد تبكى كأنها تنزف كل دمائها .. إنها تحب محمود ولن تستطيع أبدا أن تتجرد من حبه .. وهو طوال العمر الذى قضته معه لم يدفعها يوما إلى الغضب منه ولا إلى مجرد لومه .. بل إنها لا تستطيع أن تحمله أية مسئولية .. إنها هى التى أخذته وليس هو الذى أخذها .. وهى التى تركت بيت زوجها إلى أن حصلت على الطلاق وليس هو الذى حرضها .. وهو لم يعدها يوما بالزواج وخان وعده .. بل قال لها منذ اليوم الأول إنه لن يتزوج ورغم ذلك قبلته بلا زواج .. ثم إنها لن تجد أبدا رجلا آخر مثله .. ولن تحب أبدا كما لا تزال تحبه .. كل ما هنالك أنها سيدة فاشلة .. فشلت فى أن تصل بحبها إلى الزواج .. إن بناتها بعد أن كبرن وهن يعرفن كل قصتها يعتبرنها أما فاشلة وربما لذلك لا يعتمدن عليها فى البحث عن زوج .

وقد وجدت نفسها وهى فى عذابها تفكر كيف يمكنها تدبير حياتها بعد أن تنقطع عنها إمدادات محمود .. لقد كان يمدها بمبلغ كبير أكبر من المبلغ الذى يمد به زوجها السابق بناته .. لقد كانت تعيش هى وبناتها فى المستوى الذى توفره لهن إمدادات محمود .. فكيف تدبر حياتها بعد أن تنقطع هذه الإمدادات .. لتترك نفسها للقدر ..

إلى أن فوجئت فى أوائل الشهر الجديد بسائق سيارة محمود يأتى إليها فى البيت ويسلمها مظروفا مقفولا .. إنه نفس المبلغ الذى تعود أن يعطيه لها أول كل شهر .. يجب أن تحادثه فى التليفون وتشكره .. ولكن لا .. لعله أرسل إليها مجرد تعويض عن نفسه .. عن خسارتها له .. وقد يكون هذا آخر شهر يرسل إليها فيه قيمة التعويض ..

ولكن فى الشهر التالى جاء السائق يحمل نفس المظروف وفيه المبلغ الذى كان يسميه مصروف الشهر .. يجب أن تشكره هذه المرة .. ورفعت

سماعة التليفون بيد ترتعش . وارتعشت كلها عندما سمعت صوته .. وقالت بصوت متهدج :

– لا أدرى كيف أشكرك .. بل إنى أحس كاننا لازلنا معا فلا أستطيع أن أشكرك ..

وقال فى صوت رصين :

– إنى أحبك يا سعاد .. وقد قلت لك إن الحب مسئولية .. سأبقى مسئولا عنك مادام لم يدخل حياتك رجل آخر .. أقصد مادمت بلا زواج ..

وقالت من خلال تنهيدة مرتعشة :

– لا أظن أنى سأتزوج .. بل إنى لا أريد أن أتزوج ..

قال فى رجاء :

– وهل نلتقى ..

قالت وقد عاودها تصميمها فجأة :

–دعنا نستمر فى المقاومة ..

وقال فى استسلام :

– كما تريدين ..

ومن يومها ضعفت مقاومتها لسماع صوته فى التليفون .. وأخذت تحادثه مرة أو مرتين كل شهر .. وتقاوم أمنيتها فى أن تحادثه كل يوم .. ولا تطلب منه ولا يطلب منها .. يكفى أن يطمئن كل منهما على الآخر ..

• •

ودخلت عليها ابنتها الصغرى سامية واختطفتها من دنياها .. دنيا ذكرياتها .. كانت سامية قد نجحت فى الثانوية العامة بمجموع مشرف ..

وكان صديقها أحمد قد تخرج فى كلية الهندسة ونال البكالوريوس وبدأ يعمل فى مكاتب شركة أبيه .. ولأن سامية مصممة على أن تفهم كل ما يفهمه صديقها .. ويكون فى عقلها كل ما فى عقله .. فقد التحقت هى الأخرى بكلية الهندسة ..

وكانت سامية عندما دخلت تبتسم ابتسامة كبيرة .. انعكست على شفتى الأم وقالت لها :

- ما أخبارك ؟

وقالت سامية وهى تدور حولها كأنها ترقص :

- أحمد لم يعد يطيق وجودى فى كلية الهندسة .. إنه يغار من كل من حولى من الطلبة ومن كل من يقول لى كلمة واحدة .. حتى أنه يأتى إلى فى الكلية كل يوم كأنه لا يزال طالبا معى ..

وقالت الأم فى منتهى الفرحة ومنتهى الأمل :

- وماذا فعلت به غيرته .. أو ماذا قرر أن يفعل ..

وقالت سامية ضاحكة :

- لا أدرى فيم يفكر .. ولا يهمنى ما يقرره .. تكفينى فرحتى بغيرته على .. إنه يغار كالمجانين ربما لأنه كان فى نفس الكلية ويعرف ما يحدث فيها ..

وتركتها سامية لتجرى فى مرح ..

وسعاد تتسع ابتسامتها .. إن صديق ابنتها لا يمكن أن يقاوم غيرته إلا بالزواج .. وتتزوج الابنه الثانية من بناتها ..

الحمد لله .. ألف شكر يارب ..

(٩)

كانت قد مرت أسابيع عندما جاءت الأبنة الصغرى سامية إلى أمها سعاد وجذبتها من يدها ودخلت بها إلى غرفتها تريد أن تختلى بها بعيدا عن أختيها .. وكانت سامية تبتسم ابتسامة سعيدة ولكنها ابتسامة تبدو أنها تنطلق من وراء فكر مشغول حائر .. وقالت وهى تبعد عينيها عن عينى أمها :

- أحمد يريد أن يعلن خطوبتنا ..

وانطلقت الفرحة من كل خلجات الأم .. لقد كانت متأكدة أنه سيتقدم إلى الخطوبة .. كان فى حاجة إلى ما يؤكد له أن سامية ستبقى له .. وليس أمامه ما يطمئنه إلا بأن يبدأ بالخطوبة .. وقالت كأنها تزغرد بفرحتها :

- مبروك يا ابنتى .. ألف مبروك ..

وقالت سامية وقد بدأت ابتسامتها تنكمش :

- لقد مضت أسابيع وأنا أحاول أن أقنعه بتأجيل إعلان خطوبتنا ولكنه مصر ..

وقالت الأم فى دهشة :

- لماذا تريدين التأجيل ؟

وقالت سامية فى صوت هادىء دون أن تكون ثائرة أو ساخطة ولكنها تناقش رأيا لها :

- إنى مازلت فى سنة أولى جامعة .. ولا أريد أن أضع نفسى فى حالة

رسمية أمام زملائى الطلبة لأعيش حياتى الجامعية وأنا حرة .. حتى إذا وصلت إلى السنة الثالثة مثلا أكون قد زهقت من الجامعة وأبدأ فى الارتباط بمستقبلى .. ثم ما هى الخطوبة .. إنها فتح مجال الصداقة وتأكيد الحب بين اثنين .. وأنا وأحمد نعيش هذا المجال بلا خطوبة .. إنى أصبحت مرتبطة بصداقة وحب أحمد إلى الأبد فما حاجتنا إلى إعلان الخطوبة ..

وقالت سامية كأنها تنهر ابنتها :

– إن الخطوبة هى الصداقة الشرعية والحب الشرعى ..

وقالت سامية وهى تبتسم :

– أعتقد أن هذا هو ما يريده أحمد .. الشرعية .. وقد قلت له إنه يغار من التفاف الطلبة حولى ، وتدفعه غيرته إلى التردد على فى الجامعة كل يوم .. ولعله بدأ يخجل أمام الطلبة من كثرة تردده فأراد أن يحوله إلى تردد شرعى ..

وقالت الأم فى لهفة :

– وعلى ماذا انتهيتما ..

وقالت سامية وابتسامتها تتسع :

– طبعا استسلمت لإصراره .. أنت تعلمين أنى أحبه ولا أتمنى رجلا آخر فى حياتى غيره رغم كل متاعبه .. واتفقنا على أن نبقى مخطوبين إلى أن أنتهى من الجامعة وأصبح مهندسة مثله .. ويكون هو قد أعد مستقبله واشترى الشقة التى نتزوج فيها .. أى كلها ثلاث سنوات ونتزوج ..

وقالت الأم ضاحكة :

– من أدراك .. ربما كما فاجأك بطلب إعلان الخطبة يفاجئك بعد شهر أو شهرين بطلب الزواج ..

وقالت سامية وهى تضحك فى مرح :

– حرام عليك يا ماما .. إنه لو طلب أن يتم الزواج فى أى يوم فأخشى أن أضعف أمامه وأستسلم له كما استسلمت لإصراره على إعلان الخطوبة .. وسأفقد بعض حريتى بعد أن تعلن الخطوبة ولكن يبقى لى ما يكفى لحياتى الجامعية وإتمام دراستى .. أما إذا تزوجنا فسأفقد حريتى كلها ولن أكون أبدا مهندسة ..

وقالت سعاد وقد هدأت ابتسامتها على شفتيها :

– إن الحرية هى طريق الإنسان لإسعاد نفسه .. فإذا دفعتك حريتك إلى الزواج فلأنك مقتنعة بأنك ستكونين سعيدة حتى دون أن تكونى مهندسة .. والبنت غير الولد .. تصل إلى ذروة سعادتها بأن تكون زوجة ناجحة لا بأن تكون مهندسة .. أو طبيبة .. أو محامية ..

وقاطعتها سميرة دون أن تبالى بما تقوله أمها :

– أحمد سيأتى لزيارتك غدا ..

وقالت الأم من خلال فرحتها :

– هل يأتى ليطلبك منى .. ؟

وقالت سامية ضاحكة :

– هذا هو المفروض ..

وقالت الأم :

– وهل يأتى وحده .. ؟

ونظرت سامية إلى إمها كأنها تلومها على هذا السؤال وقالت :

– لماذا لا يأتى وحده .. ؟

وقالت الأم فى لهجة حادة :

- لأنى لست فى حاجة إلى لقائه وحده .. فأنا أعرفه جدا .. وهو يعلم أنى موافقة مقدما على إعلان خطوبتكما .. فإذا جاء ليطلبك رسميا فيجب أن يأتى مع أمه أو مع أبيه أو مع كليهما .. حتى تكون الزيارة كاملة ويتبع الأصول ..

وصاحت سامية معترضة :

- لقد جاء بليغ ليطلب يد أختى سميرة وهو وحده .. فلماذا لا يأتى أحمد ليطلبنى وهو وحده أيضا ..

وقالت الأم فى حدة :

- لقد كان أهل بليغ بعيدا عنه ولا يقيمون فى القاهرة .. ثم إنى لم أعرف بليغ كما أعرف أحمد .. لقد وضعت بليغ تحت عشرات الأسئلة كأنى أحاكمه قبل أن أوافق على أن أعطيه ابنتى .. ولست فى حاجة إلى أى سؤال أوجهه لأحمد .. ثم إن أهل أحمد معنا ونعرفهم ويعرفوننا وإن كنا نعرفهم من بعيد ..

وقالت سامية وهى تدير ظهرها لأمها :

- إن أم أحمد لن تأتى معه ..

وقالت الأم فى صوت عال محتد :

- لماذا .. ؟

وقالت سامية فى صوت متهدج بعد أن زفرت أنفاس الضيق :

- إنها ليست موافقة على الزواج ولا على إعلان الخطوبة ..

وصاحت الأم فى جزع :

- لماذا .. هل تعتقد أن ابنها لم يصل إلى سن الزواج بعد .. أم هل تريد أن تزوجه من أخرى أو من إحدى قريباتها ..

وقالت سامية وهى تتنهد :

- لا .. إنها ترفضنى أنا ..

وقالت الأم وعيناها مفتوحتان فاغرتان كأنها مقبلة على مصيبة :

- لماذا .. إننى أعرف أنك تزورينهم فى البيت .. ولم تقولى لى مرة إنه وقعت خناقة أو مشادة بينك وبين أم أحمد ..

وقالت سامية وكأنها مغتاظة :

- لم يحدث أبدا شىء بيننا .. ولكنها كانت تستقبلنى دائما فى برود .. وتعاملنى فى ترفع كأنها تعتبرنى مجرد لعبة يلعب بها ابنها أحمد وتتركه يلعب ويتسلى بى .. حتى ابنتها درية أخت أحمد التى كانت زميلة لى فى المدرسة الثانوية .. لقد حاولت أن تكون صديقة لى ، وتذكرين أنى دعوتها إلى بيتنا عدة مرات ولكنها دائما باردة متعالية على ، علاوة على ثقل دمها .. وقد كنت أحتملها من أجل خاطر أحمد ولكنى منذ مدة شطبتها بعيدا عنى .. وأحمد يعرف شعور أمه وأخته نحوى .. وتصارحنا واتفقنا على أن نتجاهل وجودهما .. يكفينا وجودنا معا ..

وقالت الأم والدهشة من كلام تسمعه لأول مرة تفرى أعصابها :

- لماذا كان هذا شعور الأم نحوك .. ماذا حدث يمكن أن يمسك ؟

وقالت سامية فى صوت خفيض كأنها تهمس لنفسها :

- لأنها تعرفك ..

وصرخت الأم :

- ماذا تقصدين .. ؟

واستدارت سامية لتواجه بعينيها عينى أمها وقالت كأنها تستعين بقوة تحمى بها نفسها :

- إنها تعرف كل حكايتك وتعتقد أنها حكاية لا تشرفها إذا ناسبتك .. وقد قلت أنا هذه الحكاية لأحمد قبل أن تقولها له أمه .. وكان يجب أن أقولها له .. حبه لن يكون كاملا إلا إذا عرفنى كلى بأمى وأبى وبكل ما فى حياتى .. قلت له إنك وأنت زوجة أحببت رجلا آخر .. ولكنك قاومت الحب حتى أصبحت لا تتحملين معاناه العذاب الذى يصبه عليك بابا فهجرته لتعيشى الحب .. ولكنه لم ينته إلى زواج فضحيت به وعشت بعيدا عنه بلا حب وبلا رجل .. إن أحمد مقتنع بأنك لم تخطئى كما تقول أمه وأنك مظلومة مع حظك وقدرك ..

وسكت الأم ساهمة كأنها تبكى نفسها .. ثم قالت فى صوت خفيض كأنها تحادث نفسها :

- إن حكايات أم أحمد أبشع من حكايتى .. بل وحكايات أبيه أيضا .. لقد قيل عنهما إن الأب كان يسلط الأم على إغراء من يتعامل معهم حتى يضعفوا أمام نصبه واحتياله عليهم .. وهكذا أصبح مليونيرا .. وأصبحت زوجته من نجوم المجتمع رغم كل ما يقال عنها لمجرد أنها زوجة مليونير .. لو كنت أنا قد احتملت زوجى لكنت الآن سيدة محترمة بلا حكايات حتى لو استمرت علاقتى بمحمود .. ولكنى جاهرت الناس بحبى كأنى كنت أريدهم أن يعترفوا به كما يعترفون بالزواج .. وإن كنت قد وصلت بهم إلى أن اعترفوا بحبى كخطوبة .. وكان ما كان .. اسمعى يا سامية يا ابنتى .. إنى مستعدة أن أستقبل أحمد كصديق لابنتى فهو ليس مسئولا عما يقال عن أمه وعن أبيه كما أنك لست مسئولة عما يقال عن أمك .. ولكنى لن أسمح له بأن يطلبك منى إلا إذا كانت معه أمه ..

وقالت سامية فى عصبية :

- إنها لن تأتى لتخطبنى منك .. ووالد بليغ لم يأت إعلان خطوبة ابنه إلى أختى سميرة .. ورغم ذلك أعلنت الخطوبة ..

وقالت الأم مقاطعة :

- إن والد بليغ لم يحضر لأن أباك كان رافضا ولم يحضر .. وأنا سأكون مثله لن أشترك فى إعلان خطوبتك مادامت أمه لن تشاركنى ..

وقالت سامية صارخة :

- إنك تحديت رفض أبى .. فتحدى رفض أم أحمد ..

وقالت الأم وهى تنظر إلى ابنتها كأنها تتوسل :

- إن إحساسى بمن نرفضه من ناحيتنا غير إحساسى بمن يرفضنا من ناحيته .. لا أستطيع أن أحتمل أن تتزوج ابنتى وهى مرفوضة من أهل العريس .. لست بنت شوارع أو بنت سايبة حتى يكون من حق أحد أن يرفضك .. أنت التى ترفضينهم لا هم ..

وقالت سامية كأنها تحاول أن تقنع أمها :

- لقد قررنا أنا وأحمد أن نرفضهم كما رفضونا .. وأن نعلن الخطوبة دون موافقتهم حتى نفرض عليهم الواقع إلى أن يستسلموا له .. فساعدينا ..

وقالت الأم صارخة :

- إن أحمد يستطيع أن يفرض ما يريده على أمه وأبيه قبل إعلان الواقع .. إنه ابنهم الوحيد .. وسوف يضطران إلى الاستسلام له .. بل إذا كانا لا يريدان أن يتشرفا بلقائى يستطيع أبوه أن يذهب ليطلبك لابنه من أبيك ماداما لا يريدان أن يطلباك منى .. ويكونان بذلك قد احترماك واحترما العائلة ووضعاك أمام الناس فى صورة مشرفة .. وأنا واثقة أن أباك سيوافق

على زواجك من أحمد لأن أباه معروف وثرى ..

وقالت سامية ساخطة :

– إن البنت تنسب إلى أمها قبل أن تنسب إلى أبيها .. ولن يذهب منهما أحد ليطلبنى من أبى إلا إذا كان معترفا بأمى ..

وقالت الأم فى إصرار :

– إذا أعلنتما الخطوبة وحدكما بعيدا عن أهله فلن أشترك معكما فى هذا الإعلان بل لن أعترف بهذه الخطوبة .. حتى لا أطلق حولنا كلام الناس أكثر مما تكلموا .. هل تعلمين ما يمكن أن يقوله الناس .. سيقولون إنى علمتك ودربتك وخططت معك حتى خطفنا أحمد من أهله ليخطبك .. لا تعرضينا كلنا لفضيحة جديدة .. تكفى فضيحة أمك القديمة .. وكل ما أطلبه منك هو أن تؤجلا أنت وأحمد إعلان الخطوبة إلى أن يقنع بها أهله .. وأنا واثقة أنه سيصل إلى إقناعهم ..

وقالت سامية وخواطرها تشرد فكرها :

– سأقول لأحمد وأسمع رأيه ..

وهمت أن تخرج من الغرفة عندما دخلت أختها الكبرى سهير وحاولت أن توقفها قائلة :

– ما هى الحكاية ؟ .. سمعت كلاما من خلف الباب .

وأزاحت سامية أختها سهير عنها وهى تصيح فى عنف :

– دعينى ..

* *

وخرجت سامية وألقت سهير نفسها على المقعد أمام أمها ورفعت

ساقيها وألقتهما فوق مسند المقعد وتركت ثوبها ينزلق فوقها ويعرى ساقيها كعادتها .. وقالت فى فتور :

– ما هى الحكاية .. فيم كنتما تتحدثان كل هذا الحديث الطويل ..

وقالت الأم وهى سارحة كأنها تحدث نفسها عن المشكلة الجديدة :

– إن أحمد يريد أن يزورنى ليطلب منى يد أختك سامية ..

وأسقطت سهير ساقيها من فوق مسند المقعد وقفزت واقفة وهى تصيح كأنها جنت :

– هل تعلن خطوبة الأختين قبل أن تعلن خطوبتى وأنا الكبرى .. هل يريدان أن يعلنا أنى أنا الخيبة بينهما التى لا يتقدم أحد لخطبتها .. ألا يراعيان أنى يجب أن أخطب قبلهما حتى لو اضطرا إلى تأجيل إعلان خطوبة كل منهما .. لقد احتملت خطوبة سميرة قبلى .. تحملت وأنا أرثى حظى .. ولكنى لن أحتمل خطوبة سامية .. وسأترك البيت .. لا أعيش معكن وأنا مظلومة .. وإذا كنت ستقولين إنهما أشطر منى فأنت المسئولة عن شطارتى .. هاتى لى من يخطبنى إذا كنت أنا لا أستطيع ..

وقالت الأم وهى تنظر إلى ابنتها فى إشفاق ساخر :

– أنت خيبة فعلا .. وتعتبرين ابنة فاشلة .. فاشلة فى الدراسة وفاشلة فى الزواج .. وأنا أترك لك الحرية مع صديقتك نيفين التى لا أحبها وأخاف عليك منها .. وكل يوم تعودين إلى لتحدثينى عن شاب جديد جلست معه أو رقصت معه .. ولكن لا أحد ممن حدثتنى عنهم جاء يطلب يدك منى أو حتى وعد بالزواج .. ولكنى أعذرك .. فربما ورثت عنى الفشل فى البحث عن زوج .. فإنى أيضا فشلت فى الزواج ممن أردت أن أتزوجه .. اهدئى يا ابنتى .. ولا تلومينى كأنى قصرت فى حقك .. إنى لم أختر لأختيك من جاء يطلبهما .. كل منهما اختارت لنفسها خطيبها ..

وصاحت سهير بأعلى صوتها :

– أنا لست فاشلة .. ولم أفشل فى اختيار من أتزوجه .. ولكن مزاجى غير مزاج أختى الاثنتين .. لا يمكن أن أختار واحدا من عينة من اختاراه .. وقد اخترت فعلا وإن لم أنته بعد إلى قرار .. وستعلمين به قريبا ..

وقالت الأم فى حدة :

– على شرط ألا تتم خطوبتك وزواجك سرا .. كما تريد أختك .. إنى أرفض مثل هذا السر أو مثل هذه الفضيحة ..

وقالت سهير محتدة :

– ليس فى حياتى أسرار .. ولن تكون فيها أسرار .. وأنتن تلمننى لأنى لا أحتفظ لنفسى بأسرار وتتهمننى بأنى مفضوحة .. إنى أفضل أن أكون مفضوحة على أن أرتكب البلاوى فى السر ..

وكانت سهير قد رسبت هذا العام فى امتحان الثانوية العامة .. وهو ثالث عام ترسب فيه .. وهى تعتقد أنها كانت تستطيع أن تنجح ولكنها لا تحس بحاجتها إلى هذه الشهادة .. إن صديقها « ميدو » يقول إن الشهادات المدرسية والجامعية ليس لها قيمة إلا قيمة ورقة تزكية لنيل وظيفة فى الحكومة .. ولأنه لا يريد وظيفة فى الحكومة فهو ليس فى حاجة إلى الحصول على مثل هذه الشهادة .. وقد وصل إلى أن أصبح طالبا فى كلية التجارة ووصل إلى السنة الثانية ولكنه اكتشف إن المواد التى تقدم إليه ليدرسها ويمتحن فيها هو ليس فى حاجة إليها كما يتصور مستقبله فامتنع عن الدراسة وعن دخول الامتحان .. ولم يدخل جامعة أخرى ولا امتحانا آخر لأنه لم يجد بين كل كليات الجامعة حتى الجامعة الأمريكية ما يحس بحاجته إلى دراسته .. لقد قرر أن يعتمد على نفسه فى استيعاب دراسة

ما يريد .. وهو يريد أن يكون رجل أعمال حرا .. وقد قال لها إن والده حكى له أن المعلم محروس البيضانى صاحب أكبر وأشهر مطاعم الكفتة والكباب كان طالبا فى المدرسة الابتدائية ولكنه لم يهتم بنيل شهادة الابتدائية وترك المدارس ليتفرغ مع والده للكفتة والكباب .. يكفيه أنه تعلم القراءة والكتابة .. والباقى يتعلمه فى السوق .. وقد استطاع بعد أبيه أن يرفع من مطاعم الكفتة والكباب حتى أصبح أشهر المشاهير وأصبح مليونيرا .. ووالده الذى أتم دراسته الجامعية ووصل إلى أن أصبح وكيل وزارة لا يصل قيمة مرتبة فى شهر ما يكسبه محروس البيضانى فى يوم أو ربما فى ساعة .. ثم حكى لها حكاية عباس محمود العقاد .. إنه عبقرى العباقرة فى تاريخ كتاب اللغة العربية .. ورغم ذلك فهو لم يدخل الجامعة ولا حتى المدارس الثانوية ولم يحاول أن يحصل على أى شهادة تعليمية .. لماذا ؟ .. لأنه لم يجد فى كل ما يدرس فى المدارس والجامعات ما يحقق ما يحتاج إليه فاعتمد على نفسه فى البحث عن العلم حتى أصبح عبقرى العباقرة .. ثم إن أكثر أصحاب الملايين فى أمريكا وفى أوروبا .. أى فى الدول المتقدمة .. بدأوا كباعة صحف مشردين فى الشوارع . وكانوا لا يقرأون إلا ما يريدون قراءته ، ولا يهتمون إلا بدراسة السوق الذى يجذبهم .. ولكنهم لا يحاولون أبدا الحصول على شهادة جامعية .. إن الشهادات الدراسية الرسمية توازى شهادة حسن السير والسلوك ، معظم من يحصل عليها لا يمتاز بحسن السير والسلوك ولكن الحكومة تعطية الشهادة بأنه نظيف ..

وكانت سهير تستمع إلى كلام ميدو وتقتنع به .. والبنت كالولد .. من حقها ألا تدرس أو تحصل على شهادة إلا فيما تقتنع بأنه يهمها وأنها فى حاجة إليه .. وهى ليست فى حاجة إلى شهادة الثانوية العامة .. وهى لم تكن تتظاهر بأنها تذاكر دروس المدرسة إلا مرضاة لأمها .. بل لم تكن تدخل الامتحان إلا وهى تعلم مقدما أنه لا يهمها أن تنجح إلا مرضاة لأمها

أيضا واتقاء لثورتها .. وكل النساء المشهورات الناجحات لم يحصلن على شهادات من المدارس أو من الجامعة حتى النساء اللاتى دخلن التجارة وفتحن « بوتيك » ليس مع إحداهن شهادة جامعية ولا حتى شهادة الثانوية .. ويكفيهن أنهن يقرأن ويكتبن .. يقرأن ما يرون قراءته ويكتبن ما يرون كتابته لا ما تفرضه عليهن الحكومة فى مدارسها ..

و« ميدو » هو واحد من أفراد شلة الأولاد والبنات التى تحيط بصديقتها نيفين .. وهى شلة منقادة انقيادا تاما إلى المساواة بين الولد والبنت .. كل ما يريده الولد من حق البنت أن تريده .. وليست فقط المساواة فى الحق بل أيضا فى اللا حق .. أى لو أخذ الولد كل ما فى البنت لأنه يريده فمن حق البنت أيضا أن تأخذ كل ما فى الولد مادامت تريده .. وهو ما يعتبره المجتمع لا حق .. ولا يصبح حقا إلا بعد استيفاء كثير من الإجراءات منها إعلان الزواج .. ومن الغريب أن هذا المجتمع لا يحاسب الولد إذا أخذ بنتا بلا حق ولكنه يحاسب البنت إذا أخذت ولدا ويتهمونها بجريمة كبيرة .. يسمونها جريمة الزنا .. لماذا هذا التفريق بين البنت والولد مع أن الله خلقهما بطبيعة واحدة .. إن جمال البنت الذى يغرى الولد هو نفس الإغراء الذى يغرى البنت بجمال الولد الشاب أو الرجل .. والمتعة التى تدفع الولد هى نفس المتعة التى تدفع البنت .. لقد قيل إن الفارق بين البنت والولد هو أن البنت هى التى تحمل .. ولا يمكن أن نعود إلى عصر الهمجية ونترك البنت تحمل دون أن ننظم المجتمع كله ونحدد ما هو حق وما هو ليس حقا .. وهذا كلام ردت عليه حبوب منع الحمل .. إن البنت تستطيع الآن أن تتمتع بكل طبيعتها دون أن تحمل .. ومعظم بنات الشلة يواظبن على تناول حبوب منع الحمل .. لأنهن لا يستطعن أن ينجبن أولادا بلا زواج فحسب بل لأنهن لا يردن الزواج الآن .. ويحرصن على التمتع بحريتهن إلى أن يصلن إلى السن التى تدفعهن للزواج أو إلى أن يلتقين بمن يقنعهن بالزواج ..

وسهير ليست من هاتيك البنات .. إنها لم تصل إلى حد تناول حبوب منع الحمل .. إنها لا تعطى من نفسها إلى هذا الحد .. وتستطيع دائما أن تقاوم شهوتها إلى استكمال المتعة مهما أعطت .. ربما لأنها تحب أمها ولا تريد أن تفقد أملها فيها .. رغم أنه أمل ليست سهير مقتنعة به .. كل ما تعودت عليه سهير هو أن تفرح بنجاح إغرائها للشبان .. وكلما انتهت من إغراء شاب بحثت عن شاب آخر تغريه .. ولم تلتق بشاب يدفعها إلى الاكتفاء بإغرائه وحده .. بل لم تلتق بمن يدفعها إلى تركيز كل إحساسها عليه حتى تتمنى أن تتزوجه .. إنها لا تريد أن تتزوج الآن .. لا تريد أن تفقد حريتها بالزواج ..

ولكنها بعد أن خطبت أختها سميرة .. بدأت تلوم نفسها .. إنها الأخت الكبرى وكان يجب أن تكون أول من تعلن خطوبتها .. وبدأت تفكر فى البحث عن زوج .. ولكنه كان تفكيرا بضعف وهى تعيش جو صديقتها نيفين .. ولكن .. بعد أن سمعت أن أحمد تقدم لخطبة أختها الصغرى سامية ثارت على نفسها .. يجب أن تتزوج .. حتى لو اضطرت أن تبعد وتقاوم هذه الشلة التى لا تهتم بالزواج .. ولكن .. كيف تبحث عن الزوج .. إنها تعرف الكثيرين من الشبان ومن الرجال الذين تعدوا شبابهم .. فكيف تختار بينهم ..

إنها بعد أن سقطت فى امتحان الثانوية العامة قررت أمها أن توقف إرسالها للمدارس وعرضت عليها أن ترسلها إلى معهد تتعلم فيه الخياطة .. إن احتراف الخياطة لم يعد يقلل من قيمة المرأة .. وهناك سيدات كثيرات يحترفن الخياطة رغم أنهن من عائلات كبيرة ومتزوجات ولسن فى حاجة إلى اكتساب لقمة العيش .. ولكن سهير رفضت أن تتعلم الخياطة .. إنها تريد أن تتعلم أشغال الفنادق .. وتعمل فيها .. وتستطيع أن تتدرب ثلاثة أشهر فقط فى أحد الفنادق وتعين جرسونة .. كثيرات من الجرسونات فى مطاعم أو كافتريات الفنادق الكبيرة من بنات العائلات .. إنها مهنة ممتعة

توفر لك أوسع فرجة على الناس .. ولكن سهير لا تريد أن تكون جرسونة .. تريد أن تعمل على أى مكتب من مكاتب فندق كبير .. ولو أن مثل هذا العمل يحتاج إلى مدة تدريس أطول .. ليكن .. واستطاعت أن تلتحق بفندق هيلتون .. إنه فندق له عظمته واحترامه .. ولكنها بعد شهور اكتشفت أن فندق شيراتون أخف دما فانتقلت إليه .. وقد بدأت بالتدريب فى الفنادق دون أن تفقد هواية إغراء الشبان والرجال .. وقد استطاعت إغراء الكثيرين .. فمن منهم تختاره وتركز عليه حتى تتزوجه ..

الواقع أن الوحيد الذى تحس بقربه إليها هو ميدو .. واسمه الكامل محمد مرتضى مسعود .. وقد بدأت بأن نجحت فى إغرائه ولكن نتيجة هذا الإغراء تطورت إلى نوع من الراحة وسهولة الاقتناع .. إنها دائما ترتاح إلى لقائه وتقتنع بكل ما يقوله .. إنه يعبر عن كل أحلام الجيل الجديد ..

وارتدت سهير ثيابها وغطت نفسها بكل مظاهر التجمل ثم اتجهت إلى الباب وهى تدق الأرض بخطواتها كأنها تعبر عن إصرارها وصاحت :

– أنا خارجة يا ماما ..

ولم تنتظر رد أمها قبل أن تصفق الباب وراءها ..

وأمها سعاد تطلق عينيها وراءها وهى تتنفس حيرتها وجزعها على بناتها .. إنها أصبحت محرومة من كل شىء لنفسها .. كل دقيقة من يومها لبناتها .. حتى بعد أن يخرجن ويتركنها وحيدة وتقوم تعد البيت أو تدخل المطبخ لإعداد الطعام لا تفكر فى شىء لنفسها .. هذا ما تريده سهير .. وهذا ما تريده سميرة .. وهذا ما تريده سامية .. أما هى فقد أصبحت محرومة من شىء تريده .. حتى من فستان تبذل مجهودا فى اختياره وتطريزه لتتجمل به لم تعد تحس يوما بأنها فى حاجة إلى فستان رغم قدم كل فساتينها .. لا تفكر إلا فى فساتين البنات وكيف تجعلهن أشيك وأرقى بنات مصر .. إلى أن تثور عليها البنات يوما ويدفعنها إلى اختيار ثوب جديد

لها .. إنهن يقلن إنهن لن يستكملن شياكتهن إلا إذا كانت أمهن شيك .. ثم مشاكلهن .. مشاكل البنات .. مشكلة سهير .. ومشكلة سامية .. إنها لم تستطع أن تحل أى مشكلة إلا مشكلة سميرة ..

* *

إلى أن فوجئت يوما بابنتها سميرة تدخل عليها وبين شفتيها هذه الابتسامة الهادئة العاقلة التى عرفت بها .. وبعد أن قبلتها وجلست ملتصقة بها .. قالت :

– تصورى .. إن بليغ يريد أن يتم زواجنا ..

وقالت الأم فى دهشة :

– متى تريدان الزواج .. ؟

وقالت سميرة من خلال ابتسامتها وفى صوت كأنه ينبض بالحياء :

– بعد أسبوع .. أو بعد شهر ..

وقالت الأم فى جزع :

– لماذا .. لقد كان موافقا على أن ينتظر إلى أن تنتهى من الجامعة وتحصلى على شهادتك ويحصل هو على الدكتوراه .. فماذا غير رأيه حتى يتعجل الزواج ..

وقالت سميرة بحياء ومن خلال ابتسامتها :

– له حق .. ولعله حقى أنا أيضا .. فمن الصعب احتمال فترة الخطوبة مدة طويلة .. كل منا يريد أكثر .

وابتسمت سعاد مع ابتسامة ابنتها كأنها تعذرها وتوافقها وقالت :

- وهل وجد أين تتزوجان .. أى هل وجدت شقة تضمكما ؟

وقالت سميرة ساخرة :

- كيف يجد شقة يا ماما .. إننا لم نفكر مجرد تفكير فى البحث عن شقة .. وأنت تعلمين أنه يقيم فى نفس الشقة التى أقام فيها منذ كان لا يزال طالبا فى الجامعة .. وهى شقة غرفة واحدة وفى حارة متعبة من حوارى الجيزة الداخلية .. وقد خطر على بالى أن نتزوج فى هذه الشقة .. وأعانى معه كل ما يعانيه فهو فى الواقع يستحق أن أعانى من أجله .. ولكنه لا يقبل أن يهبط بى إلى حد المعاناة .. وأنا أيضا كنت أخاف ألا أحتمل هذه الشقة .. إلى أن وصلنا إلى فكرة جديدة .. سأبقى أنا فى البيت .. ويبقى هو فى شقته .. ولكننا نتزوج .. هذا هو الحل الوحيد لأنى لا أستطيع أن أطلب منك أن تسمحى بأن نقيم نحن الاثنان هنا .. فالبيت ليس فيه إلا غرفتا نوم .. غرفتك وحجرتنا ..

وقالت الأم فى دهشة حازمة :

- كيف يمكن أن يسمى هذا زواجا .. أين بيت الزوجية .. ؟

وقالت سميرة كأنها تشفق على أمها وعلى نفسها :

- يا ماما قدرى الحالة .. إنى أعرف بنات كثيرات تزوجن بلا بيت للزوجية .. أصبحت الزوجة ليست فى حاجة إلى بيت بعد أن وصلت الحالة إلى ما نحن فيه ..

وأحست سعاد كأن الدنيا تدور أمام عينيها حتى تكاد يغمى عليها .. وقالت وهى تضغط على جبينها بكفها تصد الصداع الذى بدأ يملأ رأسها .. وقالت وصوتها يتهدج :

- سميرة .. ألغى هذا الموضوع الآن .. ولا تقدمى على شىء قبل أن أوافق عليه وتذكرى أن خطوبتك لبليغ لم تعلن إلا بعد أنْ كنت أنا قد

اتخذت القرار وأعددت له .. وكذلك الزواج لن يتم إلا بعد أن أتخذ فيه قرارى ..

وقالت سميرة وهى مشفقة جزعة على أمها :

- موافقة يا ماما .. ولكن .. ما بك .. هل آتى اليك بأسبرين ..

وقالت الأم وهى تلقى بنفسها راقدة :

- ايتينى بأسبرين يا ابنتى ..

(١٠)

ومرت شهور وسعاد تعيش أيامها وساعات عمرها لبناتها وهى لم تستطع حتى الآن أن تحل أى مشكلة من مشاكلهن .. كل ما استطاعته هو أن تدفع كل بنت إلى أن تؤجل حل مشكلتها وتعطيها وقتا أطول للبحث والتفكير إلى أن يحلها حلال .. سامية الابنة الصغرى استطاعت أن تؤجل خطوبتها التى يصر عليها صديقها أحمد .. وسميرة لم تعد تحدثها عن مشروع إتمام زواجها بخطيبها بليغ .. وابنتها الكبرى سهير لاتزال تعيش حياتها الشاذة وقد اضطرت أن تترك لها مزيدا من الحرية .. إنها تخرج من البيت صباحا ومساء وقد تأخرت مرات فى العودة إلى البيت إلى ما بعد منتصف الليل .. وقد بدأت تحدثها كثيرا عن صديقها ميدو .. وقد بدأت تسميه باسمه كاملا .. محمد مرتضى مسعود .. كأنها تفرض عليها وعلى العائلة احترامه .. وقد قالت لها يوما :

– محمد سيزورك قريبا ..

وقالت سعاد وعيناها تنطلقان بالأمل :

– هل يزورنا ليطلبك ..

وقالت سهير وهى تضحك ضحكة تعلن بها غرورها بنفسها وأنها ليست أقل من أختيها اللتين جاءهما خطاب :

– طبعا ..

ولكن ميدو .. أو محمد .. لم يأت لزيارتها حتى اليوم ..

وسعاد تحس بأن ليس فى العالم كله أم تعانى ما تعانيه هى فى تربية بناتها وإعدادهن لمستقبلهن .. ربما لأنها أم وحيدة ليس لها رجل .. إن مجرد وجود الرجل فى البيت يضفى على المشاكل لونا آخر يخفف من حدتها ويصل بها إلى حل .. وكان يخطر على بالها أحيانا أن تتصل بزوجها السابق عزيز .. أبو البنات .. وتستغيث به لحل مشكلة .. ولكن يأسها منه يذيب هذا الخاطر .. إنها تعرفه .. إنه يحس ببناته كأشياء كان يملكها ثم لم يعد فى حاجة إليها فرماها فى مخزن بعيد .. رماهن إلى أمهن .. حتى عندما تحدته وأعلنت خطوبة ابنته سميرة رغم رفضه .. لقد تعمدت أن تبلغه أن الخطوبة قد أعلنت فلم يفعل أكثر من أن لوى شفتيه احتقارا وأطلق سيلا من كلماته البذيئة يسبها ويسب بناتها دون أن يتحرك حركة أو يتخذ أى اجراء لإنقاذ ابنته مما يعتقد أنه ليس فى صالحها .. وليس فيه ما يشرفه .. إنه أب لم يطلق زوجته وحدها بل طلق معها بناته ولم يعد يربطه بهن إلا المبلغ الذى يرسله لهن فى كل شهر .. ورغم مرور كل هذه السنوات لم يزد على هذا المبلغ مليما واحدا ..

وخطر على بالها مرات أن تستغيث بحبيبها محمود .. إنه ليس حبيبا سابقا .. فهى لاتزال تحبه رغم مرور كل هذه السنوات منذ هجرته .. وهى تحس أنها طوت هذا الحب وغطسته فى أعماق قلبها ولكنها لا تزال تعيش على مقاومته حتى لا يطفو إلى سطح قلبها فتعود إليه .. ولو كانت مطلقة الحرية ليست مرتبطة بمجتمع ولا تحمل هم بناتها لما قاومته .. ولا شك أن محمود أيضا لا يزال يحبها .. إنه مستمر فى أن يرسل لها كل شهر مع سائقه الظرف المغلق الذى كان يسميه المصروف .. مصروفها .. الظرف الذى يحوى مبلغا أكبر مما يرسله زوجها السابق عزيز لبناته .. بل إن محمود لا يزال يتذكر بعض المناسبات كعيد ميلادها فيضيف إلى المبلغ الذى يرسله مبلغا ثمنا لهدية .. لولا محمود لما استطاعت أن تعيش هذه الحياة هى وبناتها .. وهى لا تزال تحادثه فى التليفون كل شهر مرة

ولا تزال تقاوم أن تحادثه كل يوم .. ويرد عليها بصوته النظيف من كل ما يشوه الأصوات ويرن فى أذنها كأنه لحن حب .. ولكنهما لا يجدان موضوعا بينهما يتحدثان فيه فتحدثه كثيرا عن بناتها ولكنها لا تذكر له تفاصيل ما تعانيه .. إنها لا يمكن أن تحمله مزيدا من مسئولياتها وإن كانت أحيانا تسمع منه آراء تعينها .. إنها لا تناقش آراءه بل تقتنع وتستسلم لها فورا كأنها آراء تفرح بها .. آراء زوج غائب لا مجرد حبيب مهجور ..

ويبدو أن البنات خلال هذه الشهور قررن ألا يكتفين بالاعتماد على أمهن فى تحمل كل منهن مشكلتها .. أصبحت كل منهن تفكر لنفسها وتتصرف باقتناعها وقراراتها دون انتظار قرار أمها .. ويبلغن أمهن بعد أن يكن قد تصرفن فعلا ..

وقد فوجئت بابنتها الصغرى سامية تدخل عليها وهى تبتسم ابتسامة مرحة وتخفى يديها وراء ظهرها قائلة :

- ماما .. أغمضى عينيك ..

ونظرت سعاد إلى ابنتها فى تساؤل ثم أغمضت عينيها وهى تبتسم فى حيرة إلى أن قالت لها ابنتها :

- افتحى عينيك ..

وفتحت سعاد عينيها ويد ابنتها ممدودة أمامها وفى أصبعها خاتم جديد لم تره من قبل .. وقالت دون أن تفرح :

- ما هذا ؟

وقالت سامية والفرحة تزغرد مع صوتها :

- هذا خاتم أحمد ..

وجحظت عينا الأم وقالت مذعورة :

- هل أعلنتما خطوبتكما من ورائى ؟

وقالت سامية وهى لاتزال مرحة :

- يا ماما .. ياحبيبتى .. كيف تعلن خطوبة دون أن تشهرها العائلة .. وكل ما حدث أنى استطعت إقناع أحمد بأن الخطوبة لا يمكن أن نعلنها ، ولا يمكن أن يأتى لزيارتك ليطلبنى إلا بعد موافقة عائلته كما لا يستطيع أن يأتى إليك ليطلبنى منك إلا ومعه أمه كما قررت أنت .. وقد قررنا أن نأخذ أفراد العائلة على قدر عقليتهم .. ونحن فى الواقع لا نهتم .. فإن ما نريده نستطيع أن نحققه .. ولكننا قررنا أيضا أن نعيش هو وأنا كخطيبين .. لا نعلن الخطوبة ولكننا مخطوبان .. ولذلك قررنا أن نلبس الخواتم .. وتعمدنا ألا تكون كخواتم الخطوبة العادية .. والخاتم كما ترين فضة لا ذهب .. وأعرض من خواتم الخطوبة المعروفة .. هل تدرين كم ثمنه .. عشرون جنيها فقط .. دفعها خطيبى أحمد ..

وقالت الأم فى مرارة :

- واسمه مكتوب على الخاتم ..

وقالت سامية فى بساطة :

- طبعا .. واسمى أنا أيضا مكتوب على الخاتم فى أصبعه .. إن كثيرات من البنات تسجل اسم حبيبها على خاتم دون أن يكون خاتم خطوبة ..

وصاحت الأم فى حدة :

- الخطوبة لا تتم إلا بإعلانها .. وما فعلتماه هو مجرد لعب عيال ..

وقالت سامية ساخرة :

- دعينا نلعب ونتمتع باللعب .. إنها لعبات الحب ..

وقالت الأم مستمرة فى ثورتها :

- ويبقى أحمد يلعب معك ويلعب بك ..

وقالت سامية بصوت مرتفع كأنها تدافع عن حبيبها :

- أحمد لا يكف عن الخناقات مع أمه وأبيه حتى يتقدما لخطبتى .. وخاصم أخته لأنها لا تقف بجانبه .. ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى حد الخروج من البيت والمعيشة وحده حتى تستجيب الأم له .. فهو كما تعلمين يعمل مع أبيه ولا يريد أن يفقد العمل معه .. وهو واثق أن عائلته ستنتهى إلى الموافقة .. ونحن نستطيع أن ننتظر موافقتها فلا يزال أمامنا وقت طويل .. لسنا فى عجلة .. وكل ما كان يضايق أحمد هو اضطراره إلى التردد على الجامعة ليطمئن على .. أو على الأصح ليطمئن على حبه .. وهو كما قلت لك غيور .. وحتى يبرر تردده على أمام الطلبة .. فكرنا فى أن نضع فى أصبعنا الدبلتين المتشابهتين حتى يعتقدوا أننا مخطوبان .. وقد فعل أحمد أكثر من ذلك .. لقد دخل الجامعة مرة ثانية بحجة دراسة الهندسة الميكانيكية بعد أن انتهى من الهندسة المعمارية .. وأنا أعلم أنه لا تهمه دراسة الميكانيكا ولكنه فقط يريد أن يكون معى داخل الجامعة وخارجها .. رغم أنه ليس مواظبا على تردده كطالب منتظم لكثرة أعماله فى شركات أبيه التى يبنى بها مستقبله .. ومستقبلى ..

وصاحت الأم :

- اسمعى يا بنت .. مهما فعلت فلن أعترف بك ولن أحس بك كخطيبة لأحمد .. ومهما قلت فأنت لا تقولين ما يكفى لإعلان الخطوبة .. ووضع دبلة فى أصبعك لا يكفى لتكونى مخطوبة .. إن الخطوبة هى الانتقال إلى مرحلة كاملة من مراحل حياتك .. مرحلة لها مطالبها .. وأنت لم تنتقلى بكل ما تفعلينه أنت وأحمد إلى هذه المرحلة .. ولن أفرض عليك أن ترمى

هذه الدبلة من أصبعك .. ولكنى لن أحترمها وأعترف وأفرح بها كدبلة خطوبة .. وأنت حرة ..

– اطمئنى يا ماما .. شاركينى اطمئنانى على نفسى ..

هذا ما فعلته سامية حتى اليوم ، وأمها يخطر على ذكرياتها أنها هى أيضا كانت تضع خاتم حبيبها محمود وتعتبره خاتم خطوبة بل خاتم زواج .. ورغم ذلك لم تخطب له ولم تتزوجه .. ربنا يستر .. ولكن ما فعلته ابنتها الأخرى سميرة كان أبشع .. كان مصيبة ..

* *

وكانت سميرة قد عادت إلى البيت فى ليلة تأخرت فيها عن موعد عودتها الذى تحرص عليه .. وحيت ثم جلست إلى المكتب وهى تقلب فى أوراق .. ولكن أمها لاحظت كأنها فى حالة عصبية ولا تستطيع أن تتفرغ للأوراق التى فى يدها .. وهى ترفع عينيها تنظر إلى الأم ثم تعود وتخفضهما فى عصبية وتلقيهما بين أوراقها .. إلى أن هبت فجأة وأبعدت أوراقها عنها وألقت بالقلم الذى كان فى يدها .. وقالت بصوت مرتعش وإن كانت تحتفظ بهدوئه :

– ماما .. لقد تزوجنا أنا وبليغ ..

وقالت الأم كأنها قد أصيبت بحشرجة فى صوتها :

– ماذا تقولين ؟

وعادت سميرة تكرر بهدوئها المرتعش :

– تزوجنا .. أنا وبليغ ..

وزفرت الأم كأنها تحادث نفسها :

– متى .. وكيف .. ماذا حدث ؟

وقالت سميرة وهى أكثر هدوءا :

– تزوجنا اليوم .. (واستطردت كأنها لا تريد أن تترك لأمها سؤالا آخر) .. كنت عنده فى شقته .. وأنا أتردد عليه كثيرا هذه الأيام لأساعده فى إعداد رسالة الدكتوراه .. إنى أتولى البحث له داخل المراجع التى يحتاج إليها .. والواقع أن كل مرة أذهب اليه فى شقته تنتهى بالعذاب .. عذابى وعذابه .. نتعذب لأننا لسنا متزوجين .. وكنت أخرج من الشقة وأنا أجرى كأنى أهرب منه .. أهرب من العذاب الذى ليس من حقى أن أتخلص منه .. وقد سبق أن قلت لك إننا فكرنا أن نتزوج ويقيم كل منا فى مكانه .. لأنى لن أحتمل الإقامة فى شقته .. وشقتنا ليس فيها غرفة نتزوج فيها حتى أطلب منك أن أتزوج هنا إلى أن تتغير أحوالنا ونستطيع أن نجد شقة لنا وحدنا .. ولكنك رفضت أن أتزوجه ويقيم كل منا وحده .. وتحملت من أجل خاطرك عذاب كل هذه الشهور .. ولكنى اليوم لم أستطع أن أستمر فى التحمل .. كنا قد وصلنا إلى حالة صاح فيها بليغ .. سأطلب مأذون الحارة .. وسكت ولم أحاول أن أهرب منه .. وتركنى ونزل إلى الحارة بينما وجدت نفسى مرتاحة كأنى أعد نفسى للساعة الغالية .. ساعة الزفاف .. إلى أن عاد بليغ ومعه مأذون الحى والمعلم محروس صاحب المقهى الذى يقع على ناصية الحارة .. وواحد من الجيران لا أعرفه .. وكتبنا العقد .. كتبنا الكتاب .. أصبحت زوجة .. وبعد أن انصرف المأذون والشاهد تخلصت أنا وزوجى من العذاب ..

ولم تستطع سعاد أن تنطق بكلمة وانهمرت دموعها ثم اشتد بكاؤها وخلجاتها تتمزق ..

– هذا ما كان يجب أن يحدث يا ماما .. وكان لا يمكن أن أترك نفسى لرجل بلا زواج حتى لو كان حبيبى .. باركى لى ولبليغ .. لقد حسبنا حساب كل شىء ..

وقالت الأم من خلال دموعها المنهمرة :

– لقد أعلنت خطوبتك دون حضور أبيك .. واليوم تتزوجين دون أن يكون معك أبوك ولا أمك .. إن الله يعاقبنى .. كما جرمت أباك يحرمنى .. كيف أواجه الناس .. كيف أرفع رأسى بينهم .. كيف أحس بأنى أستطيع أن أكون أما ولى حق باقى الأمهات .. حقى أن أفرح بزفاف ابنتى أمام كل الناس ..

وقالت سميرة وهى لاتزال محتضنة أمها :

– اطمئنى يا ماما .. قلت لك إننا حسبنا حساب كل شىء .. وسنخفى خبر زواجنا عن كل الناس إلا سكان الحارة طبعا .. وسنبقى كما نحن خارج الحارة .. مجرد الخطوبة التى سبق أن أعلناها .. إلى أن يأتى اليوم الذى نقر فيه إعلان زواجنا .. وسيكون قريبا فقد قرر بليغ أن يقبل التدريس فى جامعة المغرب .. ولكنه ينتظر أن يحصل على الدكتوراه ليكون هناك فى درجة مدرس .. وسيحصل على الدكتوراه بعد بضعة شهور .. ويسافر وأسافر معه .. بل إننا قررنا أن نقيم حفلا كبيرا قبل السفر ندعو إليه كل الناس ونعلن زواجنا .

وقالت الأم كأنها تولول :

– كيف تقيمان حفلا والكتاب قد كتب والزفاف قد تم ..

وقالت سميرة مبتسمة تخفف عن أمها :

– الناس لا تقرأ الكتاب ولا تفرض عينيها على الزفاف .. إلا إذا كنت فلاحة يا أمى وتريدين أن أدخل مع زوجى ثم يخرج المنديل الذى يحمل بكارتى إلى الناس .. وأنت لست فلاحة يا أمى .. وكل ما أطلبه منك ألا تقولى لأحد إنى قد تزوجت ولا لطنط هدى .. ولا حتى لأختى سهير وسامية ..

وقالت الأم فى حدة :

– إنى قد أخفى الخبر عن صديقتى هدى .. رغم أنها كل من لى فى الدنيا وليس بينى وبينها أى سر .. ولكن يجب أن تعلم أختاك بالخبر .. لا أطيق أن يجهل أحد منا شيئا عن الآخر ..

وقالت سميرة فى هدوء :

– حاضر .. ولكن اتركينى أنا أقول لهما الخبر .. فلا أدرى كيف يفسرانه إذا سمعوه منك ..

وقالت الأم كأنها تذكرت شيئا :

– وأبوك ..

وقالت سامية وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة :

– لقد أعلنت خطوبتى دون موافقته .. ولا يهمنى أن أتزوج دون أن يوافق .. ولكنى سأبلغه الخبر ..

وعادت الأم تبكى .. تبكى أنها أم فاشلة .. لم تستطع حتى أن تفرح بأول زواج لبنت من بناتها .. ومرت أيام وهى لا تكف عن البكاء .. والبيت كله ليس له حديث إلا زواج سميرة .. وكان بليغ يتردد عليهم أحيانا ولكنهم لا يستقبلونه كزوج لسميرة .. ولا يسمحون له بما يسمح للأزواج .. إنه ليس زوجا لسميرة إلا فى الحارة ..

إلى أن وقعت اللطمة ..

المصيبة الكبرى ..

• •

وكان قد مضى عام وهى تترك لابنتها الكبرى سهير مزيدا من الحرية بحجة أنها أصبحت فتاة عاملة فى الفندق الكبير .. وقد كانت سهير نفسها تنسب كل تصرفاتها إلى عملها .. فهى تغيب عن الغداء مع العائلة لأنها بحكم العمل تناولت غداءها فى الفندق .. وتغيب عن العشاء وتتأخر عن العودة إلى البيت لأنها كانت تعمل فى الفندق .. وكانت كما هى .. ولكنها بدأت تتباهى أكثر بأنها جميلة وجمالها يغرى أى رجل .. حتى وهى فى داخل البيت مع أختيها أصبحت كأنها تتعمد التباهى عليهما بهذا الجمال والإغراء .. وأحيانا تتباهى بحركات ومظاهر ساذجة مضحكة .. لا شك أن عقدتها بأن أختها سميرة سبقتها إلى الزواج وأختها سامية قد سبقتها إلى الخطوبة رغم أنها الأخت الكبرى .. لا شك أن هذه العقدة هى التى أصبحت تدفعها إلى هذا التباهى المفتعل ..

ولم تكن سهير وهى تتحدث مع أمها تطيل فى الحديث عن عملها فى الفندق أو عن نوادر وأحداث هذا الفندق .. ولكنها كانت تحدثها أكثر عن صديقها « ميدو » وتترك أمها تحس وتقتنع بأنها مقدمة على مشروع زواج .. والأم تفرح وتدعو الله أن يحقق هذا المشروع .. ولكن منذ شهرين أو ثلاثة بدأت تتغير كأنه قد طرأ على حياتها شىء جديد .. إنها لم تعد تبالغ فى استغلال حريتها بحجة عملها فى الفندق .. ولم تعد تبالغ فى التباهى بجمالها وإغرائها كما عودتهم .. بل إنها لم تعد تطيق الحديث طويلا فى أى موضوع .. وبدأت الأم تحس كأن ابنتها تعيش سرا من الأسرار .. وسهير كانت دائما الوحيدة بين الأخوات التى تشك الأم فى أنها تخفى عنها شيئا ..

إلى أن كانت ذات ليلة ودخلت الأم سعاد إلى حجرتها ورقدت على فراشها بعد أن أطمأنت إلى أن بناتها الثلاث فى البيت وانتهين من كل احتياجاتهن ودخلن إلى حجرتهن للنوم .. وسعاد تعانى كثيرا إلى أن يشفق النوم عليها ويغمض عينيها .. بل إنها تعودت أن تجلس على السرير

وتراجع حسابات البيت ثم تعيد كل ما حدث لها ولبناتها خلال اليوم ثم تجذبها ذكريات ماضيها لتعيش معها إلى أن يأتيها النوم .. وكانت قد مضت ساعات وهى فى فراشها عندما فوجئت بابنتها سهير تدخل عليها هامسة :

- هل نمت يا ماما ..

وقالت الأم مبتسمة :

- لا يا ابنتى .. خيرا .. لماذا لم يأخذك النوم حتى الآن ويتركك صاحية كما يفعل بى ..

ولم تبتسم سهير مع ابتسامة أمها وعادت تهمس :

- أريد أن أحادثك ..

وأزاحت الأم نفسها فوق الفراش وهى تقول من خلال ابتسامتها كأنها أحست بأن ابنتها تعانى وتحاول أن تخفف عنها :

- تعالى يا سهير .. ارقدى بجانبى وفى أحضانى ..

ومدت ذراعها فوق الوسادة لتلقى عليه سهير رأسها واحتضنتها إلى صدرها وهى تقول :

- تكلمى يا حبيبتى ..

وسكتت سهير برهة ثم انهارت دموعها وبدأت تبكى وترتعش مع بكائها .. والأم تربت عليها والجزع يزحف عليها .. إلى أن قالت سهير من خلال دموعها :

- ماما .. كان يجب أن أقول لك كل شىء ولكنى كنت خائفة ..

وقالت الأم وهى تقاوم جزعها :

- هل تخافين من أمك .. عمرك ما خفت منى ..

وقالت سهير وبكاؤها يهتز بصدرها :

– كنت خائفة عليك .. إن ما حدث لى لم يكن مما تتصورينه أو تنتظرينه ..

وقالت الأم فى رجاء وهى تكاد تبكى مع ابنتها رغم أنها لم تسمع شيئا بعد :

– طمئنينى يا ابنتى .. ماذا حدث ..

ودفنت سهير وجهها فى صدر أمها وهى تقول بدموعها :

– إنى حامل يا ماما ..

وهبت الأم من رقدتها جالسة وشدت ابنتها إليها وهى تلهث صائحة :

– ماذا تقولين ؟

وقالت سهير وهى تحنى رأسها وتمسح دموعها بكفها :

– إنى حامل ..

وصاحت الأم :

– من فعل بك هذا .. ؟

وقالت سهير فى صوت منهار وكأنها تحادث نفسها :

– أنا التى فعلته بنفسى ..

وسيطرت الأم على صرخاتها حتى لا يسمعها أحد من خارج الغرفة وقالت وصوتها الخفيض كأنه سكاكين تنغرز فى لحمها :

– ماذا تقصدين .. ماذا حدث لك بالضبط .. قولى لى كل شىء .. لا تخفى عنى شيئا ..

وقالت سهير وهى تمسح مزيدا من دموعها :

– إنى منذ مدة وأنا أركز كل عقلى وإحساسى على موضوع الزواج .. إنى لم أكن أهتم بأن أتزوج .. كنت سعيدة بحياتى بلا زواج .. ولم أكن أترك لشاب أعرفه فرصة ليطلب زواجى .. ولكن أختاى سميرة وسامية أقنعتانى بأنى يجب أن أتفرغ أنا الأخرى لموضوع الزواج .. يجب أن أتزوج .. واخترت ميدو ليكون زوجى .. إنى أرتاح إليه ويقنعنى بكل كلمة يقولها .. واستطعت أنا أن أقنعه بأنى أصبحت له وحده .. ولكن ميدو لا يريد الزواج ولا يفكر فيه .. إن الحياة فى نظره لم تعد فى حاجة إلى هذا الطابور الذى يسير فيه الناس .. طابور يقف أمام المأذون ليسجل ما يسمى الزواج .. ولكنى كنت مصممة على أن أتزوجه .. وإذا كنت لا أستطيع أن أقنعه بالزواج فإنى استطيع أن أفرض عليه مسئولية تفرض عليه الزواج .. إن ميدو ليس من طبيعته أن يهرب من المسئولية .. وقد وافقتنى صديقتى نيفين على كل ما كنت أفكر فيه وأخطط له .. إلى أن تركت نفسى له .. أنا التى تركت نفسى كأنى كنت أغريه وأحرضه على نفسى .. إلى أن شعرت بالحمل .. لاشك أن ميدو سيحمل معى مسئولية هذا الجنين ويتزوجنى .. ولكنه وبعد أن علم بأنى حامل لا يزال مصرا على رفض الزواج .. لا الزواج منى بل رفض حالة الزواج من أى مخلوقة .. ولكنى بدأت أقاوم يأسى .. إنه قد يضعف ويعدل عن مبادئه عندما يرى بطنى منفوخا ويشفق على .. ولكنه ظل مصرا على رأيه .. إن المسئولية فى نظره هى اتفاق بين طرفين .. وهو لم يتفق معى على أن أحمل منه فهو ليس مسئولا عن هذا الحمل .. وبدأت أتعذب .. ماذا أفعل .. وقد فكرت فى أن أسقط نفسى .. ولكنى فى الوقت نفسه كنت أفكر فى أن أترك نفسى حاملا حتى لو تركت نفسى إلى أن أنجب وليدى .. إن ميدو يستطيع أن يتخلى عن مسئولية زواجى ولكنه لا يستطيع أن يتخلى عن مسئوليته كأب وهى مسئولية تفرض عليه زواجى .. وهذه الحيرة التى تعذبنى هى

التى دفعتنى إلى أن أخفى عنك كل ما حدث لى .. كنت لا أريد أن أصارحك إلا بعد أن أقرر مصيرى بنفسى حتى لا أكون قد استسلمت لرأيك مجرد استسلام .. أو حتى أرفض رأيك وأعذبك بالرفض .. وكنت أعيش فى البيت معكم وبطنى منفوخة أمامكم دون أن أصارحكم بشىء .. ثم لو أسقط نفسى وأنا أخاف عملية الإجهاض فمن يقف بجانبى ويراعينى ويتستر على .. كان يجب أن أصارحك .. فاغفرى لى يا ماما .. اغفرى لى ..

وكانت الأم تسمع وكلها ترتعش .. وأسقطت سهير رأسها على صدرها بعد أن انتهت من حكايتها وعادت تبكى .. ولكنها أزاحتها عن صدرها فى عنف حتى كادت تسقطها من فوق السرير على الأرض .. ويدها مرفوعة تهم أن تضربها أو تخنقها وهى تصيح :

- كيف أغفر لك .. لقد فضحتنى وفضحت البيت كله .. لقد قتلتنى ودفنت أمك ..

ولكن يد الأم توقفت فى الهواء قبل أن تصل بها إلى ابنتها وكأنها تذكرت شيئا .. تذكرت ماضيها .. إن نفس الخطة التى وضعتها سهير سبق أن فكرت فيها هى نفسها عندما نصحتها صديقتها هدى بأن تلد من محمود حتى تفرض عليه الزواج .. وقد قاومت هى هذه الخطة إلى أن رفضتها .. ولكن سهير اقتنعت بها وبدأت تطبقها .. وحتى مجرد الحمل .. لقد سبق لها أن حملت من محمود بلا زواج .. ولكنها لم تتردد كما تتردد سهير وذهبت فورا إلى الطبيب الذى أجهضها .. إن سهير تعيش نفس الحياة التى عاشتها .. ولكن سهير أكثر غباء منها فى مواجهة هذه الحياة وفهمها والتعامل معها .. وإن كانتا قد انتهتا إلى نفس الفشل .. هى فشلت فى زواج محمود وابنتها فشلت فى زواج ميدو .. محمد مرتضى مسعود ..

وأسقطت سعاد يدها قبل أن تلمس ابنتها وقالت فى صوت حزين وهى ترخى عينيها وتتنهد :

- كم مضى منذ شعرت بالحمل ؟ ..

وقالت سهير من خلال دموعها :

- شهران .. أو شهران ونصف ..

وقالت الأم فى صوت خافت حازم كأنها تصدر أمرا :

- غدا سنذهب إلى الطبيب .. وستكون معنا طنطك هدى .. إنها هى التى تعرف هذا الطبيب ..

وقالت سهير وهى تبكى :

- اغفرى لى يا ماما .. سامحينى فى عرضك حتى لا أنتحر ..

وقالت الأم كأنها تحادث نفسها وكأنها لم تسمع توسل ابنتها :

- ابنتى التى لم تتزوج لم تعد عذراء ..

وقالت سهير وكأنها تطمئن أمها :

- سنجرى عملية أخرى أعود بها عذراء .. إن نيفين تعرف طبيبا يجرى هذه العمليات ..

وقالت الأم والسخط يهزها كأنه سخط على الدنيا كلها :

- إنك لن تعودى عذراء أبدا .. لا عذراء الجسد ولا الروح ولا الإحساس ولا الفكر .. مهما أجريت من عمليات .. لقد أصبحت امرأة .. واسمعى .. إنى أفرض عليك أن تخرجى من بين هذه الشلة التى تعيشين بكلك معها .. لا أريدك أن تلتقى أو تعرفى صديقتك نيفين .. إنها زجاجة الحياة التى وضعت نفسك فيها والتى تشربين منها السم .. وقاطعى الشاب الذى جنى عليك والذى تسمينه ميدو .. إنه قائد شلة الانحلال .. والمسئولية ليست كما يقول هى اتفاق بين طرفين .. المسئولية ليست مجرد

تعامل تجارى .. البنت تعطى والولد يعطى .. المسئولية تقوم أساسا على المسئولية عن النفس .. المسئولية أمام الضمير .. ولكن هذا الولد منحل النفس ومنحل الضمير .. إنى أفرض عليك هجر هذا الولد وهذه الشلة .. وإذا خالفتنى فلن أقتلك ولكنى سأقتل نفسى .. حتى أرتاح منكن كلكن ..

وقالت سهير وهى تحاول تقبيل يد أمها :

- حاضر يا ماما .. أعدك .. ولكن ..

وقاطعتها أمها صارخة :

- كفى كلاما .. اذهبى إلى فراشك ولن أدعو لك بأن تنامى لأنى لن أنام ..

وخرجت سهير وهى تزحف بقدميها كأنها مشفقة على أمها أكثر من إشفاقها على نفسها ..

وانهارت الأم على السرير تبكى بكل خلجاتها .. ولم تنم .

وفى صباح اليوم التالى اتصلت سعاد بصديقتها هدى بالتليفون تطلب لقاءها لتذهب معها إلى الطبيب الذى تعرفه .. وقالت هدى وهى تضحك ضحكة عالية :

- ماذا حدث .. هل تخفين عنى رجلا لك .. منذ متى وأنت تخفين عنى ..

وقالت سعاد بصوتها المحشرج وكأنها تتعمد مصارحة صديقتها قبل أن تلقاها :

- لست أنا .. إنها ابنتى سهير ..

وسكتت ضحكة هدى فورا كأنها تلقت صدمة انهارت فوق رأسها

وأسكتتها .. واكتفت بأن تحدد موعدا مع سعاد دون أن تسألها شيئا عن حكاية ابنتها سهير ..

وذهبت سهير معهما إلى الطبيب وأجريت لها العملية وعادت ترقد على فراشها فى الغرفة التى تجمعها بأختيها .. والأختان لم يثورا عليها أو يعايرانها أو حتى يلومانها .. ولكنهما يعاملانها فى رفق كأنهما يخففان عنها مصيبتها وحدها .. إنها مصيبة الكل .. مصيبة العائلة .. وسهير غلبانة .. إنها منكوبة فى حظها .. إننا ننسب كل أخطائنا وكل بلاوينا إلى الحظ كأننا نواسى أنفسنا ..

• •

ومرت الشهور .. وبيت العائلة .. بيت الأم وبناتها الثلاث .. يتطور إلى نوع من الحياة يغلب عليه البرود .. ولا يعلو فيه ضجيج الكلام .. كأن كل بنت أصبحت منفردة بمشكلتها وتفضل أن تعيش فيها وحدها .. والأم تعيش كالخفير أو كعسكرى المرور .. تحرس وتنظم المرور دون أن تتكلم كثيرا ..

وكانت سعاد جالسة ذات صباح مستسلمة هذا الاستسلام الصامت الذى تعودته .. ورفعت بين يديها جريدة اليوم وقلبت صفحاتها لتبدأ بصفحة الوفيات كعادتها .. ولم تكد عيناها تقع على السطور حتى شهقت ..

لقد توفيت شريفة هانم ..

شريفة زوجة محمود ..

(١١)

فوجئت سعاد بوفاة شريفة هانم زوجة محمود كأنها صدمت بزلزال يهز كل حياتها .. وكانت حياتها قد استقرت منذ سنوات طويلة على وجود محمود ووجود زوجة محمود .. حتى بعد أن هجرت محمود وحرمت نفسها منه ظلت مرتبطة بوجوده ووجود زوجته .. إن وجود زوجته هو الذى شكل حياتها وانتهى بها إلى أن أصبحت امرأة بلا رجل .. ورغم ذلك لم تكن تكرهها وتحقد عليها .. إن الزوجة لم تعتد عليها بل إنها هى التى اعتدت عليها وشغلت زوجها عنها سنوات طويلة حتى وإن لم يضح بها ليتزوجها هى .. إن إحساس العشيقة بزوجة الرجل المعشوق إحساس عجيب .. أحيانا ينتابها إحساس بالزهو والغرور بنفسها .. لقد أخذت هذا الرجل من زوجته .. استولت عليه لأنها أجمل من هذه الزوجة وأشد فتنة وأكثر ذكاء .. وأحيانا ينتابها إحساس بالخيبة والسخط على نفسها .. ماذا تأخذ من هذا الرجل .. لا شيء أكثر من هذه الساعات العابرة التى تقضيها معه .. وهذه المسئولية الضيقة التى تلقيها عليه ليكفل حياتها كأنها تفرض عليه أن يدفع ثمن هذه الساعات التى تعطيها له .. أما باقى الحياة كلها فيعطيها لزوجته .. يعطيها اسمه .. ويعطيها مجتمعه .. ويعطيها مستقبله .. ويستسلم للأسر الذى يفرضه عليه أولاده منها .. وهذا الإحساس يدفع العشيقة إلى إعلان الحرب على الزوجة .. وهى حرب تختلف حسب طبيعة هذه العشيقة .. قد تكون حربا عنيفة شرسة تصل إلى حد الفضيحة والتشهير بل وإلى حد ارتكاب الجريمة .. وقد تكون طبيعة العشيقة لا تحتمل إلا الحرب الخافتة الضعيفة كأنها حرب استجداء .. وقد تبدأ على

أمل أن يطلق الرجل زوجته ويتزوجها .. ثم ينكمش الأمل وتتمنى أن يتزوجها بجانب زوجته وتعيش مع ضرتها نصف زوجة .. ثم ينكمش الأمل أكثر حتى تقبل أن يتزوجها زواجا عرفيا لا شرعيا .. ويحتفظ بها بعيدا عن المجتمع ولا يظهر بها أمام الناس وتصبح كأنها قطعة من الحشيش المهرب يدمنها سرا ولا يجاهر الناس بأنه حشاش .. إلى أن يذوب الأمل ولا يعود أمام هذه المرأة إلا أن تختار بين أن تقضى حياتها كعشيقة لهذا الرجل أو تهجره .. هذا إذا لم يكن الرجل قد سبقها وضاق بها واجتاحه الملل فهجرها .. وقد خاضت سعاد هذه الحرب الخافتة الهادئة بينها وبين زوجة محمود وانتهت إلى أن فقدت الأمل وهجرته .. هجرته وهى لاتزال تحبه واستسلم لهجرها وهو لايزال يحبها دون أن يتخلى عن مسئوليته عنها فلا يزال حتى اليوم يرسل لها مصروفها الشهرى ..

والزوجة أيضا .. تدخل هذه الحرب وفقا لطبيعتها .. قد تكون طبيعة عنيفة لا ترحم الزوج لمجرد أن تتعلق عيناه بامرأة أخرى أو تمتد يده ليلمسها أو ينطلق لسانه بكلمة لا ترتاح لها .. وقد تكون زوجة كاملة الثقة بنفسها وبالبيت الذى أقامته وبقوة تأثيرها على الزوج فتترك الزوج وهو دائما بين أصابعها .. تتركه يلعب .. بعد أن تكون الحياة الزوجية قد وصلت إلى حد السماح للزوج باللعب مادام لا يخرج عن ميدان اللعبة .. وهكذا كانت زوجة محمود .. تتركه يلعب .. وكان مما يغيظ سعاد هو أن هذه الزوجة تعتبرها لعبة لزوجها .. ولكن غيظها وحقدها وسخطها على هذه الزوجة كان يتخلله دائما نوع من الاحترام .. إنها زوجة تفرض احترامها على زوجها وأيضا على عشيقة زوجها .. وهى أخيرا ليست المرأة التى اعتدت على سعاد ، إن سعاد هى التى اعتدت عليها .. واغتصبت منها حقا من حقوقها على زوجها ..

ولذلك لم يطرأ على سعاد بعد أن قرأت خبر وفاة شريفة هانم إحساس بالشماتة أو الفرحة بأن الله أراحها من ضرتها .. من استكمال سعادتها

بحياتها .. بالعكس .. أحست بالحزن والأسى يعتصران قلبها .. إن شريفة كانت جزءا من حياتها طوال كل هذه السنوات .. إنها زوجة حبيبها .. أصبحت حياتها مستكملة بوجود شريفة حتى تعودت على هذا الوجود .. والوضع الذى انتهت عليه حياتها رغم أنها وصلت إليه لوجود شريفة إلا أن شريفة لم تفرضه عليها بمعركة إنما بمجرد الوجود .. إن الإنسان أحيانا يعيش الهزيمة حتى يتعودها ولا يفكر فى السعى إلى النصر .. لأنها هزيمة فرضها الله ولم يفرضها عليه مخلوق .. كما فرض الله إزالة وجود شريفة ولم يكن أحد هو الذى أزال وجودها .. ليست سعاد هى التى أبعدتها عن محمود حتى تفرح بالنصر ..

ويشتد حزن سعاد على وفاة شريفة وهى تتصور ما يعانيه محمود بعد وفاة زوجته .. لقد عاش عمره كله وهو بجانب هذه الزوجة .. فكيف يجد عمرا يعيشه وهى ليست بجانبه ..

ولكن ..

لقد كان محمود يقول لها إنه يعيش حالتين .. حالة زواجه من شريفة وحالة حبه لها .. وكل حالة يشعر بها كمسئولية كاملة مرتبطة بالمسئولية الأخرى .. ومهما حمل من مسئولية حبه لها فلا يجب أن يتخلى عن مسئوليته عن زوجته .. لذلك لا يمكن أن يصل معها إلى أن يتزوجها لأن ذلك إخلال بمسئوليته عن زوجته ..

ولكنه الآن ليس زوجا ولا يحمل مسئولية الزوج ..

إنه الآن يعيش حالة واحدة ..

حالة الحب ..

وحالة الحب مادامت حالة منفردة بنفسها تفرض عليه مسئوليتها أن يصل بها إلى حالة الزواج .

هل يتزوجها بعد أن ماتت شريفة .. ؟

أولا.. هل لا يزال يحبها بنفس الحب الذى كانا يعيشان فيه وبه .. ؟

لقد مضى الآن أكثر من ثمانى سنوات منذ هجرت لقاءه .. ثمانى سنوات تكفى ليتغير كل مافيه وكل ما فيها .. على الأقل تعودا على ألا يلتقيا .. إنها لم تره ولم يرها خلال كل هذه السنوات ولو صدفة .. ولكنه لم ينقطع أبدا عن إرسال مصروفها إليها كل شهر مع السائق .. كما لم تنقطع أبدا عن التحدث إليه فى التليفون وإن كانت تباعد بين المكالمات حتى تخفف من إلحاح أمنيتها أن تلقاه .. إنه لن يرفض لقاءها بل إنه كما قال لها يتمناه .. ولكنه لن يبدأ أبدا بطلب اللقاء حتى يترك لها حريتها التى قررت أن تهبها لبناتها تطهيرا لهن مما يقال عن أمهن .. وكانت أحيانا تؤكد لنفسها أنه مستمر فى إرسال هذا المبلغ لها كل شهر لا لأنه مستمر فى حبه .. إنما فقط لأنه يشفق عليها وهو يعرف حالتها المالية التى تجعلها فى حاجة مستمرة له .. ثم إن المبلغ الذى يرسله لها لا يشعره بالتضحية بالنسبة لثرائه وارتفاع دخله .. إنه لا يضحى فى سبيل الحب .. ولكنها تعود بعد أن تحادثه فى التليفون وتشعر أنه لايزال يحبها كما تحبه .. إنه لا يردد فى التليفون كلام الحب ولا حتى لهجة الحب ، ولكن صوته الذى ينطق به والكلام الذى يقوله جادا يعبر عن إحساسه بها .. إحساس الحب .. وأكثر من ذلك .. كان قد اتفق معها على ألا يبدأ هو أبدا بالتحدث إليها فى التليفون إنما يتركها وحدها صاحبة الحق فى التحدث إليه .. إمعانا منه فى أن يكفل لها حريتها .. وكانت دائما تتمنى أن يخرج عن هذا الاتفاق ويطلبها هو بالتليفون ولو مرة واحدة .. ولكنه لم يفعل أبدا ويتركها فى عذاب استكمال كرامتها .. ولكنها كانت كلما حادثته أحست كأنه كان فى انتظارها وأحست بفرحته بسماع صوتها .. فتعود وتتحمل العذاب الذى كتب عليها ..

إنه لايزال يحبها نفس الحب الذى عاش فيه كلاهما كل هذا العمر ..

ولكن ..

حتى مع هذا الحب كيف يطرأ على بالها احتمال أن يطلبها للزواج بعد أن ضاعت منه زوجته ..

إنه قد وصل إلى الستين من عمره وتعدى الستين ببضعة شهور .. وهى وصلت إلى الخامسة والأربعين وثلاثة شهور .. ماذا يفعل العواجيز بالزواج وما حاجاتهم إليه .. لا .. لا يمكن أن تطرأ فكرة الزواج على باله .. وهى أيضا لا تعتقد أنها تستطيع أن تتزوج بعد هذا العمر .. إنها لا تستطيع .. لا تحتمل .. ثم إن له ابنة تزوجت منذ خمس سنوات .. وابنا لعله تعدى الثلاثين من عمره ، وهو الآن طبيب ناجح ومتزوج .. فكيف يستطيع محمود وهو فى الستين أن يواجه ابنته وابنه بامرأة تحل محل أمهما .. كيف يبرر لهما زواجه ، وكيف يتحمل غضبهما عليه .. إن الأبناء لا يتحملون أبدا دخول رجل غريب أو امرأة غريبة عليهم .. وإن كان يقال إن الابنة من طبيعتها أن تتحمل زواج أمها من رجل آخر بعد أبيها ولكنها لا تتحمل زواج أبيها من امرأة أخرى غير أمها .. وإن طبيعة الابن على عكس الابنة .. فهو يحتمل أن يتزوج أبوه من امرأة أخرى ولا يحتمل زواج أمه من رجل آخر .. ولعل اختلاف طبيعة الابنة عن طبيعة الابن هو اختلاف طبيعة أنانية الجنس بين كل الإناث وكل الذكور .. وهى .. سعاد .. إن لها بناتها الثلاث .. إنهن حتى لو فرض أن تزوجت محمود فإنها لا تستطيع أن تأخذ من تفرغها لهن لتعطى الزوج .. وهو تفرغ يستنزف كل ساعات يومها .. نهاره وليله .. فكيف تستطيع أن تنسى وتهمل مشاكل بناتها ولو ساعات من يومها تتفرغ فيها للزوج .. مستحيل ..

وبعد أن مرت ثلاثة أيام على إعلان وفاة شريفة رفعت سماعة التليفون لتحادث محمود .. يجب أن تعزيه .. وكانت يدها ترتعش وهى ممسكة بالسماعة على غير عادتها .. وقالت فى صوت متهدج :

– لا تدرى مدى الصدمة التى صدمت بها عندما عرفت الخبر ..

وقال محمود وكأن صوته يقطر دموعه :

– كان الله رحيما بها ولم يكن رحيما بى لأنى لا أستحق رحمته .. فقد توقفت شريفة فجأة دون أن يعذبها المرض وتعذبت أنا بالمفاجأة .. صدمة لم يمهد لها الله لى ..

وقالت سعاد وهى تبكى فعلا :

– لقد كانت شريفة رغم كل شىء قد أصبحت فى حياتى .. وقد أحسست بحياتى كأنها تنزف .. ولكن ليس المهم حياتى .. المهم حياتك أنت .. تحمل ..

وقال محمود من خلال صوته الذى يقطر بالدموع رغم جلده وثباته :

– لا أدرى كيف أتحمل ..

قالت كأنها تنصحه :

– البركة فى ابنتك وابنك ..

ولم يرد عليها محمود .. لم تسمع صوته .. كأنه تاه عنها بخياله فى السماء وراء زوجته .. وقالت بعد فترة صمت :

– البقية فى حياتك .. ربنا معك ..

وأعادت سماعة التليفون فى رفق كأنها تخشى أن تمس أحزانه بصوت إعادة السماعة ..

إنها لن تحادثه فى التليفون مرة أخرى ..

إنه الآن فى وضع جديد بالنسبة لها .. لقد أصبح أرمل .. أعزب .. وقد يصور له حديثها فى التليفون أنها تحاول أن تقنعه بأن يستعين بها

للتخفيف عن نفسه وملء الفراغ الذى أصبح يعيش فيه .. ربما أحس بأنها تتقرب إليه لتشده إلى الزواج .. زواجها .. لا .. مستحيل .. إنه كما ترك الحرية لها لتحدد علاقته بها فاليوم هى التى تترك له الحرية بعد أن تغير حاله ..

ومر شهر .. وشهران .. وثلاثة .. وهى لا تحادثه فى التليفون حتى بعد أن يصلها المصروف الذى تعود أن يرسله لها لم تتصل به كعادتها لتشكره .. وهى نفسها فى انتظار حديثه كل يوم وكل ساعة .. لمن يلجأ بعد أن فقد زوجته إن لم يلجأ إليها .. وكيف يفكر ويدبر حاله الجديد .. وفكرها وخيالها يعصفان بها وتحاول أن تشغل نفسها بالتفرغ لمشاكل بناتها .. لقد أصبحت تفتعل الدخول فى مشاكل بناتها وتثير موضوعات ليست فى حاجة لإثارتها هربا بخيالها من صورة محمود ومن انتظار أن يتحدث إليها ..

وبعد ثلاثة شهور دق يوما جرس التليفون ..

وأسرعت بالتقاط السماعة .. لقد تعودت خلال هذه الشهور أن تتعمد أن ترد بنفسها على التليفون بعد أن كانت تتركه غالبا ليد البنات ..

إنه محمود ..

وقال محمود فورا بصوته الجاد الرزين دون أن يبدو فيه ولومجرد ابتسامة تقنعها بأنه خفف من حزنه على المرحومة :

– أريد أن أراك ..

وفوجئت سعاد وقالت متلجلجة :

– لماذا .. خيرا ..

وقال دون أن تتغير طبيعة صوته :

– لأن من حقى أن أراك ..

وقالت من خلال حيرة بدأت تلح بها :

– طبعا .. من حقك دائما أن ترانى .. ولكن مضت سنوات طويلة دون أن نلتقى ..

وقال كأنه يلومها على ترددها :

– لقد أصبحنا فى حالة جديدة بالنسبة لى وبالنسبة لك .. لذلك أطلب اللقاء ..

وقالت بصوت يرتعش :

– أين تريد أن نلتقى ؟

وقال بسرعة كأنه يأمر :

– فى شقتنا ..

وقالت كأنها تشهق :

– لا يا محمود .. لقد تغيرنا .. ويجب أن يتغير كل شىء تعودناه .. لماذا لا نلتقى هنا عندى فى البيت .. إن البنات يعرفونك .. ويعرفون أننا لا نزال أصدقاء .. وسيفرحون بك ..

وقال محمود فى حسم :

– لا .. أريد أن نلتقى فى نفس المكان الذى التقينا فيه آخر مرة وخرجنا منه .. كأننا لم نفترق أبدا وكأننا لا نزال كما كنا ..

واشتدت حيرة سعاد .. ماذا يعنى .. هل يتصور أن تعود إليه كعشيقة كما كانا ويلتقيان فى شقة لقاء الموعد لا لقاء العمر .. إنها تريده أن يأتى لزيارتها فى بيتها .. لأنها تكون زيارة ترمز إلى وضع جديد .. إما أن ترمز

أنه جاء ليطلبها للزواج أو أن تكون مجرد زيارة صداقة .. صداقة ليس فيها مطالب ولا مسئوليات الحب .. وعادت تلح :

– أرجوك .. لنلتقى هنا فى البيت ..

قال فى حدة وهو يتكلم كصاحب حق :

–لا .. إنى مصمم على أن نلتقى فى الشقة ..

قالت كأنها تستجديه :

– إنى أخشى أن يعود كلام الناس بعد أن سكتوا .. وبناتى الثلاث على قرب زواج ..

وقال آمرا :

– تحملى كلام الناس يوما جديدا .. لقد حسبت حساب كل شىء ..

وقالت وهى تتنهد فى استسلام :

– حاضر ..

وحددا الموعد فى اليوم التالى .. كان يريد لقاءها فى نفس اليوم .. ولكن الوقت لا يكفيها لإعداد نفسها لهذا اللقاء .. فقبل أن يكون فى اليوم التالى ..

وطردت كل أفكارها الحائرة وتفرغت كلها لإعداد نفسها لهذا اللقاء .. ووقفت أمام المرآة .. إنها لاتزال جميلة .. طبعا ليس جمال شبابها ولكنه جمال الخامسة والأربعين من العمر .. ومدت أصابعها تتحسس خطوط تجاعيد بدأت تظهر تحت عينيها .. وفوق جبينها .. ولكن عنقها لايزال كما هو بلا تجاعيد .. إنها معروفة بجمال العنق .. ودارت بجسمها أمام المرآة .. لا شك أن النصف الأسفل قد أصابته بعض السمنة .. ولكن نهداها .. يا مصيبتى .. لقد تهدل نهداها فوق صدرها رغم أن أحدا لم يكن

يمسسها طوال هذه السنين .. ربما كان أول ما يبدو عليه عمر المرأة هما نهداها .. ولكن لماذا تتعب نفسها بالكشف على كل ملامحها قبل أن تذهب إليه ، إنها لن تذهب كما كانت تذهب .. لقد أصبحت امرأة أخرى ولاشك أنه أصبح رجلا آخر .. ورغم ذلك بذلت مجهودا كبيرا فى اختيار الثوب الذى بدأت به وفى تجميل وجهها وعقص شعرها .. مهما كان .. إنه موعد غرام فى شقة لقاء الحب ..

وقررت أن تصارح بناتها وتقول لهن كل شىء كأنها تستأذنهن .. يجب أن تكشف لهن كل أسرارها كما تريد منهن أن يكشفن لها أسرارهن .. وجمعت الثلاث وقالت وعيناها مرخيتان وحمرة كحمرة حياء البنت الصغيرة تكسو وجنتيها :

– إنى ذاهبة للقاء محمود ..

وعلت شفاه البنات ابتسامات الدهشة واستطردت سعاد قائلة كأنها لا تريد أن تسمع منهن كلمة :

– إنكن تعلمن أنه لا يزال مسئولا عنى بل وعنا كلنا حتى اليوم .. ولكننا كنا متفقين على ألا نلتقى .. ولكنه بعد أن توفيت زوجته أصبح متعبا فى حياته ويريد لقائى .. وأنا أحس أن من واجبى أن ألقاه لعلى أستطيع أن أخفف عنه .. ولكنه سيكون لقاء واحدا ولن أعود إلى أيام زمان ونعود كلنا تحت رحمة كلام الناس .. .

وخرجت وبناتها يودعنها صامتات وعلى شفتى كل منهن ابتسامة .. على شفتى سامية ابتسامة فرحة .. وعلى شفتى سميرة ابتسامة ساخرة .. وعلى شفتى سهير ابتسامة مشفقة .. كل منهن تحكم على حالة أمهن بحالتها هى ..

وكانت تقود سيارتها فى الطريق وهى ساهمة .. سرحانة .. تائهة بين

خواطرها .. كأنها مقدمة على شىء جديد فى حياتها .. كأن هذا أول لقاء تقدم عليه مع رجل فى شقة لقاء .. وركنت سيارتها فى شارع بعيد عن العمارة .. لا تريد أن يرى أحد سيارتها بجانب عمارة شقة محمود .. وقد دخلت ووضعت نفسها فى المصعد وخطواتها ترتعش وتتلفت حولها كأنها تخشى أن يضبطها أحد وهى ترتكب جريمتها .. ولم تفتح باب الشقة بالمفتاح الذى لاتزال تحتفظ به .. بل إنها همت أن تأخذ هذا المفتاح معها قبل أن تذهب ولكنها تعمدت أن تتركه بعيدا عنها .. إنها لن تدخل كصاحبة شقة كما كانت أيام زمان .. ستدخل كامرأة غريبة .. وضغطت على الجرس ضغطة واحدة .. ثم نقرت على الباب نقرة هزيلة ..

وفتح محمود الباب .. وتعلقت عيناها به كأنها تسمرت على وجهه .. إنه لم يتغير .. إنه محمود كما رأته أول مرة وآخر مرة .. وكما كانت ترى الرجل الذى تحبه ..

ومد كل منهما يده إلى الآخر .. ولم ينحن ليقبلها ولم تلق نفسها عليه لتقبله كما كانا يبدآن كل لقاء .. إنما تعلقت عينا كل منهما بالآخر وبين شفتيه ابتسامة دون أن يدرى أحد منهما ماذا تعنى ابتسامته .. وتبادلا كلمات وهما يجلسان دون أن يعى أى منهما ما يقول الآخر ..

وقال محمود وصوته حزين رغم ابتسامته التى يحاول أن يخفى بها حزنه :

– ألا تعدين لى القهوة كعادتك ..

وقالت وهى ترخى عينيها فى حياء :

– هل فى البيت بن وسكر .. لقد غبنا عنه طويلا ..

وقال وابتسامته تتسع :

– لقد جئت ليلة أمس وأعدت استكمال كل ما ينقص بيتنا ..

ورنت فى أذنيها كلمة بيتنا .. هل لايزال البيت بيتنا .. إنها لا تدرى ولا تستطيع أن تفسر أحاسيسها .. وقالت فى ارتباك وعيناها مرخيتان :

– انتظر قليلا على القهوة .. إنى لا أحس بعد بأنى عدت إلى البيت وأخشى أن أدخل المطبخ فيقع من يدى كل شىء أمسك به ..

وسكت محمود برهة إلى أن اختفت ابتسامته من فوق شفتيه وقال :

– سعاد .. إنى تعب .. إنى لم أعد أجد حياتى أو أعرف كيف أعيش بعد أن تركتنى شريفة .. لقد كانت كل خيوط الحياة التى أعيشها فى يدها .. لم أكن أدرى كيف آكل وكيف أشرب وكيف ألبس ولا كيف أخرج وأدخل .. كانت هى التى تعد لى حياتى .. ولا تترك لى إلا التفرغ لعملى .. حتى أنت .. كنت أحس كأن شريفة هى التى تشرف وتعد حياتى معك .. ومنذ تركتنى شريفة وأنا أحس كأنى أصبحت غريبا فى بيتى .. لا أدرى كيف أتعامل مع السفرجى أو الطباخ .. ولا أدرى كيف أنظم مصروف البيت .. ولا أدرى بعد أن أخلع ثيابى أين أضعها وكيف تغسل وتكوى .. إنى وحيد إلى حد الضياع حتى أنى فكرت أن أترك البيت وأقيم فى أى فندق ..

وقالت سعاد وهى مشفقة عليه بقدر ما هى مجروحة بغيرتها من هذه التى كانت كل حياته بين أصابعها :

– لديك ابنتك .. تستطيع أن تقيم معها أو تقيم معك وتوفر لك كل ما كانت توفره لك المرحومة .. إن كل ما ينقصك هو أن تكون لبيتك ست بيت .. وابنتك تكون ست البيت ..

وقال فى إصرار :

– لا .. إنى أحس بأنى غريب فى بيت ابنتى .. وقد جاءت هى وأقامت معى هى وزوجها وأولادها منذ تركتنى شريفة وما لبثت أن أحسست بأن

البيت أصبح بيتها وأننى غريب أقيم فيه .. كأنى أقيم فى بنسيون يقدم كل شىء لخدمة زبائنه .. إن ست البيت لا يمكن أن تكون مجرد موظفة كمديرة أعمال أو رئيسة مجلس إدارة .. إن ست البيت هى التى تعيش على أساس ارتباطها برجل البيت .. الارتباط العاطفى إلى آخر منتهاه .. وتختلف ست البيت عن الأخرى فى قدرتها على إسعاد البيت باختلاف هذا الارتباط برجل البيت .. وهو ارتباط يختلف عن ارتباط الابنة بأبيها أو الأخت بأخيها .. إنه ارتباط الحب الكامل بين رجل وامرأة .. بين زوج وزوجته ..

وأحنت سعاد رأسها على صدرها وهى تفرك أصابع يديها بعضها ببعض كأنها ترتعش .. إنها تفهم ما يقصده .. ولكن خطر على بالها أن تقاوم حتى تتأكد أكثر .. وقالت :

– إنك تبالغ .. كل ما هنالك أنك فى حاجة إلى وقت لتتعود على حياة جديدة .. وقد تعبت أنا عندما ابتعدت عنك .. خيل إلى أنى لن أستطيع أن أعيش امرأة وحيدة بلا رجل .. ولكنى تعودت وعشت ..

ومد يديه واحتضن يديها المرتعشتين وقال كأنه يلومها :

– سعاد .. لا تكذبى على نفسك .. ولا تهربى من الواقع الذى أصبح يجمعنا .. إنك لم تتعودى على الحياة وحيدة ولكنك تعيشين وأنت تحسين بأنك ضحية .. ضحية بناتك وضحيتى ..

وقد شاركتك فى التضحية بأن حرمت نفسى منك .. ولكن اليوم .. لماذا تستمر حياتنا كضحايا .. لماذا لا نعيش كل حياتنا ..

وقالت وهى تقاوم انطلاق فرحتها :

– لقد تغيرنا ..

وقال وهو يضغط على يديها بيديه :

- الحب لا يتغير .. ولكن مطالب الحب هى التى تتطور .. إنى الآن وأنا عجوز أحبك نفس الحب الذى عشته فى شبابى .. ولكنك ستفاجئين بمطالب جديدة يطلبها الحب .. (واستطرد ضاحكا) .. سأطلب منك أن تدلكى ظهرى كل مساء ..

وقالت وفرحتها فى ابتسامتها ولكنها تتعمد المقاومة :

- الحب غير الزواج .. لقد كنا معا وأنا واثقة من حبك ولكنك كنت متزوجا من أخرى .. وقد كنت فى حاجة إلى كلينا لأن الحب يختلف عن الزواج ..

وقال كأنه يتوسل إليها :

- لقد كنت أعيش حالتين .. والآن أستطيع أن أجمع بينهما فى حالة واحدة .. زواج أساسه الحب .. لنتزوج يا سعاد .. قولى إننا تزوجنا ..

وألقت خدها على خده .. ومسح خدها بشفتيه إلى أن وصل إلى شفتيها ..

إنها ليست نفس قبلة أيام زمان .. ليس نفس الطعم ونفس ما تحركه فيها .. ربما كانت فرحتها تطغى على إحساسها بالقبلة .. أو ربما تطورت القبلة .. إنه يقول إن الحب لا يتغير ولكن مطالبه تتطور .. والقبلة من مطالب الحب .. وهمست من داخل القبلة :

- أنت تعلم أنها أمنية حياتى .. أن نتزوج ..

وقال وشفتاه تضعفان بين شفتيها :

- وهو حلمى الذى أحلم به منذ أن التقينا ..

وقالت بعد أن تباعدت الشفاه :

- كيف نقول الخبر لأولادنا .. إنى واثقة أن بناتى لن يعترضن على

زواجنا .. ولكن أولادك .. البنت والولد .. إنهما كبار وقد لا يقتنعان بأن من حقك الزواج ..

وقال محمود بلا اهتمام :

- إنهما مسئولان عن إسعادى كما كنت مسئولا طول العمر عن إسعادهما .. لا تهتمى بهما ولا تحسبى حسابهما ..

وترددت برهة فى إقناع نفسها بهذا الكلام ثم قالت كأنها تهرب من موضوع أولاده :

- وكيف نبدأ .. كيف نعد حياتنا بعد الزواج (وضحكت) .. أى بعد الفرح .. ؟

وقال فرحا :

- سنقيم فى هذه الشقة .. ستكون بيت الزوجية كما كانت بيت الحب ..

وترددت قليلا وقالت وهى تتنهد :

- إنى أفضل أن يكون للزوجية بيت آخر .. ونؤجر هذه الشقة مفروشة أو نبيعها .. إنى أفضل أن أبدأ كل حياتى من جديد ..

وقال فى دهشة :

- كأننا نبيع ذكرياتنا ..

وقالت مبتسمة كأنها تداعبه بتذكيره بكل حياته :

- إن ذكرياتك فى هذه الشقة تسبق ذكرياتى .. وأنا أريد أن يكون لى ما لم يكن لأى امرأة أخرى دخلت حياتك .. ثم إننا لن نعيش الذكريات إننا نعيش واقعا جديدا يجمعنا ..

وقال بعد تردد :

– كما تريدين .. ولكننا لن نقيم فى بيتى .. إن كل مافيه ملك للمرحومة .. وسأترك الشقة لابنتى لتعيش فيها مكان أمها .. كما أننا لن نستطيع أن نعيش فى بيتك .. إنى أعلم أنه شقة ضيقة لا تتسع لنا ..

وقالت مقاطعة وهى تقبله بابتسامتها :

– ولا أنا أريد أن أقيم فى بيتك ولا فى بيتى .. أريد أن يكون كل شىء جديدا على .. حياتى حياة أخرى عن كل ما عشته ..

وقال كأنه يتذكر ويحادث نفسه :

– إنى أملك عمارة فى المهندسين ستخلو فيها شقة نستطيع أن نقيم فيها .. ولكنها لن تخلو قبل شهرين .. ولكنى أريد أن يتم الزواج غدا أو بعد يومين ..

وقالت مقاطعة وفى صوت حزين :

– لا غدا ولا بعد يومين .. لا تنس أنه لم يمض سوى ثلاثة شهور على وفاة المرحومة .. ماذا يقول الناس ..

وقال محتدا :

– لا يهمنى ما يقوله الناس .. انهم سيقولون نفس الكلام سواء غدا أو بعد سنة .. وكل من يعرفوننا يعرفون قصتنا ولن يفاجأوا بزواجنا .. ولن يمس زواجى ذكرى المرحومة شريفة فسأعيش ذكراها العمر كله حتى بعد أن أتزوج .. كما كنت أعيش معها وأنا أحبك .. وسنكتب الكتاب هذا الأسبوع على الأكثر ونبقى على أى شكل إلى أن نقيم بيتنا ..

وابتلعت ريقها كأنها تبتلع زوجا يقول لها إنه يعيش فى ذكريات زوجة أخرى .. ثم ألقت نفسها على صدره وهى تهمس :

– كما تريد يا حبيبى ..

ومد ذراعيه يحتضنها فى صمت طويل ..

ثم قفزت من بين ذراعيه وهى تقول ضاحكة :

– يجب أن أذهب الآن .. إن أمامى مهمة صعبة .. وهى إبلاغ البنات بالخبر .. وربنا يستر ..

وقال وهو يقوم واقفا معها :

– سأنزل معك ..

وهزتها المفاجأة فقد كانت تعودت أن تسبقه وحدها حتى لا يراهما أحد معا .. ولكنه اليوم يريد أن يعلن أنهما دائما معا ..

واستسلمت فرحة .. ودخلت معه المصعد وذراعها فى ذراعه ونظراتها تزغرد كأنها تتباهى به .. وعند باب العمارة التقى بأحد السكان يعرفه فتعمد أن يقف ويمد يده إليه يصافحه ثم يقدم له سعاد قائلا :

– المدام .. زوجتى ..

(١٢)

فرحت البنات كل الفرحة عندما عرفن أن أمهن ستتزوج محمود .. وقالت ابنتها الكبرى سهير وكأنها ترثى نفسها وحظها :

– لست الآن امرأة فاشلة كما كنا نقول عنك .. لقد أصبحت امرأة ناجحة .. عقبالى ..

وقالت سعاد من خلال ابتسامتها كأنها تلقى درسا :

– لا فضل لى فى هذا النجاح .. ولم أكن أتمنى أن تموت زوجة حبيبى حتى يتزوجنى .. ولكنه القدر .. ربنا وحده هو الذى رسم مصيرى .. ولا أتمنى لواحدة منكن أن تقع فى حب رجل متزوج كما وقعت أنا حتى لا تتعذب وتعانى كما تعذبت وعانيت ..

وكانت البنات فى فرحتهن كأن كلا منهن هى التى تزوجت وليست أمها وحدها .. كل منهن استبشرت بأن زواج الأم سيحل مشكلتها .. سيخرجها من هذا العالم الضيق الذى وضعتهن فيه حالة أمهن .. عالم المطلقات الوحيدات الذى يعتبر عالما منفصلا عن بقية العالم .. عالم كل من فيه تائه لا يستطيع أن يحدد مكانه بين الناس .. ولا يستطيع أن يحدد ما يفعله وما لا يفعله .. ولا يستطيع أن يحدد حقوقه ولا واجباته .. ولكن بعد الزواج ستكون الأم وبناتها يعشن العالم الطبيعى .. العالم الذى يقبله ويحترمه كل الناس .. ولن يعشن مشاكلهن .. سيجدن لكل مشكلة حلا .. سهير التى تركت الشاب الذى اختارته بعد أن حملت منه ستجد حلا .. لا تدرى ما هو .. ولكنها متفائلة بزواج أمها .. وسميرة التى اضطرت أن

تتزوج حبيبها بليغ فى الخفاء وهما مفترقان لأنهما لا يستطيعان إيجاد بيت للزوجية ستجد حلا .. إنها أصبحت واثقة أنها ستجد حلا .. وسامية الابنة الصغرى التى ترفض أم حبيبها أحمد أن يتزوجها متعالية على أمها وماضيها لا شك أنها ستعود وتوافق بل تستجدى أن توافق الأم على زواج ابنتها بابنها .. كل مشاكل الدنيا ستحل .. وخرجت البنات يذعن الخبر بين كل صديقاتهن .. بل يذعنه فى كلياتهن الجامعية كأنه حدث وطنى ..

وأبلغت سعاد الخبر لأمها وصديقتها هدى .. وفرحت الأم حتى أصبحت فى مشيتها كأنها ترقص .. ثم ما لبثت أن تغلبت عليها أنانيتها وجشعها وقالت لها بعد كثير من القبلات :

– لاتنسى إيجار الشقة التى تسكنينها فى عمارتى .. لقد حرمتنى من إيجارها كل هذه السنوات .. وقد سجلت عليك إيجارا كل شهر .. عشرين جنيها .. وعلى زوجك أن يدفع ليعوضنى عن خسارتى بك ..

وصاحت سعاد :

– إن زوجى ليس مسئولا عن أى شىء من حياتى قبل الزواج .. وقد كنت أتركك تسجلين ما تريدين وأنا واثقة أنى لن أدفع أبدا .. إنك مسئولة عنى إلى أن أتزوج ولن أترك زوجى يدفع مليما لك لو طلبت منه من ورائى .. كونى أما يا أمى ..

وتغلبت فرحة الأم على أنانيتها وقالت وهى تتنهد سخطا :

– أمرى لله .. ولا تنسى تضحية أمك .. ولا تنسينى بعد أن تدفنينى ..

واحتضنت سعاد أمها .. إنها رغم كل ما قاسته منها .. ورغم أنها سبب كل ما عانته فى حياتها .. إلا أنها أمها ..

وقد فرحت صديقتها هدى بخبر الزواج فرحة كبرى هى الأخرى .. ولكنها ما لبثت أن قالت :

– أخشى أن أخسرك بعد أن تعيشى مع زوجك .. ولا يبقى لى شىء منك .. ومن وجد أحبابه نسى أصدقاءه ..

وقالت سعاد وهى تحتضنها وتزغرد بفرحتها :

– أنت عمرى كله ياهدى .. وستبقين لى مابقى من عمرى ..

وكان محمود قد بدأ يتردد على البيت كل يوم .. ويفرح به البنات ويفرح بهن .. بل كن يبالغن فى تدليله كأن كل واحدة تحاول أن تكسبه لنفسها .. وفى أيام كانا يفضلان أن يلتقيا فى شقة اللقاء حتى يخلوا إلى بعضهما بعيدا عن البنات .. وكانت سعاد فى هذا اللقاء تحرص ألا تكون له كلها .. إنها مصممة على ألا تكون له إلا بعد عقد القران .. لا تريد أن تعيد الماضى كما كان فقد تعودت على أن تهرب من هذا الماضى .. لن تعود إليه كلها إلا كزوجة شرعية ..

واتفقا على أن يعقدا القران فى بيت سعاد ويبقى كل منهما فى بيته إلى أن ينتهيا من إعداد بيت الزوجية فى المهندسين .. وقبل يوم القران بأيام جاء محمود لزيارتها ومعه ابنه وزوجته وابنته وزوجها .. حتى يعرفاها قبل القران كما تقضى الأصول ..

لا شك أن الابن وافق على زواج أبيه وفرح به .. أما الابنة فلا يمكن أن تكون قد وافقت إلا غصبا عنها ومضطرة اضطرارا أن تتعرف إلى زوجة أبيها فى ترفع وبرود وهى لا تكاد تنطق بكلمة .. حتى بعد أن تعرفت إلى البنات لا تحاول أن تندمج معهن فى كلمة .. وإذا ابتسمت فابتسامتها ضنينة مفتعلة كأنها مفروض عليها أن تبتسمها .. إن البنات لا يمكن أن يفرحن أو يوافقن على زواج الأب بامرأة أخرى غير أمهن حتى لو كانت هذه الأم قد ماتت .. وحتى لو كان أبوهن لايزال فى حاجة إلى

الزواج .. وزوجة الابن وزوج الابنة .. إنهما لا يبدو عليهما الفرحة أو مجرد الترحيب بهذا الزواج .. لعل كلا منهما يفكر فى دخول غريب عليهما يشاركهما فى ميراث الأب الذى يتزوج .. رغم أن محمود كان قد صارح سعاد بأن كل ما يملكه مكتوب باسم ابنه وابنته .. الأرض والعمارات وحتى رصيده فى البنوك وهبه إلى ابنه وابنته .. إنهما أصحاب الحق فيه .. أما هى فقد كان يتكفل بها قبل الزواج بهذا المبلغ الذى يمدها به كهدية .. وبعد الزواج سيكون لها نصيب فى كل ما يستجد على دخله .. وقد يستطيع أن يشترى قطعة من الأرض أو عمارة ويكتبها باسمها ولها .. وهى لم تهتم كثيرا بما يقوله لها .. إنها لم تفكر أبدا فيما يعود إليها من إرثه .. يكفيها أن يتزوجها وينتشلها من عالم المطلقات .. وقد عاشت لاتملك شيئا وتعودت ألا تملك شيئا .. كل ما كانت تحس بأنه ينقصها هو أن تكون زوجة .. ولكن يبدو أن عائلة ابنه وعائلة ابنته لا تكتفى بأن تحسب حساب ما ترثه مما يملكه حاليا بل أيضا ما يمكن أن يحققه فى المستقبل .. لا يهم .. وإن كانت تتمنى أن يسود الهدوء بينها وبينهم حرصا على هدوء محمود ..

وتم عقد القران فى حفل عائلى ضيق صغير تسوده الفرحة .. فرحة بنات سعاد وأمها وصديقتها هدى ، وفرحة محمود .. بل وفرحة ابنه .. ولا يعكر الحفل سوى تبويزة ابنته إلى حد أنها خرجت والمأذون يقرأ الفاتحة وبكت فى الغرفة المجاورة ..

وتمت ليلة الدخلة فى شقة اللقاء ..

ما شاء الله .. إن محمود لم يتغير فى انطلاق حيويته رغم أنه أصبح رجلا فى الستين ..

وأصبحت كل ساعات يومها مزدحمة بالعمل .. ساعات لبناتها .. وساعات تذهب فيها إلى الشقة الجديدة لتشرف على إعدادها .. وبقية

الساعات مع محمود .. إنه يتناول الغداء والعشاء معها فى البيت ثم يعود إلى بيته لينام .. وأيام يستأذنان البنات فى أن يقضين الليل معا فى الشقة الأخرى .. شقة اللقاء .. وتوافق البنات طبعا وهن ضاحكات ..

إلى أن انتقلا إلى شقة الزوجية ..

وبدأت كل المشاكل تحل ..

لم تكن مشاكل .. ولكنه كان وضعا ناقصا من أوضاع الحياة .. وضع ينقصه رجل .. وما كاد الرجل يدخل فيه حتى استكمل الوضع كل ما ينقصه .. إن الرجل لا يكمل المرأة ولكنه يكمل صورة الحياة التى تعيشها المرأة .. وقد بدأت صورة حياة سعاد وبناتها تستكمل بعد أن دخلها محمود ..

وكانت سعاد قد اتفقت مع محمود على أن تعيش معها سهير وسامية فى الشقة الجديدة .. إنها شقة كبيرة وغرف النوم فيها مقسمة إلى جناحين .. جناح ليكون لها ولزوجها محمود .. وجناح للابنتين .. ولكنها لن تخصص للابنتين إلا غرفة واحدة داخل هذا الجناح الذى يضم غرفتين .. إنها تريد أن تقنع محمود بأن فى البيت غرفة لاستقبال ابنته أيضا إذا أرادت أن تقيم معنا . واعترض محمود .. إن ابنته لن تحتاج أبدا إلى الإقامة معهما . ولكنها أصرت على أن تكون لابنتيها غرفة واحدة .. وعادت تقول لمحمود إنها ستخصص غرفة النوم الأخرى للضيوف .. والواقع أنها كانت تريد أن تجعل محمود يحس بأنها لم تستول على الشقة كلها لها ولبناتها .. إنما تقتسمها بينها وبينه .. وتجعل له حقا فيها يوازى حقها .. ثم إن بناتها حتى اليوم تعودن أن يعشن معا فى غرفة واحدة .. كل منهن لم يكن لها أمل فى غرفة لها تبتعد بها عن أختيها إلا بعد أن تتزوج .. وهى تريد أن تحتفظ بهذا الإحساس حتى تسعى الابنتان إلى الزواج كما تزوجت أختهما سميرة ..

إن اختهما تزوجت فى السر وحرمت الأم من فرحتها بزواج ابنتها .. ولا تزال تعيش منفصلة عن زوجها .. هى فى بيتها وهو فى بيته .. وابنتها تقول إنها لا تشعر بأنها زوجة إلا فى الحارة التى يقيم فيها زوجها عندما تذهب إليه .. كل ذلك لأنها هى وزوجها لا يملكان ما يكفى لمجرد البحث عن شقة يقيمان فيها حياتهما الزوجية .. وقد حلت المشكلة .. لقد تنازلت لها أمها عن الشقة التى كانت تقيم فيها فى العمارة القديمة التى تملكها .. ولكن الجدة .. أم الأم .. ثارت .. فهى لا تقبل أن تتنازل عن إيجار الشقة لحفيدتها كما تنازلت عنه لابنتها .. وخصوصا أنها حفيدة لها زوج يستطيع أن يدفع .. ولكن سعاد استطاعت أن تتحايل على أمها حتى تركت الشقة لابنتها على وعد بأن تدفع الإيجار .. وكانت سعاد تنوى ألا تدفع هذا الإيجار .. لا لأنها لا تستطيع دفع الإيجار لأمها فقد أصبحت تستطيع .. ولكن لا تستطيع أن تعفى أمها من مسئوليتها عنها وعن بناتها ولأنها تحس بأن أمها رغم أنانيتها وبخلها هى أم تنتصر أمومتها فى النهاية على أنانيتها .

وفرحت سميرة وزوجها فرحة كبيرة عندما وجدا أخيرا الشقة التى تجمعهما .. وقالت لها سعاد كأنها تتباهى بفضلها عليها :

– لا حاجة الآن لأن يسافر زوجك ليعمل فى المغرب وتسافرين معه ..

وردت سميرة بلهجتها الجادة وهى تركز نظارتها فوق عينيها :

– إن زوجى بليغ يسافر ليفتح لنفسه مجالا أوسع لممارسة العلم وجمع خبرات ودراسات وتجارب جديدة .. وليس فقط لأننا لا نجد شقة نقيم فيها ..

وقالت أمها سعاد ساخرة :

– الذى أعلمه أنه لم يبدأ البحث عن عمل فى الخارج إلا بعد أن قدر أنه لن يستطيع أن يجد شقة .. إن مشكلة الشقة هى التى تدفع أغلب الأساتذة

الشبان إلى البحث عن عمل فى الخارج .. وإذا كان يريد أن يسافر إلى الخارج ليرفع من دخله ويكسب أكثر فإنه يستطيع أن يؤجل سفره على الأقل إلى أن تحصلى على شهادتك .. عاما أو عامين .. وقد أصبحت حياتكما مريحة كاملة ..

وقد كانت سعاد تتمنى فعلا ألا تسافر ابنتها مع زوجها إلى الخارج .. يصعب عليها ألا تكون مطمئنة عليها وهى بجانبها كما تعودت منذ ولدتها .. وقد أجل بليغ سفره فعلا وإن كان لم يعترف بأنه استغنى عن العمل فى الخارج بعد أن وجد شقة .. بل كان يقول إنه اكتشف أنه فى حاجة إلى مزيد من الدراسات فى جامعة القاهرة ..

وبعد أن استقرت سميرة هى وزوجها فى الشقة أقاما حفلا دعى إليه أفراد العائلة وبعض أصدقائهما المقربين من أساتذة الجامعة وزميلات سميرة فى الجامعة .. حفلة إعلان زواجهما بعد أن كان قد تم منذ عام تقريبا .. والحدث الأكبر هو أن أباها عزيز حضر الحفل ..

إن عزيز تغير تغيرا كبيرا بالنسبة لبناته منذ تزوجت أمهن سعاد بمحمود .. أصبح كأنه لا يريد أن يأخذ منه محمود بناته كما أخذ زوجته .. وأصبح يتصل ببناته كثيرا ويحاول أن يعرف كل شىء عنهن ، وإن كان لم يعرف أبدا حكاية ابنته الكبرى سهير .. وكان عزيز رافضا لزواج ابنته سميرة من بليغ .. رافضا رفضا باتا وفى عنف .. ولم تكن سميرة قد أبلغته بأنها تزوجت فعلا ولكنه بعد أن بدأ يتغير ويبذل جهدا فى التقرب إليها قالت له .. واستطاعت أن تقنعه أو على الأقل استسلم للاقتناع حتى أنه حضر هذا الحفل الذى أقامته لإعلان زواجها .. كأنه لا يطيق أن يترك محمود وحده فى هذا الحفل وكأنه أبو البنت .. وقد قبل الاثنان اللقاء فى الحفل .. ولكنه كان لقاء باردا .. كل منهما يرفع عينيه إلى الآخر كأنه يتحمل مصيبة .. رغم أنه كان قد مضى أكثر من ثمانية عشر عاما منذ أن تركت

سعاد زوجها عزيز لتكون لحبيبها محمود .. ولكن عزيز لايزال يحس بأن هذه المرأة كانت زوجته .. ومحمود لايزال يحس بأنه أخذ زوجته من هذا الرجل ..

ولكن عزيز رغم كل ما تغير فيه لم يحاول أن يطلب من بناته .. أو على الأقل من البنتين اللتين لم تتزوجا بعد .. أن تتركا أمهما وتقيما معه .. وهو لايزال وحيدا .. لم يتزوج .. ويعيش فى فوضى عجوز أعزب .. ولكن طبيعته لم تكن تحتمل أن يقيد حرية نفسه .. وأن يضحى بهذه الفوضى التى يعيشها .. وكل ما حدث من ناحيته بعد أن تزوجت سعاد أنه رفع من قيمة المبلغ الذى يمد به بناته ليعشن به .. كأنه لا يريد لهن أن يعتمدن على رجل آخر كما تعتمد أمهن .. وكانت هذه فرحة للبنات أنستهن كل ما تحملن من أبيهن وكل ما تركهن فيه يعانين مرمطة الحياة .. أما سعاد فلم تفرح لرفع عزيز قيمة المبلغ الذى يكفل به بناته .. وتقبلته ساخرة .. أين كان طوال هذه السنوات دون أن يزيد مليما واحدا .. ربما كان كل ما دفعه إلى هذه الزيادة هى غيرته من محمود .. زوجها محمود ..

وكانت سعاد منذ تزوجت وعاشت فى بيت الزوجية وهى تتعمد أن تفتح بيتها من أوسع أبوابه للمجتمع .. للناس .. وكانت تبذل مجهودا كبيرا فى التقرب إلى أصدقاء زوجها وزوجاتهم وكل من يعيش معه فى مجال العمل .. كانت كأنها تغطى نقصا عانته طوال حياتها .. وكأنها كانت تريد أن تطرد من حياتها سمعتها بماضيها .. إنها لم تعد امرأة ذات ماض .. لقد تزوجت ماضيها .. أصبح ماضيها شرعيا بمجرد ورقة كتبها المأذون .. وكانت تحس أن الناس لايزالون يلوثون سيرتها بل إنهم يقولون عنها إنها من الخطورة والشطارة إلى حد أن اختطفت الرجل وأجبرته على الزواج قبل أن يمر عام واحد على وفاة زوجته الأولى التى عاش معها كل هذا العمر .. وهى مظلومة .. إنها لم تسع إلى زواج محمود بقدر ما كانت تتمناه .. ولكنه هو الذى سعى إليها .. وربما سعى لحاجته إليها فى تدبير

وتنظيم حياته أكثر مما دفعه حبه لها .. وهى تقاوم هذا الظلم بأن تتقرب من الناس حتى يقتنعوا بها كزوجة رائعة مثالية .. زوجة رجل الأعمال بكل ما يريده المجتمع من زوجات رجال الأعمال .. وقد بدأ الناس فعلا يرفعون عنها الظلم .. ويعترفون بها كزوجة رائعة لرجل أعمال .. وربما لم يعترف الناس بها لكثرة ما تبذله فى اكتسابهم إنما لشدة حاجتهم إلى زوجها محمود ..

وفوجئت سعاد بابنتها سامية تدخل إليها مهللة وهى تصيح :

– أحمد سيأتى لزيارتك مع أمه ومع أبيه أيضا ..

ورفعت إليها سعاد عينيها وفيها فرحة هادئة .. إن أم أحمد كانت ترفض أن تزورها لأنها امرأة تعيش فى بقايا ماضيها .. كانت ترفض زواج ابنها من ابنة امرأة ذات ماض بحجة أن الابنة ترث ماضى أمها .. و « اكفى القدرة على فمها تطلع البنت لأمها » ولكن الماضى أصبح الآن واقعا مشرفا يسعى الناس إلى التقرب إليه .. ثم إن أبا أحمد رجل أعمال هو الآخر وأصبح يشرفه أن يناسب محمود حتى لو ناسبه بزواج ابنه من ابنة زوجة محمود .. ورغم ذلك فسعاد فرحة بحل مشكلة ابنتها سامية ..

وقد جاء أحمد مع أمه وأبيه إلى بيت سعاد .. وكان محمود هو الرجل الذى يستقبلهم كأنه أبو البنت .. وتم الاتفاق بسرعة .. وأحمد يريد أن يتزوج حالا .. بعد شهر أو شهرين .. قبل أن تتم سامية دراستها .. وسامية موافقة طبعا .. وانتقلت الأحاديث بسرعة إلى حديث عمل بين محمود وأبى أحمد .. بينما سعاد وأم أحمد تتبادلان حديثا مفتعلا عن المجتمع وآخر موضات الأزياء .. والبنت والولد يجلسان بعيدا ساخرين من المجتمع .. لقد كان الزواج سيتم حتى بغير الأهل ..

وكانت سعاد تعد لزيارة أخرى يشترك فيها عزيز أبو البنت حتى تعلن الخطوبة رسميا .. ولكن عزيز ثار فى وجه ابنته وهى تتصل به .. إن من

يريد أن يخطبها للزواج فليأت إليه فى بيته ليطلبها منه لا فى بيت زوج طليقته .. إنه لايزال يعتبر سعاد طليقته ولا يريد أن يعترف بها زوجة رجل آخر .. وقد ذهب أحمد وأبوه إلى بيت عزيز وربما ذهب الأب حرصا على مرضاة محمود لا تشرفا بمعرفة عزيز .. ربما لولا محمود لما كان الأب قد وافق على زواج ابنه من ابنة سعاد حتى لو اضطرهما أن يتزوجا بعيدا عنه .. لم يعد فى سامية ما له قيمة وما يشرفها إلا أنها ابنة زوجة محمود عبد الرحمن .. الرجل الناجح .. المعروف .. المحترم ..

ولم يعد أمام سعاد إلا مشكلة ابنتها سهير ..

وقد أصبحت سهير فتاة أخرى بعد ما حدث لها .. لقد كانت مصيبة وقعت على رأسها وأفاقتها من كل ما هى فيه .. قاطعت صديقتها نيفين .. إن نيفين لم تهتم بما حدث لها وكأنها لم تحمل من رجل لم يتزوجها واضطرت إلى إسقاط الجنين .. ماذا فى هذا .. إنه شىء طبيعى يحدث بين البنات والأولاد .. وهجرت سهير كل المجتمع الذى كانت تعيش فيه .. المجتمع الذى يعيش كل المصائب كأنها طابع كل الحياة .. ولم تعد تؤمن بالمساواة المطلقة بين البنت والولد كما كانت تؤمن .. المساواة فى الحق واللا حق .. وأصبحت تؤمن بأن هناك فارقا كبيرا بين البنت والولد .. البنت تحمل الجنين فى بطنها والولد لايحمل .. فيجب أن يكون حق كل منهما منفصلا عن حق الآخر .. لا مساواة مطلقة بينهما فى الحق واللا حق .. ولم تعد تركز كل إحساسها فى أنها فتاة جميلة ولم تعد تعتمد أن تكشف عن إغرائها .. وأصبحت ضنينة بابتساماتها وضحكاتها بل أصبحت لا تتكلم كثيرا كما كانت عادتها .. لم يعد يهمها الكلام .. أصبح لا يهمها إلا ما تفعله ..

وكانت بعد أن مضت شهور على مصيبتها قد بدأت تستطيع أن تواجه الناس .. بل إنها بدأت تستعيد التدريب فى أحد الفنادق الكبرى إلى أن

حصلت فعلا على وظيفة مساعدة فى مكتب الاستقبال .. وأصبحت جادة مع كل من وما حولها .. إنها لا تحاول أن تجذب أحدا من الشبان الذين يحيطون بها فى الفندق .. وأصبحت تصد أى محاولة يحاولها أحد منهم لاجتذابها .. أصبح معروفا عنها أنها بنت جادة .. متحفظة .. بل أحيانا ثقيلة الدم .. ولكنها لم تكف عن التفكير فى الزواج .. إن الزواج كما تقول أمها هو ما تستكمل به البنت شخصيتها .. وهى فى حاجة إلى استكمال شخصيتها .. ولكن كيف .. إنها لن تحاول أبدا تجربة كالتجربة التى مرت بها ..

إلى أن دخل رأفت حياتها ..

إنه من عائلة محمود زوج أمها .. وقد تخرج فى كلية التجارة وأصبح يعمل فى شركات محمود مقربا إليه كأنه سكرتيره الخاص .. ومحمود يحبه وكان يتردد كثيرا على البيت وبعد فترة ينسى أنه سكرتير صاحب البيت ويبقى معهم كواحد من أفراد العائلة ..

وقد بدأ اهتمامه بسهير يزداد يوما بعد يوم حتى أصبح كأنه لا يأتى إلا لها .. وبدأت الساعات التى تجمعهما فى أحاديث لا تنتهى تحيطهما بسعادة ترتفع درجة حرارتها .. حتى أصبحا كأنهما يتصارحان .. كل منهما يريد الآخر .. ولكن كلماتهما لاتزال متوارية لا تعلن حبهما .. وهى تحبه .. إن رجلها السابق لم يكن حبا .. كان مجرد انقياد مفتعل لتحقيق الزواج كما تتوهمه .. ولكنها تحب رأفت .. إنه أول حب فى حياتها .. ورغم ذلك فهى تتعمد الحرص على ألا تعطيه شيئا مما كانت تعتقد أن من حقها أن تعطيه .. لم تعطه طوال هذه الفترة قبلة .. بل لم تكن تترك يدها في يده .. تكفى الابتسامات والتقاء النظرات ليعرف كل منهما إحساس الآخر به ..

وأمها تلحظ وتفهم ما بينها وبين رأفت منذ بدأ .. وتسكت .. وكلها أمل

أن ينتهى ما بينهما إلى تحقيق حلمها الأكبر .. إنها أيضا تثق فى رأفت وتتمناه لابنتها .. إلى أن صارح رأفت سهير .. إنه يريدها .. يريد أن يتزوجها .. وهى قطعا تريده .. ولكن بدأ تساؤل يسيطر على كل فكرها .. هل تصارحه .. هل تقول له إنها ليست عذراء .. وتحكى له الحكاية .. أم تجرى العملية التى تعيد لها عذريتها ..

واشتدت حيرتها حتى لجأت إلى أمها تسألها كأنها تستغيث بها .. ولكنها لم تسألها .. وقالت فى إصرار ثائر :

- سأقول لرأفت كل شىء ..

وقالت الأم فى دهشة :

- ماذا ستقولين له ..

وقالت بلهجة إصرارها :

- سأقول له إنى لست عذراء .. وأحكى له الحكاية ..

وقالت الأم وهى تتنهد فى حسرة :

- إنه أحبك دون أن يعرف حكايتك ويأخذك على أنك عذراء ..

وقالت سهير وهى تدير وجهها عن أمها وكأنها تحادث نفسها :

- لايمكن أن يكون حبه كاملا إلا إذا عرفنى كلى دون أن أخفى عنه شيئا .. كما عرفته أنا كله حتى ما كانت له من علاقات مع البنات ..

وقالت الأم متنهدة :

- إن ما كان له من علاقات مع البنات لا يؤثر فى حبك له .. بالعكس .. إن البنت أحيانا تتباهى بأن زوجها كان معبود النساء وهى التى انتصرت وأخذته منهن لها وحدها .. أما علاقات البنت بالأولاد قبل الزواج

فلا تصارح به البنت زوجها .. لأن الرجل يريد أن يتباهى بأنه أول رجل فى حياة البنت .. فاحسبى حساب كل ذلك قبل أن تصارحيه .. وبالأمس فقط كنت أنا وصديقتى هدى نتحدث عن الطبيب الذى يجرى عمليات إعادة العذرية .. إنها عملية سهلة ..

وصاحت سهير :

- لن أذهب إلى طبيب ليجرى لى عملية لصق عذرية كاذبة كما يلصق عامل الكاوتشوك قطعة من الجلد يسد بها العجلة الممزوقة .. لا .. سأقول له كل شىء .. وإما أن يحبنى ويتزوجنى كما أنا .. وإلا فمن حقه أن يستغنى عنى .. ومهما تعذبت فإنى أستحق عقاب القدر ..

وقال الأم بجدية :

- إذا كنت ستصارحينه فيجب على أنا الأخرى أن أصارح زوجى محمود .. لقد صارحته بكل أسرارى وأسرار بناتى ولكنى إلى الآن لم أصارحه بسرك .. لأنى كنت أحس أنه سر ليس ملكى وحدى ولكنه ملكك وأنت التى تقررين المصارحة .. ثم إنه السر الذى أهرب من ترديده حتى أمام نفسى .. ولكن الآن يجب أن أصارحه بالسر قبل أن تصارحى به رأفت ابن اخته .. فهو المسئول عن زواجكما . إذا تزوجتما ..

وقالت سهير وهى تجرى من أمام أمها :

- إنى مصممة على مصارحة رأفت مادام لايزال مصرا على الزواج .. وصارحى أنت أونكل محمود .. إن زوجك أيضا يجب أن يعرفنى ويقبلنى فى بيته كما أنا ..

وصارحت سعاد زوجها محمود بسر ابنتها .. وقال محمود بعد أن استمع لها فى دهشة :

- إن ابن أختى رأفت يلح على برغبته زواج سهير .. وكنت أؤجل

الحديث معك حتى أتفرغ لهذه الفرحة الجديدة .. ولكنى الآن يجب أن أنقل إليه ما سمعته منك .. حتى لا يعتقد ابن أختى أننا اتخذناه لتغطية عار .. خصوصا وأنه قد يسمع الحكاية من الخارج .. وقد يفاجأ بها عندما يكتشفها بنفسه ليلة زفافه إلى سهير .. إن الأفضل أن نصارحه حتى يعلم أنى لم أتزوج هذا الصنف من الناس ..

وأحست سعاد كأنه يحملها هى المسئولية وكأنه يعنيها هى وهو يشير إلى هذا الصنف من الناس ..

وقالت فى انهيار :

– صارحه أنت .. ولن ألومه إذا عدل عن الزواج ..

وقد استدعى محمود ابن أخته رأفت فى نفس اليوم وبدأ فى مصارحته وما كاد يصل إلى كلمات يفهم منها رأفت ما يريد أن يقوله حتى قاطعه قائلا :

– إنى أعرف كل شىء ..

وقال له محمود فى دهشة المفاجأة :

– كيف عرفت .. ؟

وقال رأفت فى هدوء من خلال ابتسامة :

– سهير صارحتنى بكل حكايتها .. وأنا مازلت مصمما على أن أتزوجها .. أتزوج سهير .. إنى لا أتزوج ماضيها ولكنى أتزوج مستقبلى معها .. وأنا مطمئن إلى هذا المستقبل ..

وقال محمود وهو لايزال فى دهشة :

– أرجو ألا تتزوج مراعاة لى ومراعاة لرضاء أمها سعاد .. إن سعاد نفسها قالت لى إنها لن تلومك إذا عدلت عن الزواج ..

وقال رأفت وابتسامته تتسع :

– إن من يبنى مستقبله لا يقيد نفسه بمراعاة أحد حتى لو كان أباه أو أمه .. والزواج مستقبل .. وأنا كما قلت مطمئن ومقتنع بزواجى من سهير .. وأنت يا عمى .. لا شك أنك عندما تزوجت عمتى سعاد لم تتزوج ماضيها ولكنك تزوجت مستقبلك معها ..

وتنحنح محمود كأنه يطرد إحساسا بأن رأفت يذكره بأنه تزوج هو الآخر امرأة لها ماض .. وإن كان ماضيها مع ماضيه .. وقال مستسلما :

– على بركة الله يابنى ..

* *

لم يعد هناك شىء ينقص سعاد .. إنها فى قمة السعادة .. إنها فى الجنة .. لم تعد المرأة تعانى جروح ماضيها وتخاف من هذا الماضى أن يتعس بناتها .. لقد أصبحت زوجة يحسدها كل الزوجات .. وسيدة مجتمع رائعة ناجحة .. وبناتها الثلاث قد انتهت كل منهن من رسم مستقبلها وتزوجت .. وكل أيامها ضحكات ..

ولكنها غالبا ما كانت تحس بأنها تفتعل هذه الضحكات ..

هناك شىء اكتشفته بعد الزواج ..

إن محمود الذى تزوجته غير محمود الذى كانت تحبه .. إنه شخص آخر .. شخص يخيل إليها أنها لم تعرفه إلا على يد المأذون وهو يعقد العقد .. ربما كانوا أيام زمان لا يبيحون القاء المرأة بالرجل إلا فى ليلة الزفاف وبعد عقد القران لأنهم كانوا يعرفون أن الرجل الذى يتزوج له شخصية أخرى غير الرجل الذى يحب حتى لو تزوج حبيبته .. وربما كانوا يشفقون على المرأة من أن تختار بين الشخصيتين فحرصوا على

ألا يعطوها إلا شخصية واحدة .. شخصية الزوج .. وحرصوا على أن يولد الحب مع الزواج .. حتى يكون للجب والزواج شخصية واحدة .. إن الناس لاتزال حتى اليوم مقتنعة وتردد دائما أن الحب الذى يولد بعد الزواج يشب أقوى وأكثر صحة من الحب الذى يولد قبل الزواج .. إن الحب بعد الزواج يعيش العمر كله أما الحب قبل الزواج فلا يعيش إلا إلى أن يتم الزواج ..

وقد كانت تعرف وتقدر الفارق الكبير بين مسئوليتها كزوجة ومسئوليتها كحبيبة أو كعشيقة .. إن مسئولية الحب هى مسئولية اللقاء وما يمهد له وما ينتهى إليه هذا اللقاء .. ولكن مسئولية الزواج هى مسئولية الحياة كلها .. الحياة بكل دقائقها وبكل نواحيها .. وقد بذلت كل ما وهبها الله من طاقة لتحمل هذه المسئولية .. مسئولية الزوجة .. وجعلت كل حياتها هى حياة محمود .. وكل ما فى قلبها هو الإحساس بمحمود .. وكل ما فى فكرها هو إسعاد محمود .. حتى مشاكل بناتها لم تعد تفكر فيها إلا من خلال الفكر الذى يحتله محمود ..

ولكن محمود تغير حتى أصبحت حائرة فيه .. تغير عن محمود الذى كانت تحبه .. إن الحب بلا زواج يعيش وهو خائف على نفسه من الضياع .. فالحب بلا زواج لا يحقق ملكية الرجل للمرأة وملكية المرأة للرجل .. إن الحب نوع من التطوع العاطفى .. الرجل يتطوع بعواطفه للمرأة .. كما يتطوع للقتال فى سبيل وطنه .. إنه ليس مجندا للقتال بحكم الشرعية ولكنه متطوع .. والهدف واحد بين الحب والحرب .. وهو الاستجابة إلى إحساس عارم طاغ يسيطر على صاحبه .. الإحساس بحب امرأة أو بحب الوطن ..

أما بعد أن تزوجها محمود فقد أصبحت ملكه شرعا .. ملكه بحكم القانون .. ولم يعد يخاف أن تضيع منه كما كان يخاف .. لم تعد تحس منه بهذه اللهفة التى تعودتها منه وهى معه .. حتى قبلاته لم يعد فيها هذه

اللهفة .. حتى وهى معه وفى أحضانه فوق الفراش لا تحس بنفس حرارة اللهفة .. إن فراش الزوجية يكاد يكون فراشا روتينيا تنام فيه كما تجلس على مائدة الطعام .. تأكل لأن الحياة تفرض عليك الأكل .. فراش الزوجية غير فراش الحب الذى تطغى عليك فيه اللهفة وتحس أنك تطير إلى السماء لتغتصبها .. ماذا يدفعه إلى اللهفة وهو زوجها .. إن الإنسان لا يتلهف إلى ما يملكه بين يديه لهفته إلى ما لا يملكه إلا بأمنياته ..

وكانت أحيانا تلوم نفسها عندما تحس بهذه الأحاسيس وتخطر عليها هذه الخواطر .. إنها لا يمكن أن تقارن بين الأيام التى كانت تعيش فيها حب محمود والأيام التى تعيشها معه كزوجين .. هناك فارق العمر .. محمود تعدى الستين وهى قد تعدت الخامسة والأربعين .. ولكن محمود سبق أن قال لها إن الحب لايتغير مهما طال العمر إنما كل ما يتغير فيه هى مطالبه .. مطالب الحب .. ولكنها تخشى أن يكون ما تغير فى محمود ليس مجرد مطالب الحب ولكن ما تغير هو الإحساس بالحب .. إن إحساسه بها أصبح باردا خافتا كإحساس موظف قديم بمسئوليات وظيفته .. وهو ما يؤكد لها الخاطر الذى يخطر لها أحيانا .. إن محمود لم يدفعه إلى زواجها مجرد الحب إنما كان الأقوى فى دفعه إلى الزواج هو حاجته إليها لتعينه على تدبير حياته .. لتكون ست بيت .. مديرة إدارة البيت .. موظفة يحتاج إليها .. خادمة له ..

وهى واثقة أنها ست بيت ممتازة .. إنها منذ صغرها وهى متخصصة بكل عقلها وبتحركات أصابعها فى الإشراف على البيت .. بيت أمها .. ثم بيت زوجها السابق .. ثم بيتها وحدها مع بناتها .. والآن بيتها مع محمود .. ولكن محمود لا يراعى إحساسه بها كست بيت .. إنه لا يزال بكل إحساسه مع زوجته الأولى شريفة .. لم يستطع أن يحقق ما كان يقوله من أنه سيجمع بين الحالتين .. حالة الحب وحالة الزواج .. حالته التى كانت معها وحالته التى كانت مع زوجته المرحومة .. وكان الجمع بين الحالتين يتطلب أن

ينسى ويتحرر من إحداهما .. أن يتحرر من إحساسه بزوجته الأولى ولكنه لم يتحرر من هذا الإحساس .. لعله لا يستطيع بعد أن عاش كل هذا العمر مع شريفة وتعود عليها حتى لا يزال يعيش معها بعد أن ماتت .. إنه بلا تعمد وبلا انفعال وبصوت عادى يقارن كل ما يجرى فى البيت بما كان يجرى فى بيته أيام شريفة .. لقد كان مرة يناقشها فى تحديد مصروف البيت حسب النظام الذى وضعه لتنظيم مصروفاته .. وقال بلا تعمد :

– لقد رفعت مصروف البيت عما كنت أخصصه لشريفة .. كنت مطمئنا إلى أنها شاطرة فى حسابات المصروف .. إلى أن أطمئن إليك أنت الأخرى ..

وتحملت الجرح الذى شقه فى صدرها بصمت وبابتسامة كالحة ..

وفى يوم آخر وهما يتناولان الغداء ويقطع قطعة اللحم بالشوكة والسكين قال :

– هذا اللحم مبالغ فى شيه .. عودتنى شريفة على اللحم نصف شواء ..

واقترب منها يوما وهو يرتدى ملابس الخروج قائلا من خلال ابتسامة واسعة كأنه يحادث صديقه أو يحادث أخته أو أمه :

– عودتنى شريفة أن تربط لى الكرافت فاربطيها لى ..

وربطت له الكرافت وهى تغتصب ابتسامة من قلبها المجروح .

وطول يومه يقارن بين حياته معها وحياته مع المرحومة شريفة ..

ولكن يجب أن تحتمل .. يجب ألا تنكر السعادة التى حققها لها .. لماذا اختارها ليتزوجها هى ؟ لتكون مجرد ست بيت .. إن أى امرأة أخرى يمكن أن تصلح لتكون ست بيت .. وتظل هى فى حياته مجرد ذكريات يعتز بها

ويدفع لها ما يعينها على الحياة كثمن لهذه الذكريات كما ظل يفعل ثمانى سنوات وأكثر .. ولكنه إذا كان قد اختارها كزوجة فلا شك أنه لايزال يحبها مهما تغير إحساسه بهذا الحب ..

يكفى أنه انتشلها من جهنم حياتها كامرأة مطلقة إلى جنة حياتها كزوجة ..

إن حياة المطلقات جحيم ..

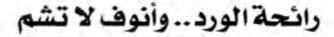
حتى إذا انطلقت ألسنة النار فى حياة زوجة فهى أرحم وأخف من نار جهنم التى تعيش فيها المطلقات .. وقد مرت عليها سنوات وهى تندم على أنها طلقت زوجها الأول رغم أنها لم تكن تحبه ورغم أنه كان يعذبها .. ولكنها كانت تندم بعد أن عاشت جهنم المطلقات ..

إنها اليوم سعيدة ..

ومهما خطر عليها مما يجرح إحساسها واعتزازها بنفسها فهى سعيدة .. وبناتها سعيدات .. وستبقى إلى آخر العمر سعيدة .. لأنها ستبقى إلى آخر العمر زوجة ..

لن تلقى بنفسها أبدا ومهما حدث فى جهنم المطلقات ..





رائحة الورد.. وأنوف لا تشم

فى أسلوب روائى جذاب يشد إحسان عبدالقدوس القارئ إلى مشكلة خطيرة تعصف بحياة كثير من الأسر، وهى مشكلة الطلاق، ويجعله يعمل الفكر فى هذه القضية بعد أن ينتهى من قراءة هذه الرواية التى اختار لها عنوانا «رائحة الورد.. وأنوف لا تشم». وميزة أدب إحسان عبد القدوس أن القارئ لا يفرغ منه بمجرد قراءته، بل إن هذه القراءة ليست سوى البداية لمرحلة من التدبر والتفكير العميق فى كافة الظواهر المحيطة بحياتنا والتى يطرحها المؤلف بسلاسة واقتدار.

وأعمال إحسان عبد القدوس، ٥٩ كتابا، نجحت فى طرح كافة جوانب حياتنا المعاصرة بكل تعقيداتها، وحظى العدد الكبير منها الذى تحول لأفلام سينمائية وتليفزيونية بنجاح كبير على امتداد الوطن العربى لأصالة ما يثيره وما يناقشه وتفرد أسلوبه الروائى.

الناشر

من كتب إحسان عبد القدوس الأخرى التى نشرها المركز:

١ - كانت صعبة ومغرورة
٢ - فوق الحلال والحرام
٣ - لمن أترك كل هذا
٤ - وكر الوطاويط
٥ - ونسيت أنى امرأة
٦ - بنت السلطان
٧ - الهزيمة كان اسمها فاطمة
٨ - وتاهت بعد العمر الطويل
٩ - لن تعود أيام زمان
١٠- الراقصة والسياسى
١١- العذراء والشعر الأبيض
١٢- الوسادة الخالية

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج: وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب